

كتب عربي
(إهداء)



اهداءات ٢٠٠٢

د/ محمد عبد الفتاح الغمراوي
الإسكندرية

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ

الدكتور عبد الحسین صالح



شركة
مكتبات
مكارم
للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة لشركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع
جدة ت : ٦٧٢١٠٠٠ (عشرة خطوط)
الرياض ت : ٤٠٤٠٨١٤
الدمام ت : ٨٢٦١١٠٨
المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

إهداء

إلى كل قارئ يهتم بعقله أكثر من بطنه
فيغذيه بنور العلم والمعرفة على يتقرب
أكثر إلى الله .. مبدع كل شيء في الكون
والحياة .

فشعارنا .. هو شعار القرآن الكريم
﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
وأيضاً أهدى هذا الكتاب إلى
روح أمي وأبي جزاء ما رباني

تنويه

فكرة هذا الكتاب ظهرت قبل ذلك على هيئة سلسلة من المقالات المنشورة في مجلة «الوعى الإسلامى» التي تصدرها وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت . . لكننا حورنا في مضمونها ، فحذفنا منها ، وأضفنا إليها ، بما يتلاءم مع ظهورها في كتاب متكامل ، لتكون الفائدة أعم . . والله الموفق . .

المؤلف

المحتوى

صفحة	
١١	تمهيد
١٧	الفصل الأول :
	وجاءت الجسيمات أزواجاً .. أزواجاً
٣٧	الفصل الثانى :
	والسماوات أزواجاً
٦١	الفصل الثالث :
	والخلايا أزواجاً
٧٣	الفصل الرابع :
	ومن الأمشاج أزواجاً
٨٥	الفصل الخامس :
	ومن الجينات أو المورثات أزواجاً
٩٧	الفصل السادس :
	ومن الشرائط المسجلة أزواجاً
١٠٩	الفصل السابع :
	ومن شفرة الحياة أزواجاً
١٢٣	الفصل الثامن :
	ومن البروتينات أزواجاً
١٣٧	الفصل التاسع :
	ومن الأملاح أزواجاً
١٥١	الفصل العاشر :
	تعقيب وخاتمة

تمهيد

قالوا: ان من أسرار إعجاز القرآن أنه صالح لكل زمان ومكان، ونضيف الى ذلك: أنه صالح أيضا لكل مستويات الفكر عند الانسان، فبقدر ما يعرف المسلم من أمور دينه ودنياه، بقدر ما تفتح له من آيات القرآن بعض أسرارته وخبائيه. . فالأعرابي مثلا، أو الرجل العادي، أو رجل الدين، أو رجل العلم. . إلخ، كل منهم يعرف من القرآن على قدر ما تأمل ووعى وجمع فدرس فاوعى، فينهل من فيض نفحاته على حسب فهمه او تعمقه في امور الكون والحياة. .

وأنا رجل علم في المقام الأول، ولهذا فعندما أقرأ القرآن، أو استمع إليه، فان حلاوة ترتيله، او جمال معانيه واحكامه ونواحيه، ليست هي وحدها شغلى الشاغل، بمعنى انها لا تستأثر بكل ما يحول في الخاطر من افكار، بل ان العين قد تقع اثناء القراءة، او قد تلتقط الأذن اثناء التلاوة، آية أو بعض آية، فاذ بها في خبايا العقل، تبدو وكأنها هي تزخر ببهور عميقة من الأسرار البديعة، والعلوم العميقة، لكن هذه البهور لا تتجلى لرجل الدين كما تتجلى لرجل العلم التجريبي، فهذا الأخير قد يقع منها على خبايا لم تفتح لكل الأجيال السابقة، ذلك ان العلم متطور، والقرآن مناسب تماما لهذا التطور، بشرط ان يكون قارئه متطورا غير جامد، ولا متعصبا لرأى لا يستقيم مع عقل راجح، أو فكر صائب.

إن رجل العلم الحقيقي يعيش دائما مع القوانين الكونية، والنواميس الطبيعية، ومن خلال تعامله معها بالبحث والتمحيص والتجريب، يكتشف ان كل شيء قد نظم تنظيما بديعا، وخلق خلقا عظيما، فسرى كل امر بموازن عظيمة لا يعترها خلل، ولا تداخلها فوضى، بل ان النظام هو القانون الأول من قوانين الكون والحياة. . بداية من الذرة الى الجزيء الى الخلية الى الكائن الحى الى الأرض والسموات، بما تحوى من اقمار وكواكب وشموس ومجرات.

ولهذا فعندما أقرأ القرآن، فانما أقرأه قراءة المدقق الباحث، وكثيرا ما تستوقفنى منه آيات لا يمكن تفسيرها تفسيراً فيه اصالة وعمق الا من خلال العلوم التجريبية الحديثة، وهى علوم تتناول طبائع الكون والحياة.

ومن الآيات التى استرعت الانتباه، وأثارت الأفكار، وجذبت العقل واستوقفته فى لحظات من التأمل والتفكير الواعى، تلك التى تشير الى خلق الأزواج فى آيات كثيرة، وبمعان متباينة، وكثيرا ما يمر الناس على هذه الآيات مر الكرام، فلا يدركون منها الا ظاهرها، اما الباطن فعنهم محجوب، ولن يصلوا اليه، الا بقدر ما ادركوا من اسرار الله فى خلقه، وتلك تتطلب علما، ولهذا فان من يعلم ليس كمن لا يعلم. . . ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾!

* * *

تُرى. . . ماهى تلك الآيات البينات التى أثارت الفكر، وجذبت الانتباه؟

يقول الله تبارك وتعالى فى خلق الزوجين أو الأزواج. . . ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما

لا يعلمون ﴿ (يس . . آية ٣٦) . ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم
تذكرون ﴾ (الذاريات . . آية ٤٩) . ﴿ والذي خلق الأزواج كلها . وجعل
لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ (الزخرف . . آية ١٢) . ، والله
خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً ﴾ (فاطر . . آية ١١) .
﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ (النبا . . آية ٨) . ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر
والأنثى ﴾ (القيامة . . آية ٣٩) . ﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم انبتنا فيها من
كل زوج كريم ﴾ (الشعراء . . آية ٧) . الخ . . الخ .

لكن خلق الزوجين أو الأزواج هنا فيه ظاهر وباطن!

فأما الظاهر، فهو ما يراه المفسرون التقليديون رؤية العين . .
فالإنسان زوجان: ذكر وأنثى، أو رجل وامرأة، وكذلك الحيوان
والنبات، فكل قد جاء إلى الحياة، وبها سار، ليعطى أجيالا من وراء
أجيال من خلال الزوجين: الذكر والأنثى .

هذا هو الظاهر . . اما الباطن فهو أعمق من ذلك بكثير . . صحيح
اننا لانراه رؤية العين، ولاندركه بحواسنا المحدودة، لكنه -مع ذلك-
موجود، وله نشأة حقيقية تقوم على فكرة خلق الزوجين، بداية من
الجسيمات التي تدخل في تكوين الذرات، ثم تنتهي بالسموات بما فيها
من نجوم ومجرات . .

ان لخلق الأزواج بدايات عجيبة، ولتكويناتها المثيرة نظما فريدة، حتى
لكأنما هي تبدو لرجل العلم التجريبي بمثابة ملكوت من داخل ملكوت
من داخل ملكوت . . الخ .

ولكى نوضح المعنى الباطن من وراء خلق الأزواج، دعنا نبداً بالانسان.. صحيح ان منه الزوجين: الذكر والأنثى، وصحيح ان احدا لا يستطيع ان يجادل في ذلك، لكن من وراء هذا التجسيد الحى قصة خلق اخرى قديمة قدم الكون الذى نراه، والذى لانراه! فالانسان.. أو أى كائن حى آخر منظور، يتكون من أعضاء.. الأعضاء من أنسجة.. الأنسجة من خلايا.. الخلايا من جزيئات اكبر.. الجزيئات الأكبر تكونها جزيئات اصغر.. الجزيئات من ذرات.. الذرات من جسيمات، والى هنا نكون قد وصلنا الى اصغر وحدات المادة.. فجسيمات الذرة الأولية هى البروتون والنيوترون والاليكترون (موجب ومتعادل وسالب).

وكل هذا معروف ومدرّس ويتلقاه التلاميذ فى المدارس، او الطلبة فى الجامعات، لكن من وراء هذا الخلق الجسمى تكمن فكرة خلق الزوجين، ليس على مستوى الانسان وسائر المخلوقات كما يعتقد جماعة المفسرين، ولكن على مستوى الجسيمات.

والى هنا نأتى الى السر الذى لم يتكشف لكل الأجيال الماضية، وظل لغزه مطويا، زهاء أربعة عشر قرناً- فى بعض آيات القرآن الكريم، تلك الآيات التى تتحدث عن خلق الأزواج، مانعلم منها، وما لانعلم، وان كان علمنا هنا علماً نسبياً، اذ أن «فوق كل ذى علم عليم».

لكن.. ماذا نعنى بخلق الأزواج او الزوجين على مستوى جسيمات ذرية، ثم ما تمخض عنها من نظم كثيرة جاءت ايضا على اساس فكرة الزوجين؟

لهذا قصة طويلة ومثيرة، وسوف نتعرض لها فى أول فصل من فصول هذا الكتاب، لنعلم من اسرار القرآن ما لم نكن نعلم، وما أكثر ما لانعلم!

* * *

على أنه يجدر بنا في هذا المجال أن نورد تفسيرات المفسرين في معنى خلق الزوجين أو الأزواج التي وردت في الآيات القرآنية، فمنهم من قال إنها الأزواج من المخلوقات . . أى الذكر والأنثى، ومنهم من ذكر أنها الأجناس والأشياء، ومنهم من أفتى بأن من الأزواج أيضا ما يشير الى المتناقضات . . مثل الجنة والنار، والنور والظلام، واللذة والألم، ، الخ، ومع كل هذه التفسيرات او غيرها، نستطيع ان نقول ان التفسير العلمى للأزواج الذى سنقدمه فى هذا الكتاب، لا يختلف فى عمومياته عن هذه المعانى، لأنه يجمع بينها فى اطار واحد.

كل مانرجوه هنا أن يوفقنا الله فى التعرض لمثل هذا الموضوع الشائك، فان أصبنا، كان ذلك خيرا وفضلا، وان أخطأنا، فان الله غفور رحيم .

فليوفقنا الله فيما نكتب، وليوفقك فيما تقرأ وتستوعب من أسرار ظلت خافية فى ثنايا القرآن الكريم، لكن لم تتضح معانيها الغامضة لكل الأجيال السابقة .

الدكتور عبدالمحسن صالح

أستاذ علم الكائنات الدقيقة

ورئيس قسم صحة البيئة

المعهد العالى للصحة العامة - جامعة الاسكندرية

الفصل الأول

وجاءت الجسيمات أزواجاً . . . أزواجاً

الفصل الأول

وجاءت الجسيمات أزواجا .. أزواجا

لكل شيء بداية، كما أن لكل شيء نهاية .. حتى لكأنما النهاية تبدو لنا وكأنها بداية، أو أن البداية تصبح بدورها نهاية!

وليس في هذا القول فلسفة أولف أو دوران .. ذلك أننا كلما تعمقنا في حقيقة الأشياء، وكدنا أن نصل الى الجوهر الذى قام عليه الخلق، تاهت العقول، وكأنما هى تغرق فى بحر ليس له من قرار!

ومع ذلك فقد حضنا الله سبحانه وتعالى على البحث فى بدايات الخلق، بدليل قوله عز وجل ﴿قل سيروا فى الأرض، فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ (العنكبوت .. آية ٢٠). وقوله ﴿الذى أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الانسان من طين﴾ (السجدة .. آية ٧).

والذين ساروا ونقبوا وبحثوا وتعمقوا فى بدايات الخلق، يرون غير مايرى عامة الناس، حتى ولو كان هذا الخلق على مستوى الطين، ذلك أن الطين من جزيئات .. والجزيئات من عناصر .. والعناصر ذرات لازالت تتوه فى نظمها العقول، اذ أن لها شرائع ونواميس تسير على هديها، وتؤلف فيها بينها .. «ولكن أكثر الناس لايعلمون».

وحتى هذا الطين له بداية ونهاية، وبدايته قامت أساسا على فكرة خلق

من عشرة ملايين جزء من المليمتر. . ورغم ضآلة هذه المسافة بمعاييرنا البشرية، إلا أنها «واسعة» جدا. . والوصف هنا نسبي بطبيعة الحال، فالإلكترون ذاته أضال بكثير من المسافة التي تفصله عن نواته، ولهذا يجرى حولها في حرية تامة، كما تجرى الخيل مثلا حول مركز حلبة السباق وعلى أطرافها البعيدة!

المهم أن التحليل الرياضي كان ينصب على واحد من هذه الإليكترونات وهو ينطلق حرا بقوة أو طاقة دافعة، وطبيعي أن طاقته كلما كانت أكبر، كان انطلاقه أعتى وأسرع -ولاشك أن معادلات ديراك التحليلية لاتنبع من فراغ، بل كان- في الواقع- يستفيد بنظريات ومعادلات من سبقوه في هذا المجال، فزواج مثلا بين نظرية النسبية لالبرت اينشتاين، وبين نظرية ماكس بلانك الخاصة «بالكم» . . وهي التي تبحث بدورها في تردد الموجات الكهرومغناطيسية، لأن هذه الموجات تتردد أو تهتز أو تنطلق على هيئة باقات أو رذاذ دقيق غاية الدقة، وكل رذاذ من ضوء أو طاقة بمثابة كمية محددة (ولهذا سميت كوانتم Quantum أى الكم) . . هذا ورذاذ الضوء اسمها «فوتون»، أى وحدة الضوء أو «الجسيم» الضوئي، وهي أصغر من الإليكترون بمئات الألوف من المرات، لكن بعض هذه الفوتونات أو «الكوانتا» ذات طاقات رهيبية مدمرة، وبعضها لطيف (كالضوء المنظور)، والبعض الآخر ضعيف واهن . . لكنها جميعا تنطلق على هيئة موجات كهرومغناطيسية بسرعة الضوء، أى ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية الواحدة. . ولهذا تعتبر هذه الفوتونات بمثابة الرصاصات المتناهية الصغر، والتي تضرب الإليكترونات، ثم تتخلى لها عن بعض طاقتها، فتحملها الإليكترونات حملا، وبها تجرى أسرع.

وعندما خرج ديراك على الملأ بمعادلاته، ظهر أن بعضها يتبع منطق عالمنا، ويساير مداركنا، والبعض الآخر أطاح بكل البدهيات التي نعرفها في حياتنا،

اذ أن هذا البعض كان يشير الى امكان وجود طاقة سالبة ، أو اليكترون بكتلة سالبة ، أو أنه يترد الى الوراء فى زمن معكوس لزماننا . . وطبيعى أن أحدا لا يمكن أن يستسيغ مثل هذه الأمور التى لا معنى لها ولا طعم ، حتى لقد ظنها علماء الرياضيات الآخرون بمثابة لغز أو مزاح لا يستقيم مع أبسط قواعد المنطق . . والا فماذا تعنى معادلات ديراك حقا بزمن معكوس يسرى فى اتجاه مضاد لزماننا ، أو ماذا تعنى طاقة سالبة ، ونحن نعرف أن كل حركة ماهى الا طاقة دافعة أو موجبة ، فاذا مات الانسان مثلاً ، كانت طاقته التى يعيش بها صفراً . . أى أنه لا يتنفس ولا ينبض ولا يهضم ولا تتحرك فيه شاردة ولا واردة ، لكن ماذا تعنى طاقة سالبة الا بقدر ما يعنى أنك ركلت كرة الى الأمام بطاقة سالبة ، وعندئذ سترها تندفع الى الخلف . . لا إلى الأمام كما أردت . . ثم كيف نحصل على مانسميه طاقة سالبة . . أى لا وجود لها حقا الا فيما وراء العدم؟ . . وأخيرا ماذا يعنى جسم سالب؟ . . فالجسم اما موجود أو غير موجود - أى صفراً - لكن الجسم السالب ليس له معنى .

لقد هز العلماء رؤوسهم أسفا على ماخرج به ديراك ، ومع ذلك فقد كان واثقا من تحليلاته ومعادلاته ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يفهم مغزى «الفزورة» ، ولو أدركوها ، لعرفوا أن معادلاته كانت تشير حقا الى خلق الزوجين Pair Creation فى وقت واحد . أى الاليكترون وقرينه أو نقيضه او كيانه المعكوس . !

أصاب أم أخطأ ؟

وكل هذه الأمور تبدو حتى الآن غامضة . . فماذا يعنى كل ذلك حقا؟ . . وهل كان ديراك مصيبا فى استنتاجه ، ام كان من الخاطئين؟

الواقع أنه أصاب . . ولقد خرج من هذا المأزق بافتراض غريب ، اذ

تصور أن هناك فضاء سالبا ومكدسا باليكترونات طاقتها سالبة كذلك، ونحن لانعرف وجوداً لفضاء سالب أو اليكترونات طاقتها سالبة، فذلك ليس له مغزى على الاطلاق فى العقول.. لكن ديراك يقول: لو أننا استطعنا أن نسلط فوتونا واحدا ذا طاقة عالية على هذا المحيط السالب، فان هذه الطاقة ستكون كفيلة بكل واحد من هذه الاليكترونات من محيطها السالب، ثم دفعه ليظهر فى عالمنا كاليكترون يجرى بطاقة موجبة.. ولو حدث ذلك حقا، فان الاليكترون ذا الطاقة السالبة، سوف يترك فى مكانه الفراغ الذى كان يحتله فى هذا المحيط السالب، لكن ديراك يستطرد فيقول: ان هذا الفراغ لن يكون فراغا بالمعنى المفهوم.. بل سيحتله فى التو واللحظة اليكترون طبق الأصل من الاليكترون الذى ترك المحيط، ثم انطلق بما حمل من الطاقة.. ولكنه معكوس الصفات!

أى كأننا نحن نقول: ان «العدم» قد تحول الى وجود.. الى تجسيد حقيقى على مستوى جسيم ذرى.. لكن ذلك أيضا يزيد الأمور أمام عقولنا غموضا، أو كأننا هى تبدو كأشياء متناقضة تماما.. لكن ليس فى الأمر تناقض على الإطلاق، لأن انطلاق شىء سالب من محيط سالب يعنى -بالتبعية- ظهور الشىء الموجب، تماما كما نعرف أن سالب السالب موجب، أو كما نقول أن موت الموت حياة.. الخ.

أى كأننا معادلة ديراك الغامضة قد تنبأت أن وجود كمية محددة من الطاقة قد تتجسد فى جسيمين، فى حالة ما اذا ما اصطدمت بشىء.. لكن كل جسيمين يتخلقان منها، لا بد أن يكون أحدهما نقيضا لصاحبه فى كل صفاته، ومن أجل هذا أطلق على واحد منهما اسم بوزيترون Positron وعلى الثانى اسم نيجاترون Negatron وهذه المسميات ليست غريبة علينا تماما.. فنحن فى عالمنا نعرف الصورة النيجاتيف، والصورة البوزيتيف (أى السالبة والموجبة).. فالأبيض فى الصورة النيجاتيف تراه أسود فى البوزيتيف،

والييمين فى احدهما، يصبح يسارا فى الأخرى.. الخ!
لكننا - فى الواقع - لا نتحدث هنا عن صور وصور معكوسة، بل هناك تجسيد حقيقى للموجة الكهرومغناطيسية التى تحمل طاقة عالية كفيلة بخلق الزوجين فى آن واحد.. فاذا انطلق البوزيترون بعد تخليقه فى مجال مغناطيسى جهة اليمين مثلاً، فان النيجاترون يتجه فى المجال جهة اليسار.. ذلك أن الشحنات الكهربائية فىهما معكوسة، بمعنى أن النيجاترون يحمل شحنة سالبة (وهو فى الحقيقة - اليكترون - كما هو معروف فى ذرات عالمنا التى يطوف حول انويتها)، والبوزيترون يحمل شحنة كهربية موجبة.. أضف الى ذلك أن مجالتهما المغناطيسية معكوسة.. أى أن أحدهما صورة طبق الأصل من صاحبه.. لكنه معكوس الصفات.

ان خروج الاليكترون ذى الطاقة السالبة من «محيط» طاقته أيضاً سالبة يؤدى دائماً الى خلق الزوجين، وطبيعى أن ديراك بجسيماته ومحيطاته السالبة كان يبسط الأمر، حتى نستطيع أن نستوعب معنى ذلك، فلا نعود الى لغة المعادلات الرياضية المعقدة.. فلكى يتخلق الزوجان، كان لابد من كمية محددة من الطاقة، لتصطدم بهدف، وعندئذ تفقد طاقتها العنيفة التى كانت تنطلق بها بسرعة الضوء، لكن لاشىء الى فقدان أو ضياع، اذ تعلمنا قوانين عدم الفناء أن شيئاً فى الكون ليس الى زوال، بل نراه دائماً يتحول من صورة الى أخرى، وقد تكون هذه الصورة مجسدة، أو قد تكون متحررة، أى تتحول الى موجات كهرومغناطيسية تنطلق بسرعة ٣٠٠ ألف كيلومتراً فى الثانية الواحدة.

أى أن هذه القبسة الضئيلة جداً والعنيفة جداً من الطاقة قد فقدت تحررها وانطلاقها، ثم تجسدت فى زوجين متناقضين.. وكل واحد يحمل نصف الطاقة الحبسية، ولكن بصورة مادية.

ان هذا يحملنا أيضاً الى معادلات النسبية لالبرت اينشتاين التى اشارت فى

احدى معادلاتها الى ان المادة طاقة، والطاقة مادة.. كلاهما وجهان لجوهر واحد، فاذا أشاحت الطاقة بوجهها المتحرر، تحولت الى وجهها الآخر المتجسد.. أى المادى، وعندئذ تشغل فى الكون زمانا ومكانا، لكن الطاقة التى تنطلق على هيئة موجات كهرومغناطيسية (ومنها الضوء طبعاً، لأنه يسرى بنفس الصورة) لا تحتل فى الكون مكانا، ولا تعرف زمانا. ولقد تحققت نبوءة اينشتاين فى معادلة النسبية عندما نجح الانسان فى صنع القنابل الذرية.. اذ فيها تتحول بعض المادة الى طاقات جد رهبة.. أى الى اشعاعات وموجات متحررة قاتلة مدمرة.. واذا كانت معادلة اينشتاين قد تحققت فى تمويج المادة -اى تحريرها- على هيئة موجات منطلقة، فهل ستتحقق -ياترى- فى معادلة ديراك التى أشار فيها الى تجسيد الموجة، وخلق الزوجين -أى الاليكترون -النيجائرون- والبوزيترون؟.

نبأ من الفضاء !

دعنا- اذن- نرى كيف تحققت النبوءة التى ظنها العلماء ضرباً من الخيال! من عادة العلماء المهتمين بدراسة طبقات الجو العليا، وما يتهمر عليها من أشعة كونية آتية من أعماق الفضاء، من عادتهم أن يطلقوا الى تلك الطبقات بالونات فى داخلها أجهزة معقدة وحساسة.. صحيح أن معظمهم الآن قد استعاض عن البالونات بالأقمار الصناعية التى تنطلق الى الفضاء، وبأجهزتها تسجل كل ما يخفى عن عيوننا، ويضن على احاسيسنا، ثم أنهم قد حققوا فى ذلك انجازات هائلة، يضيق المجال عن التعرض لها هنا، الا أن البالونات قد فتحت لنا باباً على ما يجري فوق رؤوسنا من أحداث نصبت مسرحها على مشارف طبقات الجو العليا.. ومن هذه الأحداث يبرز خلق الزوجين على مستوى جسيمات ذرية.

في عام ١٩٣١ استقبل أحد العلماء الأمريكيين المهتمين بدراسة الأشعة الكونية مسارات هذه الأشعة على الواح حساسة عادت بها البالونات، وكأثما هذه المسارات بمثابة البصمات التي تحدد للعلماء صفات تلك الأشعة وطبيعتها وشحناتها و «شخصياتها»، ولقد لفت نظره - من بين المسارات الكثيرة المسجلة - مسيرة غريبة، ففي لحظة خاطفة ظهر على لوحه الحساس ولادة جسيمين من نقطة واحدة، لكن احدهما الجسيمين قد انطلق في طريقه جهة اليمين، واتجه الآخر جهة اليسار، وهو بخبرته الطويلة يعرف انهما مسيرتان لجسيمين متشابهين تماما، تماما كما يعرف الأعرابي في الصحراء الحيوانات من آثار اقدامها، فيحدد طبيعتها وانواعها واتجاهاتها واحمالها... الخ.

لكن العالم الأمريكي كارل آندرسون تحير فيما رأى، وعندئذ تساءل: إن المسارين لاليكترونين، ما في هذا شك، فما الذي جعلهما يبتعدان ويفترقان، ويسلك كل منهما طريقا معاكسا للآخر، وكأن احدهما عدو لقرينه، او نقض له في سلوكه وتصرفاته؟ (شكل ١).

لم يكن آندرسون وقتها قد اطلع على بحث ديراك ومعادلاته التي نشرها منذ ثلاث سنوات في احدى المجلات العلمية البريطانية المتخصصة، ولو كان قد اطلع عليها، لما تحير مثل هذه الحيرة، ومع ذلك فقد مر على هذا الكشف المثير دون ان يدلى فيه برأى قاطع!

ويجيء من بعد آندرسون الأمريكي عالمان بريطانيان، هما بلاكيت وأوكياليني، وتقع عيناهما على ما توصل اليه آندرسون عمليا، وما اشار اليه ديراك -من قبل- نظريا، وعندئذ يدركان السر الكبير، ويشيران الى ان معادلة ديراك التي تنبأت بمولد «الزوجين» صحيحة تماما، فها هي الواح آندرسون توضح «خلق» الزوجين على مستوى اليكترونين، لكن أحدهما قد جاء بطبيعة مغايرة لصاحبه!

لقد كان ذلك اليوم الذي توصل فيه العلماء الى تسجيل بداية خلق اصغر

وأبسط زوجين يوما مشهودا في تاريخ العلم، ومن أجل هذا الاكتشاف المثير الذي توصل اليه ديراك من خلال معادلة رياضية، من اجله حصل على جائزة نوبل في العام التالي، إذ قد تحقق ما تنبأت به معادلاته، والمعادلة- على اية حال- تنبىء عن تناسق الأكوان، وتوضح لنا عظمة الخلق بداية من جسيمات ذرية، الى اجرام سماوية.

لكن . . ماذا يعني هذا الكشف حقا؟

يعني -أول ما يعني- اطمئنان قلوب العلماء الى حقيقة ظلوا فيها حائرين . . فعندما اكتشفوا أن مادة الكون تتكون من ذرات، وأن الذرات تتكون بدورها من بروتونات تسكن النواة، والالكترونات تطوف حولها في مدارات، وعندما عرفوا أن البروتون يحمل شحنة كهربية موجبة، وأن الاليكترون يحمل شحنة سالبة تساوي تماما الشحنة الموجبة، وأن هذه الأزواج من الشحنات الكهربية المتناقضة هي المهيمنة على تعادل المادة ممثلة في جسيماتها الكهربية، وفي هذا يكمن التناسق على مستوى الشحنات فقط، لكنه ليس كذلك في حالة الجسيمات . . اذ أن البروتون أثقل من الاليكترون بـ ١٨٣٦ مرة . . والى هنا يبرز سؤال هام: لماذا جاء الجسيم الثقيل بشحنة موجبة، والخفيف بشحنة سالبة تساوي الموجبة تماما؟!

ان مبدأ التناسق في كتل الجسيمات قد أضرير أو انتهك، ولكي يكون التناسق قائما، كان لابد أيضا من خلق الزوجين على مستوى الجسيمات الذرية . . بمعنى أن البروتون لابد أن يأتي أزواجا، وكذلك الاليكترون، ومثلهما النيوترون . . وهذا الأخير أحد جسيمات اساسية ثلاثة تكون الذرات، والنيوترون- كما هو واضح من اسمه- يعني الجسيم المتعادل . . أي لا هو سالب ولا هو موجب (وهو يسكن مع البروتون في النواة).

لكن . . لماذا يثير بعض العلماء مثل هذه القضية التي قد تبدو ترفا في

الفكر، أو فلسفة فيها شطحات خيال، خاصة اذا كان هذا التناقض على أدق مستوى الخلق في الجسيمات؟

حسن . . فمن طبيعتنا نحن معشر البشر أننا نهوي التناقض . . ففي خلقنا تناسق، النصف الأيمن من أجسامنا (ظاهرا) متناسق تماما مع النصف الأيسر . . هناك أيضا ذراع يمين وذراع يسرى، وساق يمينى، وأخرى يسرى . . هذه مثل تلك تماما، اذ لو حدث وجاءت هذه طويلة، وتلك قصيرة، لأضير مبدأ التناقض، وهذه نتيجة لا نرتاح إليها كثيرا . . لا في انسان ولا حيوان ولا فراشة ولا زهرة ولا في أي خلق نرى . . ولا شك أن ذلك أمر يسعدنا حقاً، ونحن نتلو قوله تعالى ﴿الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى﴾ (الأعلى . . آية ٢-٣) . أى أن الآية تشير أيضا إلى التناقض (شكل ٢) .

ثم اننا بعقولنا المدركة لن نفهم الحياة ولا الزمن ولا المادة، الا اذا كان هناك تناسق بين نقيضين . . فالموت والحياة فيهما تناسق، اذ لولا الموت، ما عرفنا للحياة معنى، ولولا الألم ما عرفنا اللذة، ولولا الخير ما عرفنا الشر، ولولا السالب ما أدركنا الموجب . . أي كما قال الشاعر «وبضدها تتميز الأشياء»!

أي أن الانسان مخلوق متعادل في فكره ونظرته وطبيعته ونفسه، ولا بد أن يمر بتجربة الخير والشر . . اذ لو كان خيرا كله، لأصبح ملاكا، أو كان شرا كله، لأصبح شيطانا، لكنه ليس هذا أو ذاك، فقد ألهمه الله النقيضين، ليكون له التمييز دون سائر المخلوقات . . ﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها﴾ (الشمس . . آية ٧) . أى أن مبدأ التناقض هنا قائم في النفس البشرية، ووارد على الخاطر في كل مانراه، أو مالا نراه، من ظواهر الكون والحياة .

نعود الآن من واقع عالمنا، الى واقع بداية الخلق في الجسيمات الذرية،

فندكر أن لمسة الجمال أو التناسق قد تحققت فيها عن طريق معادلة رياضية ،
أو فلسفة راودت عقول العلماء ، ثم تحققت - اول ما تحققت - في كشف
البوزيترون الذي يمثل التجسيد المعكوس للاليكترون . . مثلها في ذلك
كمثل اليمين واليسار المتناسق ، أو الخير والشر ، أو الفجور والتقوى أو غير
ذلك من الأمور المجردة أو المجسدة . .

إنهم يجسدون الموجات :

ذكرنا أن عقول العلماء والفلاسفة والمفكرين قد أطمأنت لكشف
الاليكترون ونقيضه كحقيقة واقعة ، وطبعي أنهم ليسوا من اهل لغة الضاد ،
ولا هم يقرأون القرآن ، ولو كانوا ، لا طمأنت نفوسهم أكثر وهم يرددون
﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ . أو ﴿سبحان الذي خلق
الأزواج كلها ، مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، وما لا يعلمون﴾ . . الى آخر
هذه الآيات التي تعرضت لخلق الأزواج . . مما نعلم ، وما لا نعلم !
لكن العلماء عادوا - مرة أخرى - الى تساؤل وحيرة : وماذا اذن عن
الجسيمين الكبيرين - أي البروتون والنيوترون - اللذين يسكنان نواة
الذرة؟ . . وهل يمكن أن يكون منهما أيضا الزوجان؟

ان المعادلات الرياضية تشير صراحة الى امكان خلق هذه الجسيمات
الثقيلة أزواجا أزواجا . . «لكن العين بصيرة ، واليد قصيرة» على حسب
مايقول المثل الشائع ، بمعنى أن العلماء لا يمتلكون الوسيلة الفعالة لتحقيق
ذلك في زمانهم الذي اكتشفوا فيه تجسيد الأزواج من الاليكترونات
والبوزيترونات في طبقات الجو العليا - كما سبق أن أوضحنا - فهذه الأزواج
ذات كتلة صغيرة ، أي أنها أصغر من البروتون مثلا بحوالي ١٨٤٠ مرة ،
ولهذا تحتاج الثقيلة في تخليقها الى قدر من الطاقة أكبر من الطاقة التي تجسدت

في اليكترون أو بوزيترون بحوالي ١٨٤٠ مرة.. أو هكذا تشير الينا لغة المعادلات، لتوضح لنا أن كل شيء قد جاء بحساب ومقدار.
ان أيا من الاليكترون أو البوزيترون ليس الا طاقة تجسدت فأدت الى خلق جسيم مادي.. ولكي يتجسد الجسيمان، كان لابد من وجود طاقة تقدر بأكثر من مليون اليكترون فولت، والاليكترون فولت وحدة طاقة يستخدمها العلماء على مستوى الجسيمات الذرية، لكن لا علينا من كل ذلك، فهذا أمر تحكمه ايضا المعادلات الرياضية التي قد يتشعب فيها الحديث ويطول، لكن يكفي ان نقول ان طاقة المليون اليكترون فولت سوف تتجسد في الزوجين: أي الاليكترون والبوزيترون، فيصبح كل منهما جسيما ماديا تكمن فيه طاقة تقدر بنصف مليون اليكترون فولت!

لكن الطاقة اللازمة لتجسيد الأزواج من البروتونات أو النيوترونات لابد أن تكون أكبر من ذلك بآلاف المرات.. أي في حدود عدة بلايين من الاليكترون فولت، لأن هذين الجسيمين أثقل كتلة من الاليكترون أو البوزيترون بحوالي ألفي مرة، لكن العلماء ليست لهم- في ذلك الزمان- وسيلة للحصول على مثل هذه الطاقة الرهيبة، ولهذا صبروا على مضض سنين طويلة، لعل الله يهيء لهم من أمرهم رشدا.

وتجيء البشائر تترى عندما نجح العلماء في بناء المفاعلات النووية الجبارة، صحيح أن بداياتها كانت متواضعة، لكنها كبرت وتطورت بفضل تطور الأفكار.. ففي بداية النصف الثاني من القرن العشرين بدأ العلماء في تشييد مفاعل ذري بلغت قدرته حوالي ستة بلايين اليكترون فولت، (هناك مفاعلات الان وصلت طاقتها الى ٣٠ بليون اليكترون فولت) وفيه تنطلق الجسيمات الذرية بسرعة قد تصل الى حوالي ٩٨٪ من سرعة الضوء، وطبيعي أن الجسيم كلما جرى أسرع، كانت طاقته التي تدفعه أكبر، ولهذا تسمى مثل هذه المفاعلات باسم المعجلات أو المسرعات أو الدافعات

Particle accelerators . . لكن هذه الطاقة التي تنطلق بها بسرعة تقرب من ٢٩٤ ألف كيلومتراً في الثانية الواحدة، لا تنبع من فراغ، بل تكتسبها من طاقة كهربية جبارة، وتوجهها مجالات مغناطيسية هائلة لتجري داخل المعجل أسرع فأسرع فأسرع، وهذا يعني تحميلها بطاقة أكبر فأكثر فأكثر. (شكل ٣)

ولن ندخل بعد ذلك في التفاصيل، لكن يكفي أن نذكر أن الجسيمات المعجلة التي حملت قدراً هائلاً من الطاقات، تتوجه في النهاية لتتصادم بهدف مادي، وعندئذ لا بد أن تتوقف، لكن . . ما مصير الطاقة التي كانت تحملها حملاً ثقيلاً، خاصة وأنها تقدر بعدة آلاف من ملايين الالكتران فولت؟

الواقع أنها لم تفن ولم تتشتت، بل هي قد تجسدت أزواجاً أزواجاً . . أي على هيئة بروتون وقرينه أو نقيضه . . كلاهما طبق الأصل من صاحبه، عدا الشحنة الكهربائية، فأما البروتون فيحمل شحنة كهربية موجبة، وأما نقيضه، فيحمل شحنة سالبة، وهنا انفجرت أسرار العلماء، واطمأنت قلوبهم مرة أخرى . . فهي مبدأ التناسق في الخلق قد تحقق مرة أخرى، كما تحقق قبل ذلك بأكثر من عشرين عاماً، ذلك أن تخليق هذين الزوجين الثقيلين قد تم في عام ١٩٥٥ في المعجل الجبار المقام ببيركلي بالولايات المتحدة الأمريكية .

وفي أواخر عام ١٩٥٦ اكتشف العلماء النيوترون ونقيضه . . صحيح أنها زوجان متعادلان، أي بدون شحنة كهربية . . فكيف يمكن تمييزهما اذن؟

ان ذلك التمييز يتأتى في حالة دخول المتبادل ونقيضه في مجال واحد، أي تقابلها وجهاً لوجه، وعندئذ يأكل أحدهما الآخر، أو بمعنى آخر يفنيان بعضهما البعض، لكن لا شيء إلى فناء، بل يتخليان عن تجسيدهما المادي، ويعودان سيرتهما الأولى . . أي موجات تنطلق بسرعة الضوء .

لكن . . ماذا يعني كل ذلك حقاً؟

بعضها لبعض عدو مبین !

النور أو الضوء أو الاشعاعات الكهرومغناطيسية عموماً ليست عدوة نفسها، ولا يوجد بينها تناقض... وهي دائماً تنطلق كموجات بسرعة ٣٠٠ ألف كيلو متراً في الثانية.

لكن ما إن تتجسد هذه الطاقات أو الموجات أزواجاً أزواجاً، الا ويصبح بعضها لبعض عدو مبین، بمعنى أن الاليكترون لا يمكن أن يعيش مع نقيضه البوزيترون في مجال أو مكان واحد، وكذلك الحال مع البروتون ونقيضه، أو النيوترون ونقيضه.

ثم ان هناك جسيمات ذرية أخرى كثيرة يبلغ عددها حوالي ثلاثين نوعاً، وهي غير الجسيمات الثلاثة الاساسية التي ذكرناها، والحديث في هذه الأنواع يتشعب ويطول، لكن يكفي أن نذكر انه ما من جسيم منها يتجسد -صغير شأنه أو كبر- الا ويظهر معه قرينه في نفس اللحظة... وكل زوجين من «ملة» واحدة يفنيان بعضهما إذا تقابلا أو اصطدما، وعندئذ يتخليان عن طبيعتهما المادية ويتحولان الى طاقة تسلك سلوك الموجات التي لا زمان لها ولا مكان. (شكل ٤)

بمعنى آخر نقول : إنه من الممكن تجسيد الموجة، أو تمويج المادة، فالمادة والموجة وجهان لشيء واحد... وكأنا معنى الآيات الكريمة ﴿الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون﴾ (الروم... آية ١١). ﴿يوم نطوي السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾ (الأنبياء... آية ١٠٤). ﴿أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير﴾ (العنكبوت... آية ١٩). كأنما هذه الآيات ينطبق معناها أيضاً على هذه البدايات... صحيح أن تلك الآيات -وكما يفسرها المفسرون التقليديون، تشير إلى خلق الإنسان ثم موته، ثم بعثه... أو خلق السماوات

ثم طيها أو فنائها بصورتها المادية. . أو بداية الخلق وإعادة، دون تحديد لطبيعة هذا الخلق. . كل هذا صحيح، فلقد فسروا على قدر ما عرفوا من ظواهر الكون والحياة. . لكن الدارسين أعمق، تتجلى لهم حقائق أشمل وأعظم. . فخلق الجسيمات الذرية على هيئة أزواج، ثم إعادة إلى موجات، ثم تجسيدها. . الخ، إنما يحمل معنى بدء الخلق وإعادة إلى هيئته الأولى. . أى مادة، فطاقة، أو طاقة فمادة. . الخ، وكل هذا يضع أمامنا حقائق الوجود بصورة مثيرة. . فالموجودات نفسها تشغل في الكون مكانا، وماله مكان، كان له زمان، وماله زمان، فهو لا بد فان، لا يختلف في ذلك الجسيم الذرى، عن الجزيئات والخلايا والبشر وسائر المخلوقات، بما في ذلك الأرض والكواكب والنجوم والمجرات!.

والله سبحانه وتعالى ﴿ليس كمثله شىء، وهو السميع البصير﴾ (الشورى. . آية ١١). أو على حد تعبير المتصوف الإسلامى الحسين بن منصور (الحلاج). . (وكل ما خطر ببالك، فالله غير ذلك). . وهو بذلك مجرد عن التجسيد، لأن التجسيد يؤدي بطبيعته إلى التحديد، سواء كان ذلك على مستوى الزمان أو المكان، والله لا يحده زمان ولا مكان، فهو المطلق، وكل ما عداه نسبي، والنسبي محدود، والمطلق غير محدود، أى بلا بداية ولا نهاية!.

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نجتهد ونشير الى أن خلق الأزواج على مستوى الجسيمات الذرية إنما هى قبسات نورانية نابعة من قوة هائلة أزلية. . او هى تجسيد لطاقة أو موجة أو أمر أو وحى أو (روح) خذ منها ما تشاء، ومع ما يتناسب مع ثقافتك الدينية أو العلمية أو الفلسفية، فلا أحد هنا يستطيع أن يحدد شيئا، أو أن يؤكد أمرا، فكلما تعمقنا فى طبائع الأشياء وحسبنا أننا أصبحنا من الحقيقة (قاب قوسين أو أدنى) أشاحت الحقيقة بوجهها، وتجلت

لنا بصور اكثر اثاره، واعظم حيرة، فتضعنا في مآزق فكرية ليس لها من اجابات أو حلول تشفى غليلنا الى معرفة حقة تقربنا من خالق هذه الأكوان،
فربما نقدره حق قدره!.

لكن مما لاشك فيه أن الأكوان كلها - ما نرى منها، وما لا نرى - انما هي في الحقيقة وكما أثبتت العلوم التجريبية الحديثة من طاقات أو أنوار أو موجات ذات بأس شديد، وهي ليست منظورة ولا محسوسة كالأشعة أو النور الذى نرى به عالمنا، فهذا أيضا من موجات، ولكنها لاتصلح للتجسيد، ولا لخلق الأزواج الجسيمية التى أشرنا اليها، بل تجسدت هذه الأزواج من قبسات موجية لو أنها تسلطت على شىء، لدكته دكا، وكأنا هي على حد تعبير القرآن الكريم . . ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا، وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك، قال لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه، فسوف تراني، فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا، وخر موسى صعقا، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ (الأعراف . . آية ١٤٣).

وطبعي أن الله سبحانه وتعالى لم يأت بنفسه إلى الجبل ليذكه دكا، لأن ذلك سوف يضعنا في مآزق فكرية عويصة، ولاشك أن ذلك أيضا سوف يدعونا إلى التساؤل: من أين جاء، وهو - سبحانه - لا يحده مكان ولا زمان؟ . . (ومن آواه محل، أدركه أين) على حسب قول الحلاج.

ان تجليه للجبل قد لا يكون (بذاته) ولكن بنفحة من نفحاته التى تجلت في كل الأكوان . . بداية من الجسيمات، حتى تنتهى بالسموات وما بينها . . أى أن الوجود كله من «ذاته»، لكن ذلك لاينقص من شأنه شيئا، فهو المطلق الأبدى اللانهائى، ولا شىء ينال من لا نهائيته، ولا يقلل من شأنها، مهما اشتق منها، أو صدر عنها، وربما كان أجمل ما نعبر به عن ذلك قوله ﴿ما

عندكم ينفذ، وما عند الله باق ﴿ (النحل . . آية ٩٦) . أى فيه الدوام . .
وقوله ﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾
(الحجر . . آية ٢١) . والخزائن هنا ليست إلا تقريبا لمداركنا القاصرة ، إذ هى
ليست خزائن بالمعنى التقليدى ، ولكنها ينابيع دائمة لقدرة هائلة أبدية
لا نهائية ، ولهذا لا تستوعبها العقول المحدودة بزمان ومكان ! .

ولا أحد يستطيع أن يبحث فى ذات الله ، ولو فعل ، لضل وغوى ، لكن
البحث الحقيقى والعقلانى ينصب على خلقه ، ونعيد هنا ذكر الآية التى سبق
أن أوردناها ، إذ تذكر ﴿ قل سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ .

ما نريد أن نستخلصه من كل ذلك أن بداية تجسيد العالم المادى ربما كانت
على هيئة جسيمات جاءت أزواجا أزواجا من طاقات جبارة . . من «نور»
قوى لا تراه العين ، لكنه لو تسلط عليها ، لأصابها العمى ، أى كأنما هذه
الموجودات المحسوسة ، صغر شأنها أو كبر ، كانت «نورا» ، وربما كان أقرب
تشبيه لذلك هو ماورد فى الآية الكريمة ﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل
نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاج كإنها كوكب درى
يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ، ولو لم
تمسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال
للناس ، والله بكل شىء عليم ﴾ (النور . . آية ٣٥) . وواضح أن الآية مثال
تصويرى أو تقرىبى يربط «المعنويات بالمحسوسات» . . على حسب ما جاء فى
المصحف المفسر للمرحوم محمد فريد وجدى . . أو المجردات بالماديات ، أو
التمويج بالتجسيد . . أو الطاقة بالمادة . . ﴿ والله بكل شىء عليم ﴾ على
حسب نص الجزء الأخير من الآية ، ذلك أن علمنا هنا نسبي . . ﴿ وفوق كل
ذى علم عليم ﴾ (يوسف . . آية ٧٦) .

هل من مادة نقيضة ؟

بعد ذلك يبرز أمامنا سؤال وسؤال : ماذا تعنى هذه الجسيمات التى جاءت أزواجاً أزواجاً؟ . . وكيف تتعايش مع بعضها؟ وهل توجد حقاً فى عالمنا؟ الواقع أن هذه الأزواج من الجسيمات تظهر فقط فى المعجلات الذرية الجبارة، لكنها سرعان ما تموت بمجرد ولادتها، لأن ذلك ليس عالمها المناسب لبقائها، ولكى تعيش، كان لابد أن نفرق بينها، لكن ذلك أمر مستحيل، فذرات أرضنا وهوائنا ومائنا تتكون من اليكترونات وبروتونات ونيوترونات، وعندما تظهر نقائضها، كان لابد أن تصطدم بذرات عالمنا، وعندئذ يبيد الاليكترون نقيضه، وكذلك الحال مع البروتون والنيوترون، وتكون النتيجة انطلاق اشعاعات رهيبه تسجلها الأجهزة، وتعلن عن موت المادة، وانطلاقها كطاقة .

لكن ذلك لا يمنع من أن خلق الأزواج من الجسيمات قد يؤدى إلى تكوين ذرات وذرات نقيضة، أو مادة ومادة نقيضة، أو سماوات وسماوات نقيضة . . صحيح أننا فى أرضنا لانستطيع عزل النقائض عن بعضها، لكن الله قادر على ذلك .

دعنا اذن نتعرض لهذا الموضوع المثير فى باب آخر مستقل .

الفصل الثاني

والسماوات أزواجاً !

الفصل الثانى والسماوات أزواجا !

القرآن عطاء لا ينضب معينه ، وزاد لا تنفذ موارده . . اذ بقدر ما تقبل عليه ، يقبل عليك ، وبقدر ما يتفتح العقل على آياته ، بقدر ما تتفتح لنا فيه أسرار ليس لعمقها من نهاية أو قرارا .

ومن الناس من يمر على بعض آيات الكتاب البينات مرور الكرام ، فلا يعى من أحكامها الا ظاهرها ، ومنهم من توقفه آيات ، فتشد عقله ، وتثير فكره ، وعندما يتمعن فيها تمعن الباحث الفاحص المدقق ، فربما تتفتح له مكنوناتها ، وقد يدرك منها ما غاب عن سواه ! .

ومن هذه الآيات آيتان سبق أن ذكرناهما قبل ذلك ، ولا بأس من ذكرهما مرة ومرة ومرات ﴿فلعل الذكرى تنفع المؤمنين﴾ . تقول احدى هاتين الآيتين ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها ، مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، وما لا يعلمون﴾ . . . وتقول الأخرى ﴿ومن كل شىء خلقنا زوجين ، لعلكم تذكرون﴾ .

والآيتان صريحتان وواضحتان ، فهما تشيران - مع آيات اخرى وردت فى القرآن الكريم - إلى خلق الزوجين على كل المستويات ، وأن خلق أى شىء ، وكل شىء ، قد جاء زوجين . . . والزوج أو الزوجان أو الأزواج تحتل معان عديدة ، وكل ذلك متروك لتقديرك ، أو مع ما يتناسب من موضع الكلمة ومعناها المقصود فى انسياق الحديث كما سبق أن أوضحنا .

ولكى نبحث عن معنى خلق الزوجين على كل المستويات، كان لابد أن نتعمق في دراسة تكوين الوحدات التي قام على أساسها الكون، وتأسست بها الحياة، وهذا لا يتأتى الا بعلم تجريبي له مغزاه ومعناه، لأنه يبحث في المتاح له من ملكوت الله، وعندئذ نرى نظما، من داخل نظم، من داخل نظم. . الخ، أو كأنما هي اكوان أصغر، تتآلف في اكوان اكبر. . ثم في اكوان أكبر فأكبر فأكبر. . وهلم جرا!! .

فكما أن القرآن الكريم عطاء لا ينضب، كذلك كان العلم، فهو أيضا عطاء عظيم، ومن يؤثته، فقد أوق خيرا كثيرا، لأنه سيفتح عقولنا على بديع صنع الله، ويرشدنا الى معرفة نسبية بطبيعة الكون والحياة، فتتجلى لنا نظم فذة، وسنن متقنة، وشرائع صامدة، لتصبح أمام العلماء بمثابة آيات أو علامات دالات على عظمة الله ﴿الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾ طه آية ٥٠ .

فكما يسعد المسلمون عامة، ورجال الدين خاصة، بتلاوة آيات القرآن الكريم، وتدبر معانيها وأحكامها وشرائعها ومواطن البلاغة فيها، كذلك يسعد رجل العلم سعادة بالغة، وهو يتعامل مع (آيات) أخرى في الخلق الذى يكمن فيه وفيها، ويمتد حوله وحولنا بغير حدود، فكل خلق آية، او هو علامة على تجليات خالق عزيز حكيم مقتدر. . وما أجمل ما عبر عن ذلك الشاعر العربى العظيم ابوالعتاهية:

وفى كل شىء له آية

تدل على أنه الواحد

ثم ما أكثر الآيات القرآنية التى تعرضت لآيات الخلق فى الكون والحياة، وحضت الانسان على التأمل والبحث والتدبر والتفكير فى الخلق العظيم الذى

يجذب لروعته ودقته العقول الواعية . . لا اللاهية . . ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه﴾ (آل عمران . . آية ١٩١) ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت﴾ (الغاشية..آية ١٧ - ١٨) . . ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ (يونس..آية ١٠١) ﴿هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾ (يونس . . آية ٥ - ٦) . . ﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ (الأنعام..آية ٩٨ - ٩٩) ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ (الذاريات . . آية ٢٠ - ٢١) الخ . . الخ .

لكن كل هذا قد لا يوضح لنا حكمة الله وقدرته الفذة في كل ما خلق فقدر فأبدع فهدى، إلا اذا بحثنا وتعمقنا في أصول الخلق جميعه، لنرى كيف أنه قام على أساس فيه تنظيم مذهل للعقول المفكرة، خاصة وان آيات الخالق في مخلوقاته - حية وجامدة - لاتعد ولا تحصى . . صحيح أن العلماء التجريبيين في زماننا هذا قد اكتشفوا أسراراً ضخمة، وسجلوها في مجلدات كثيرة، تنوء بأحمالها رفوف المكتبات الواسعة التى تنتشر في مشارق الأرض ومغاربها، لكن هذه الحصيلة العلمية الهائلة ليست الا بمثابة قطرة من بحر المعرفة العميق . . اضعف الى ذلك أن أحدا لم يتوصل إلى لب الحقيقة فيما فيه يبحث ويتعمق . . لا في ذرة . . ولا خلية . . ولا مخلوق حى ولا فى أرض وكواكب ونجوم

ومجرات وسماوات . . فأسرار الله في خلقه ليس لها نهاية أو حدود، ولهذا فلن تنتهى أبدا، مهما كثر عدد الباحثين بتعاقب الأجيال، أو مرور الأعوام، وكأنما الآية الكريمة تشير إلى ذلك أجمل إشارة . . ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي، لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي، ولو جئنا بمثله مددا﴾ (الكهف . . آية ١٠٩).

وطبيعى أن الله سبحانه وتعالى لا يتكلم كما نتكلم، لأن ذلك قد يوحى لكثير من العقول ذات التفكير السطحي بفكرة تجسيد الخالق على هيئة تحتل في الكون مكانا، أو أن يتصوره البعض جالسا على عرش لتطوف الملائكة حوله، ولو كان الأمر كذلك، لوقعنا في مآزق فكرية عويصة، فوجوده في مكان ما، يعنى تجسيده لذاته التى لا يحدها زمان ولا مكان، وهنا يحضرنا القول الفصل ﴿وكان الله بكل شيء محيط﴾ (النساء . . آية ١٢٦) نعم بكل شيء . . صغر شأن هذا الشيء أو كبر . . بداية من الجسيمات الضئيلة غاية الضآلة، حتى ننتهى بالسموات الضخمة غاية الضخامة . . أى أن الكون كله هو عرشه، أو هو تجسيد لقدرته . . وهو به محيط، ولهذا ﴿لاتدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير﴾ (الأنعام . . آية ١٠٣).

ان الأمثال والتشبيهات التى وردت في القرآن الكريم، اغما هى تبسيط لذات الله في عقولنا القاصرة، فليس لله لسان يتكلم به، ولا يد يبطش بها، ولا شيء اطلاقا مما قد يتصوره بعض الناس . . اذ ﴿ليس كمثله شيء﴾ . . أضف الى ذلك أن بعض آيات القرآن الكريم قد أوضحت هذه المسألة توضيحا لا لبس فيه ولا غموض، ومن هذه الآيات . . ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون﴾ (العنكبوت . . آية ٤٣) ﴿فلا تضربوا لله الأمثال، إن الله يعلم وأنتم لاتعلمون﴾ . . الخ (النحل . . آية ٧٤)

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نجتهد ونقول: ان كلمات الله ليست شيئا

مكتوبا أو منظوقا او مسموعا. . فسبحان الله عما يصفون، لكنها وحى يوحى، والوحى هنا ليس الا وحى نظام متقن فى المقام الأول. . وبهذا الوحى أو القدرة الفذة سار كل شىء فى الأرض والسماء. . بدليل قوله تعالى ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ (النحل. . آية ٦٨ - ٦٩). . وقوله ﴿ففضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها﴾ (فصلت. . آية ١٢) وقوله عن الأرض ﴿يومئذ تحدث أخبارها، بأن ربك أوحى لها﴾ (الزلزلة. . آية ٥). . الخ. فالذى أوحى للحشرة أمرها، قادر على أن يوحى لما فوقها من مخلوقات أرقى، أو لما تحتها من مخلوقات أدنى أمورها التى تشق بها فى الحياة طريقها، والعلم يعبر عن ذلك بلفظ مبهم اسمه الغريزة، والغريزة دافع خفى لا يمكن تعريفه أو تحديده. . تماما كما لانستطيع أن نحدد معنى الوحى ولا طبيعته أو جوهره. . أى كأنما كل كائن حى يوحى اليه من خلال نظام متقن موجود فى تكوينه، لكن ماهى طبيعة هذا النظام، فلا أحد يعرف يقينا. كل ما عرفناه لايزال بمثابة قشور سطحية. . ان الحشرة مثلا تستطيع أن تهتدى إلى مصادر الطعام التى تهواها، أو أن تتعرف على جنسها الآخر حتى ولو كان يبعد عنها مئات الأمتار، كما أن هجرة الأسماك التى تتخذ من البحار طريقا محدد لا تحيد عنه ولا تميل، أو هجرة الطيور التى يأتيتها الحنين لتطير مئات وآلاف الكيلومترات نحو وجهة محددة، وكأنما هى تعرفها تمام المعرفة، ثم تكرر عائدة الى موطنها الأصل. . كل هذا وغيره يضع لنا النقط فوق الحروف، ويشير الينا بوجود نظم مذهلة فى الكائنات الحية. . نظم سبحان من أبدعها وسواها، لتصبح صالحة للغرض الذى جاءت من أجله، ولقد كشف العلم الحجاب عن بعض هذه النظم، لكن الحديث عنها قد يستلزم كتابا كبيرا قائما

بذاته، ولهذا فلا مجال لها هنا، لكن يكفي أن نذكر أننا كلما اكتشفنا أسرارها، عظمت في عقولنا آيات الله في خلقه، وعندئذ، وعندئذ فقط قد نقدره حق قدره ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ (الأنعام . . آية ٩١) . . ذلك أن المعرفة هنا نسبية، وكل نسبي قاصر وعاجز.

وكما أوحى للكائنات أمورها، ليحيى كل مخلوق لما هو له ميسر، كذلك أوحى للجماد أمره . . والجماد مادة تشغل في الكون مكانا وزمانا، ووحدة الجماد والسوائل والغازات تتمثل لنا في ذرات وجزيئات، ووحدة الذرات جسيمات، وللجسيمات نظم لازالت تتوه فيها العقول الباحثة عن الحقيقة أعظم تيه . . فالجسيمات السابحة في ذراتها لها نظم معقدة، وهي تتبع نواميس متقنة لا خلل فيها ولا فروج، حتى لكأنما كيانها قد قام أيضا على أساس وحى نظام متقن غاية الاتقان . . وكذلك كان كل ما ننظر إليه على أنه جماد، وما هو بجماد، لكن عيوننا القاصرة تخدعنا، لأن الجماد بدوره نظم من داخل نظم من داخل نظم . . وهلم جرا، ولهذا فلا عجب أن يوحى الله في الأرض أمرها، وفي كل سماء أمرها . . أو بمعنى أشمل: أوحى فيها نظامها، فبدون ذلك، لفسد كل ما في الأرض والسماء، ولكن اتباعها (لوحى) النواميس المتقنة، هو الذى يسر لها صمودها وأصالتها، ولا يعرف معنى ذلك الا الذين يبحثون في طبيعة الكون والحياة، فتتجلى لهم من الأسرار ما تخشع لها النفوس، وتخضع العقول.

اذن فكلمات الله ليست هي ما يراود عقول الناس، بمعنى ان الله يتكلم بلغتنا، أو أنه ينطق كما ننطق، بل هي وحى مبهم يتجسد في كل مخلوقاته، ويهبها نظامها البديع، وليس هذا رأيا يفرض، بل اجتهادا يطرح، فلكل انسان رأيه، ومن ظن أن الله يتفوه بكلمات منطوقة ومسموعة، فظنه بالله راجع عليه، ذلك أن كل انسان يعرف ربه على قدر ما بحث فأدرك فوعى . . ولكل ما سعى . . ان تجسيدا فتجسيذا، وان تجريدا فتجريدا.

لكن.. ما الذى دفعنا الى التعرض لمثل هذه الأمور الشائكة، ونحن نتحدث عن صور الخلق التى جاءت أزواجاً؟
الواقع أن «الكلام يجز بعضه» كما يقولون، كما أن العلم التجريبي الذى ينصب أساساً على ما خلق الله، وخاصة فيما يتعلق بأسرار الكون والحياة، قد أعطانا ذخيرة ضخمة من المعرفة التى لم تكن لتطراً على عقول الأجيال السابقة، ولهذا كان العلماء التجريبيون أقدر من غيرهم على استيعاب معنى النظم المذهلة التى تجلت لهم فى كل خلق خلقه الخالق، فقدرة تقديراً حسناً ومبدعاً، ثم إنهم يرون أصول هذا الخلق بعين غير عيوننا التقليدية، ولولا هذه «العيون» العلمية العظيمة والمتطورة، لظل باطن الخلق عن عقولنا محجوباً.. فنحن فى الواقع لانرى الا الظاهر، وطبيعى ان فى الظاهر روعة وتناسقاً وجمالاً.. لكن من وراء هذا الظاهر الممتع باطنا ينطوى على أفكار متقنة، وتكوينات فذة، وتنظيمات أكثر دقة وإبداعاً وكمالاً، حتى لكأنما كل صغيرة فى الخلق أو كبيرة، تكاد تنطق بهذه القوة الخفية المهيمنة، المبدعة فيما نرى، وفيما لانرى.. فما أكثر ما يخفى على السمع والحواس والبصر والفؤاد..
وهنا يحق القول الكريم ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر.. آية ٨).

ثم إنه هو العلم التجريبي الذى يسر للعقول استيعاب ما تنطوى عليه بعض الآيات القرآنية من معان كانت على أسلافنا خافية، ومن هذه المعانى قصة خلق الزوجين التى وردت فى أكثر من آية.. إذ لولا الأجهزة الحساسة، و «العيون» العلمية الجبارة - ممثلة فى الميكروسكوبات والتليسكوبات وما شابه ذلك، لولاها لما ظهر كل ذلك الإبداع المتقن فى باطن الخلق، بداية من الجسيمات والذرات، وانتهاء بالاجرام والسماوات، ومن أجل هذا كانت نظرة رجل العلم التجريبي إلى أصول الخلق تختلف فى الكم والنوع عن نظرة رجل الدين التقليدى، أو الانسان العادى، لأن هذا أو ذاك لا يرى الا

الظاهر، ولو رأى الباطن وعينه، لاتسعت مداركه، وتطورت معارفه، وتفتح عقله على كنوز من الأسرار التي أوحى الله فيها أمره، وأودع في باطنها قدرته وحكمته، وعندئذ سيعرف عن علم معنى الآية الكريمة ﴿ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا، فثم وجه الله، إن الله واسع عليم﴾ (البقرة-آية ١١٥) ثم ما أجمل ما عبر عن ذلك شعرا المتصوف الاسلامي الحسين بن منصور الشهير بالحلاج اذ يقول:

وأى الأرض تخلو منك حتى تعالوا يطلبونك في السماء
تراهم ينظرون اليك جهرا وهم لا يبصرون من العما
ولنعد الآن الى موضوعنا، لنقدم المزيد من فكرة خلق الأزواج:

وحدات المادة تتمخض عن حقائق مثيرة :

بادئ ذي بدء نقول: ان المادة -كما نعرفها في أية صورة من صورها- تتكون من جزيئات. . الجزيئات من ذرات. . الذرات من جسيمات أولية ضئيلة غاية الضآلة هي أساسا الاليكترون والبروتون والنيوترون. ولكل ذرة نواة تدور حولها اليكترونات. . وأبسط ذرات الكون قاطبة هي ذرة الأيدروجين. . ففي نواتها بروتون وحيد، يدور حوله الكيترون وحيد كذلك، ونادرا ما يكون لذرة الأيدروجين نظير يشبهها تماما في الخواص الطبيعية والكيميائية، لكن هذا النظير أثقل، ولهذا نسميه الأيدروجين الثقيل لأنه يحوى في نواته بروتونا ونيوترونا. . أى أنه أثقل من الذرة العادية بحوالى مرتين، وقد يأتى، في حالات اندر، نظير أثقل بثلاث مرات تقريبا، لأنه يحوى في نواته بروتونا ونيوترونين، وفي كل هذه الحالات يدور حول كل نواة خفيفة أو ثقيلة، اليكترون وحيد، مادام هناك ايضا بروتون وحيد، ومغزى هذا لا يخفى على لبيب، لأن الذى يحدد التعادل أو التوازن الكهربى في الذرة

هو البروتون ذو الشحنة الكهربائية الموجبة، مع الاليكترون ذى الشحنة الكهربائية السالبة. . والسالب هنا يساوى الموجب تماما، فيطمس هذا ذاك، ويكون التعادل الذى جاء لحكمة بالغة يتشعب فيها الحديث ويطول، وليس لها هنا مجال (انظر كتابنا «من كل شىء موزون» شركة مكتبات عكاظ). وتأق بعد ذلك ذرة أخرى أعقد قليلا من ذرة الأيدروجين. . اذ تحوى فى نواتها بروتونين ونيوترونين، ويدور حولها اليكترونان، فينشأ من ذلك عنصر جديد اسمه الهيليوم (أى عنصر الشمس، لأنه موجود فيها وفى النجوم بكميات هائلة). . وبهذه الاضافة البسيطة يأتى الهيليوم بصفات طبيعية وكيميائية تختلف عن صفات الأيدروجين.

وعندما تأق النواة بثلاث بروتونات وثلاث نيوترونات، ليدور حولها ثلاث اليكترونات، ينشأ عنصر جديد اسمه الليثيوم، وبصفات أخرى مختلفة. وعلى أساس هذه الفكرة البديعة والمبتكرة تنشأ كل عناصر الكون قاطبة. . أى أنك لو أتيت الى أى انسان درس النظم الذرية وسألتة. . ماهو العنصر الذى يحوى فى نواته ست بروتونات (ولابد ان يدور حولها ست اليكترونات ليكون التعادل الذرى الكهربى)؟ لأجابه على الفور: انه عنصر الكربون.

وماذا لو جاءت الذرة بنواة فيها ستة عشر بروتونا؟ . عندئذ لابد أن تكون ذرة كبريت بصفاتها المعروفة. . ثم انك لو حذفت منها بروتونا، أو أضفت اليها بروتونا، لظهر لك فى الحذف والإضافة عنصران مختلفان، هما على الترتيب: الفوسفور (١٥ بروتونا) والكلور (١٧ بروتونا)!

وكما كانت ذرات الأيدروجين أبسط نظام ذرى معروف، كذلك يحىء اليورانيوم فى النهاية ليكون أعقد الذرات الطبيعية المعروفة. . إنه يتكون من نواة بها ٩٢ بروتونا، ويدور حولها ٩٢ اليكترونا فى مدارات قدرت تقديرا بديعا (ودعك من النيوترونات، لأنها متعادلة، ولا تعطى للذرات صفاتها،

بل تمنحها أثقالها، ولوجودها في النواة مآرب أخرى لاتهمنا هنا في موضوعنا انظر (شكل ١٥ ، ب).

والى هنا يظهر لنا سر بديع . . فالذهب ليس ذهباً، لأن جسيماته من ذهب، ولا الفضة فضة، لأن جسيماتها من فضة . . بل يرجع الاختلاف في صفات العناصر إلى عدد البروتونات الموجبة، والتي تطوف حولها اليكترونات سالبة . . ولا بد أن تتساوى الشحنات الكهربائية السالبة مع الشحنات الكهربائية الموجبة في ذرات أى عنصر من العناصر، ليكون التعادل كما سبق أن أوضحنا.

ان صفات الذهب تتحدد بوجود ٧٩ بروتونا في نواة أية ذرة من ذراته . . اضف اليها بروتونا، عندئذ يظهر عنصر الزئبق، أو احذف منها بروتونا، فتكون ذرة البلاتين!

الفكرة -لاشك- بسيطة، لكن من بساطتها تبرز الروعة، ويتجلى الابداع، ويتخبط العقل في تيه عظيم . . ذلك أن أذكى علماء العالم، وبكل ما وضعه العلم المتطور بين أيديهم من امكانات جبارة، وأجهزة ضخمة، وكاشفات حساسة، لم يستطيعوا حتى الآن أن يتوصلوا الى الجوهر الحقيقى فى الذرة . . فهى -على بساطتها- تنطوى على أسرار ومتاهات عويصة، ففى كل عام يقع العلماء على صيد جديد، والصيد يقودهم إلى ألغاز أعمق وأضخم، وكلما ظنوا أنهم قد أصبحوا من الحقيقة قاب قوسين أو أدنى، تخبطوا فى متاهات أكبر من عقولهم، ومع ذلك فالصيد اللذيذ يجذبهم، ويستولى على كل اهتماماتهم، فلا شىء أجمل من البحث عن الحقيقة . . حتى لو كانت هذه الحقيقة فى ذرة لا تعيها لضآلتها العقول.

ثم تزيد متاهات العلماء فى طبيعة المادة بعد أن اكتشفوا أن لكل جسيم فى الذرة جسيماً نقيضاً، وأن هذه الجسيمات إذا قدّر لها وتخلقت من الطاقات فإنها تنشأ أزواجا أزواجا - كما سبق أن أوضحنا فى الفصل السابق - ولقد

جذبت هذه الحقيقة المثيرة فكر العلماء، وعندئذ بدأوا يتساءلون: هل يمكن أن تؤدي هذه الجسيمات والجسيمات النقيضة إلى تكوين مادة ومادة نقيضة؟.. ثم ماذا تعنى المادة النقيضة حقاً؟.. وإذا كان ذلك قد حدث في بداية خلق الأجرام السماوية، فكيف تم عزل مادة الأجرام العادية، عن مادة الأجرام النقيضة؟.. الخ.

الواقع أن هذه الأسئلة وغيرها أكبر من عقول العلماء، لكنها مع ذلك واردة على خاطر دائماً، لأن خلق الزوجين على كل المستويات، هوسمة من سمات التناسق في الخلق.. والعلماء لا يؤسسون تساؤلاتهم على وهم، كما أن أفكارهم ليست نابعة من فراغ، لأن التناسق في ظهور الجسيمات أزواجاً قد تحقق بالفعل في المفاعلات النووية الجبارة، وهى موجودة كذلك في الأشعة الكونية قبل أن توجد في معامل العلماء.. فإذا كانت مادة عالمنا الذى نعيش فيه تتكون من جسيمات منظومة في ذرات.. فهل يمكن أن توجد مادة نقيضة تتكون من جسيمات نقيضة منظومة في ذرات نقيضة كذلك؟.

ممكن جداً.. خاصة وأن علماء الطبيعة الذرية قد توصلوا إلى تسجيل ولادة ذرة نقيضة في مفاعلاتهم، لكنها سرعان ما «ماتت» بعد أقل من جزء من مليون جزء من الثانية.. فليس هذا بعالمها المناسب الذى يمكن أن تعيش فيه، ولو قدر لنا وعزلناها عزلاً مطلقاً عن مادة عالمنا، لعاشت كما تعيش ذرات عالمنا، لكن ذلك أمر بعيد المنال لأسباب يطول شرحها، وليس ذلك مجالها، فليس عالمنا مناسباً لحياة ذرة نقيضة، أو مادة نقيضة!

لكن.. ماهى مواصفات الذرة النقيضة؟.

ببساطة شديدة نقول: إن كل شىء فيها معكوس الصفات بالنسبة لذرات عالمنا.. الشحنات الكهربائية معكوسة، والمجالات المغناطيسية معكوسة، وحركة الدوران معكوسة.. الخ!.

ولكى نوضح أكثر، فعلينا أن نأخذ أبسط ذرة كمثال، وليس هناك ماهو

أبسط من ذرة الأيدروجين . . فنواتها من بروتون يحمل شحنة كهربية موجبة ، ويدور حولها أليكترون يحمل شحنة كهربية سالبة - كما سبق أن قدمنا - لكن ذرة الأيدروجين النقيضة سوف تكون بنفس النظام ، لكنها معكوسة الشحنات ، بمعنى أن نواتها تتكون من بروتون نقيض ذى شحنة كهربية سالبة ، ويدور حولها بوزيترون ذو شحنة كهربية موجبة ، ويتبع ذلك مجالات مغناطيسية معكوسة أيضا . . فمن المعروف أن الشحنات الكهربائية تلازمها دائما مجالات مغناطيسية ، ولهذا إذا عكست هذه ، عكست تلك تبعا لذلك ، ومن أجل ذلك لا يمكن أن تعيش ذرة أيدروجين مع ذرة أيدروجين نقيضة ، اللهم إلا إذا تصورنا أن النور والظلام يمكن أن يجتمعا في مكان واحد وفي نفس اللحظة ، وهذا ما لا يمكن أن يكون . . فإما نور ، وإما ظلام ! ثم علينا أن نخطو خطوة أخرى ، ونتعرض لذرة أعقد ، ولتكن ذرة الأوكسجين . . ففي نواتها ثمانية بروتونات ذات شحنات موجبة ، وثمانية نيوترونات (متعادلة) ، ويدور حولها - أى النواة - ثمانية اليكترونات ذات شحنات سالبة فى مدارين . . وذرة الأوكسجين النقيضة جاءت بنفس النظام ، لكنها معكوسة الصفات . . أى أن نواتها تحتوى على ثمانية بروتونات نقيضة ذات شحنات سالبة ، وثمانية نيوترونات نقيضة ، ويدور حولها ثمانية اليكترونات نقيضة (بوزيترونات) ذات شحنات موجبة ، ثم ما يتبع ذلك من عكس المجالات المغناطيسية واتجاه الدوران بين النظامين الذريين المتناقضين (شكل ٦) .

ولنخط بعد ذلك إلى نظام أعقد يتمثل لنا فى الماء والماء النقيض . . ولسنا نقصد بالماء النقيض هنا أنه ينقض الضوء مثلا ، بل إنه ينقض الحياة ذاتها ، لأنه يفجر الانسان تفجيرا ، ويحوله فى لحظة خاطفة ، إلى قنبلة نووية عاتية ، هذا لومس الإنسان الماء النقيض . . وسوف يتضح لنا معنى ذلك بعد حين . إن ماء كوكبنا يتكون من جزيئات . . والجزيء الواحد منه يتكون بدوره

من ذرق ايدروجين متحدة بذرة اوكسيجين. . والماء النقيض يتبع أيضا قوانين الكيمياء. . أى أنه يتكون من نفس النظام، فعندما تتحد ذرتا ايدروجين نقيضتان بذرة اوكسيجين نقيضة، فلا بد أن ينتج من اتحادها جزىء ماء نقيض، ولو اجتمعت هذه الجزيئات ببلايين البلايين، فانها تكون ماء نقيضا لا يختلف فى صفاته الطبيعية أو الكيميائية عن الماء العادى. . أى أنه يتجمد مثله عند درجة الصفر، وتتكون منه بلورات ثلج نقيضة، ويغلى عند درجة مائة مئوية، ويتحول إلى بخار نقيض. . الخ، ثم إن الماء النقيض صالح للوضوء والاغتسال ورى الزرع والضرع، وما شابه ذلك، لكن على شرط أن يوجد فى كوكب أو عالم نقيض. . أى أن كل ذرات هذا العالم وجزيئاته ومادته وأحيائه وأجوائه لابد أن تكون معكوسة الشحنات الكهربائية بالنسبة لمادة عالمنا الذى نعيش فيه! .

وقد تظنون أن ذلك من قبيل الخيال العلمى، لكنه ليس كذلك حقا، إذ لابد أن نعترف أن الكشوفات العلمية الأصيلة قد فتحت عقولنا على كنوز هائلة من الأسرار الكونية المثيرة، وكأنما هذه الأسرار تهمس فى آذاننا بحقائق أغرب من تصوراتنا وخیالنا، وهى - بلاشك - تمهد لنا الطريق إلى رؤية آيات الإعجاز التى تتجلى فى بدايات خلق الأزواج، ليس فقط على مستوى جسيمات ذرية، لكنها تتخطاه إلى ماهو أعمق وأبدع، إذ أن آيات الله فى كونه ليس لها حدود. . بداية من جسيمات فى ذرة. . إلى جزيئات فى خلية. . إلى خلايا فى مخلوق. . إلى كواكب وأقمار ونجوم فى مجرات وسموات. . وكل هذه النظم - صغر شأنها أو كبر - جاءت على أساس جسيمات لا يبدأ تجسيدها إلا أزواجا أزواجا. . ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ .

نعود مرة أخرى إلى الآية الكريمة ﴿قل سيروا فى الأرض، فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ . . والآية لم تحدد صورة من الخلق بعينها، بل أطلقت لنا حرية

البحث في كيفية بداية الخلق.. . والبداية تبدأ دائما بخلق الجسيمات من الطاقات أو الموجات ذات البأس الشديد. . لكنها تأتى أزواجا، مصداقا لما حدثتنا به آية أخرى ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾. . أو آية ثانية ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون﴾. . والجزء الأخير من الآية هام جدا فى موضوعنا، لأننا لا نعلم جوهر هذه الظاهرة الأبدية التى تتمثل لنا فى موجات وجسيمات وما يصاحبها من مجالات، وكل ما نعلمه - نسبيا - هو ظواهر الأمور، أى تحول الظاهرة الطبيعية من صورة إلى أخرى، وكأنما هى تلعب فى عقولنا لعبتها الأزلية، فلا نكاد نعرف من أين بدأت البداية، ولا كيف ستكون النهاية، ولا أن كانت هناك أجرام وأجرام سماوية نقيضة، ولا أكوان، وأكوان نقيضة.

ولكى نوضح أكثر نقول: إنه لا توجد لدينا حتى الآن وسيلة لنعرف بها إن كانت شمس الكون أو نجومه قد اشتغلت بمادة أو بمادة نقيضة، فنحن نرى هذه النجوم من خلال الضوء الذى ينبعث منها، والضوء أو النور جوهر واحد، سواء انطلق من نجم أو نجم نقيض. . لأن للنور صفات موحدة وواحدة. . أى لا يوجد شيء اسمه نور أو نور نقيض، لكن النقيض يظهر فقط عندما تتجسد الطاقات العاتية فى جسيمات مادية، لتظهر بعد ذلك فى نظم ذرية، قد يكون بعضها لبعض عدو مبین.

بمعنى آخر نقول: إن شمسنا مثلا تعيش على استهلاك غاز الأيدروجين الذى يدخل فى تفاعل نووى جبار، لتنتقل على إثره أضواء وإشعاعات وحرارة رهيبية (وكلها صور من الطاقة التى نتجت من استهلاك المادة). . ولكن الشمس النقيضة مثلا تعيش على استهلاك غاز الأيدروجين النقيض، لتنتقل منه أيضا صور الإشعاعات والأضواء والحرارة. . أى أننا لانعلم إن كانت النجوم التى نرقبها شمس عادية (أى من مادة عالمنا)، أو شمس نقيضة (أى من مادة نقيضة لمادة عالمنا).

شيء وحيد يتبقى لكى نعرف الشمس من الشمس النقيضة . . إذ لو تقابلت هذه مع تلك «لأكلت» إحداهما الأخرى، وعندئذ تبيد البروتونات نقائضها، والنيوترونات نقائضها، والاليكترونات نقائضها، وتتحول الشمس من حالة مادية الى حالة موجية، وتصبحان أثرا بعد عين، لكن بعد أن نشهد كارثة كونية لا تستوعبها العقول . . لأنها قد تتمخض عن طاقات رهيبية قدر الطاقات الكامنة فى بلايين بلايين بلايين بلايين من أعنى القنابل الأيدروجينية التى صنعها الإنسان على كوكبه.!

وطبيعى أننا لم نشهد شمسا أو نجما يتصادم مع نجم آخر، سواء كان هذا أو ذاك من مادة عادية، أو أخرى نقيضة . . ذلك أن نجوم الكون معزولة عن بعضها بمسافات كونية هائلة . . مسافات لاتستوعبها عقولنا القاصرة . . لأنها تقدر بالسنوات الضوئية - أى فى حدود عشرات ملايين الملايين من الأميال . . إن أقرب نجم إلينا بعد شمسنا تفصلنا عنه ٣, ٤ سنة ضوئية - أى مسافة تقدر بحوالى ٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠, ٢٦ ميل (أى ٢٦ مليون مليون ميل، ذلك أن السنة الضوئية تقدر بحوالى ٦ مليون مليون ميل) . . والذى بعده يبعد عنا ٦, ٦ سنة ضوئية، والذى بعده وبعده تفصلنا عنه حوالى ٦, ٨ سنة ضوئية وهكذا . . وربما تكون هذه المسافات الكونية الرهيبة بمثابة عوازل تعزل النجوم العادية عن النجوم النقيضة، أو ربما كانت هناك مجرات من نجوم عادية، ومجرات نقيضة تتكون من نجوم نقيضة كذلك . . فلا أحد يدرى الحقيقة يقينا (شكل ٧).

وقد يقول قائل: لكن ما الذى يدرينا أن الآيات القرآنية التى تعرضت لخلق الأزواج تقصد كل هذا حقا؟ . . أو لماذا نحمل هذه الآيات فوق ماتحتمل، ونلصق بها ما ليس واردا فى معانيها؟.

الواقع أن أحدا لا يدرى . . فرما يكون ذلك، أو قد لا يكون، فكل هذا متروك لعقيدة الإنسان فى المقام الأول!.

ومع ذلك، فالبحث في بداية خلق الأكوان شيء مثير في حد ذاته، وهو يجذب لروعته العقول المفكرة.. لا الجلمدة، وفوق كل هذا يوضح لنا الأساس البديع الذى قامت عليه السماوات.. ﴿قل انظروا ماذا فى السموات والأرض﴾ (يونس.. آية ١٠١).. ﴿أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض﴾ (الأعراف.. آية ١٨٥).. ﴿ويتفكرون فى خلق السموات والأرض﴾ (آل عمران.. آية ١٩١).. إلى آخر هذه الآيات التى تحض على التطلع والتفكر والمعرفة، ثم لا يعرف مغزاها إلا قوم وهبوا أنفسهم لكشف ما تنطوى عليه من أسرار وألغاز توضح لهم عظمة الخلق هنا وهناك. ثم إذا كانت الآيات القرآنية لا تقصد هذا، فإن قصدنا يتركز على توضيح الفكرة المذهلة التى بدأ بها الخالق خلق أكوانه المثيرة، وكما كشفها العلماء الذين يبحثون فى الوحدات التى تشكلت منها نظم أصغر، تآلفت فى نظم أكبر وأكبر وأكبر.. حتى ننتهى بالأجرام الضخمة، التى تنتشر فى كون الله الفسيح.. ثم إن بداية النظم الصغيرة تتجلى لنا حقا فى خلق الزوجين دائما على مستوى الجسيمات التى تتخلق منها الذرات.. فالجزيئات.. فالمادة ذاتها، ولك الحرية بعد ذلك فى إمكان استيعاب أن كانت هذه المادة قد جاءت على هيئة عادية أو نقيضة!.

التناسق المادى فى السماوات :

للتناسق معان مجردة، وأخرى مجسدة.. فدائما نقول: إن النور عكس الظلام، وإن الشر ضد الخير، والرذيلة مناقضة للفضيلة، والسالب متمم للموجب.. إلى آخر هذه المعانى المجردة التى أحيانا ما نجسدها فى ملاك وشيطان، أو جنة ونار، أو ذكر وأنثى، أو مادة ومادة نقيضة، ليسرى مبدأ الازدواجية على الخلق جميعا.. ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾!.

ولقد تحقق هذا المبدأ في بداية الخلق على أضال صورة وأتقنها، فكانت الجسيمات والجسيمات النقيضة، وما يتبعها من تضاد الشحنات أو ازدواجيتها في المادة والمادة النقيضة، ليكون التعادل والتناسق في كل صور الخلق. . صغيرها وكبيرها، وهذا ما يسعد العقول الباحثة في طبيعة ملكوت الله، فهي أدري بالأسرار التي غابت عن كثير من الناس.

فمثلا. . العالم السويدي المرموق البروفيسور اوسكار كلاين الأستاذ بجامعة استوكهولم قد عكف سنين طويلة على دراسة هذا الأمر المثير من خلال معادلات رياضية أصيلة، ونحن لا نستطيع مناقشة هذه المعادلات هنا، فليس ذلك مجالها، لكن يكفي أن نشير إلى أن كلاين قد خرج بنتيجة تقول: إن المادة والمادة النقيضة لابد أن تكونا قد ظهرتتا معا في وقت واحد، ولابد أيضا أن تتساويا تماما. . فما من جسيم يأتى إلى الوجود، إلا ويظهر معه نقيضه، ويتبع ذلك خلق مادة ومادة نقيضة، ليتكون منها الكون الذى نراه بغير حدود، ويعنى هذا أن نصف الأجرام السماوية قد جاء وظهر على هيئة مادة عادية، ونصفها الآخر قد خلق من مادة نقيضة، وهنا نستطيع أن نقول إن مبدأ الأزواجية أو التناسق على مستواه الكونى قد اكتمل بفكرة مبدعة! .

ثم يذهب عالم البلازما النووية البروفيسور هانز الفين من المعهد الملكى للتكنولوجيا باستوكهولم إلى أبعد من ذلك، ويقدم لنا كتابا علميا ممتعا بعنوان «العوالم والعوالم النقيضة Worlds - Antiworld»، وفيه يشرح الفكرة التي يمكن أن يكون قد ظهر على أساسها الكون والكون النقيض، وكيف أن هذه الأكوان قد ظهرت أولا من تجسيد الطاقات أو الموجات العاتية (أو الأنوار الجبارة بلغة الناس. . . وهي غير منظورة) والتي لا يستطيع أن يحدد مصدرها ومنبعها، لكننا عندما نعجز عن ذلك، نعيدها دائما إلى الله مبدع كل شىء. . . ربما مصداقا للآية الكريمة ﴿الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح. . .﴾ إلى آخر ما جاءت به الآية التي ذكرناها قبل ذلك

فى سباق حداثا؁ والآفة صورة تقربفة للأذهان؁ لأن نوره فى كل شىء؁ وربما هو الذى - أى «النور» - قد تجسد فى جسفات لتنشأ منها مادة الأكوان التى نراها والتى لا نراها . ثم إن المادة صورة من صور الطاقة؁ أو العكس؁ كما سبق أن أوضحنا .

المهم أن هانز الففن قد أوضح لنا كيف تسلطت بعض القوى الكونية على الجسفات والجسفات النقففة؁ كى تباعد بفنفا؁ وتفصلها عن بعضها؁ لتتكون منها الذرات فالجزفئات؁ ثم ما فتمخض عنها من مادة ومادة نقففة لتشتغل بها نجوم الكون والكون النقفض؁ أو أية كواكب وأقمار تتبع هذه النجوم .

أى كأنما الكون والكون النقفض قد جاءا من «نفس واحدة»؁ أو من نور أزلى واحد؁ أو من أصل واحد (شكل ٨)؁ أو من جوهر واحد؁ أو أى تعبر آخر قد فتراف لك؁ فلازلنا أمام أسرار الكون المتلاطمة كأطفال فقفون على شاطئء محفط المعرفة الواسع؁ ومع ذلك فان القطرة التى حصلنا عليها من ذلك البحر العمفق توضح لنا بدافات الأشياء؁ وتضع أمامنا الكون بصورة أخرى مثيرة تختلف عن تلك الصور التى راودت عقول القدماء .

نعود لنقول: إننا لانستففع أن نحدد الفرق بفن نجم ونجم نقفض؁ أو بفن كون وكون نقفض؁ إلا فى حالة واحدة فقط: هى اصطدام نجم مع نقفضه؁ أو كون مع نقفضه؁ وعندئذ لابد أن فزولا معا؁ كما ظهراف معا؁ أى أنهما ففحولان من تجسفف إلى تموفف؁ أو من مادة تشتغل فى الكون زمانا ومكانا؁ إلى طاقات أو موجات لا زمان لها ولا مكان . . أو هكذا تنبئنا احدات الجسفات الذرفة التى تتخلق فى المعجلات النووة الجبارة؁ ثم قد فففد بعضها بعضا؁ وكأنما هذا البعض (أى الجسفات النقففة) فأتى وفظهر فى عالم ففر عالمه؁ فلا فستففع أن فعفش ففه . . فهو فولد ثم فموت فى نفس

اللحظة . . ولا شيء غير ذلك، عدا أن فناءها على هيئة جسيمات يتولد عنه قبسات جد ضئيلة من «أضواء» بالغة العنف والضراوة! .

ثم إن العلماء الذين يبحثون في نظم الله قد توصلوا إلى انجازات لا نستطيع لها هنا حصرا، لكن يكفي أن نذكر أن فكرة القنبلة الأيدروجينية مثلا لم تنشأ من فراغ، ولا هي أضغاث أحلام، بل إن فكرتها قد تأسست على نفس الفكرة التي تقوم عليها حياة الشمس . فحرارة الشمس الجبارة تدفع ذرات الايدروجين للالتحام في عمليات نووية هائلة فيتولد عنها طاقات هائلة لا تتصورها عقولنا . . وكذلك الحال مع القنبلة الأيدروجينية، ففكرتها تقوم على فكرة انشطار نووى ليؤدى إلى حرارة هائلة تقرب من حرارة جوف الشمس، وبهذه الحرارة الجبارة تلتحم ذرات الايدروجين لتولد مزيدا من طاقات جبارة . . أى كأنما القنبلة الايدروجينية جزء جد ضئيل من الشمس . . ولكنها من تخلق الإنسان الذى درس بعض قوانين الكون، وعرف أسرارها . . ثم طبقها عن علم لنا فيه بأس شديد . . هذا إن سرنا على هدى القوانين الكونية، وعرفنا مضمونها، لتتمخض عن تطبيقات يتشعب فيها الحديث ويطول.

أى أن العلم قوة، والعلم نور، ولكن أكثر الناس عن أسرار خلق الله غافلون، ولو أدركوا بعضها، لكان لهم بين العالمين شأن آخر .
ثم إن علماء الفلك والطبيعة الكونية تتجلى لهم فى السماوات أحداث رهيبة ومثيرة، وهم لا ينظرون اليها بعيونهم، ولكن التطلع والنظر يتأق من خلال التليسكوبات الجبارة، فهذه تستطيع أن ترى فى الكون بقوة أكفأ من العين البشرية بحوالى مليون مرة . . وعندئذ «ترى مالا عين رأت» . . فماذا رأى العلماء بتليسكوباتهم، وماذا سجلوا بأجهزتهم الحساسة؟ .
لقد تطلعوا إلى أحداث يضمن فهمها على العقول، وكأنما بعض النجوم أو المجرات تلتهم بعضها بعضا، أو كأنما بعضها لبعض عدو مبين . . إذ أنها

تعبّر عن أحداثها بإشعاعات هائلة تختلف في شدتها وقوتها عن الإشعاعات التي تصدر من النجوم أو الشموس، فهي أعنف منها بملايين وبلايين المرات، ويطلق العلماء على هذه الأحداث أسماء علمية (منها مثلاً حالات الكوازرات Quasars التي تنبعث منها طاقات هائلة فوق عادية)، ومع ذلك، فهم لا يستطيعون تفسيرها، لكن من بين التفسيرات التي قدمها بعض العلماء أن هذا العنف الإشعاعي - الذي نتقبله على أرضنا من مسافات تقدر بملايين وبلايين السنوات الضوئية - قد يرجع إلى التحام نجم مع نجم نقيض، أو مجرة مع مجرة نقيضة (شكل ٩) أو سحابة كونية هائلة مع سحابة أخرى نقيضة، فتهلك البروتونات أضدادها، وتبديد النيوترونات أضدادها، والليكترونات أضدادها. . ليعود كل شيء إلى أصله. . أى إلى طاقات أو إشعاعات أو أنوار عاتية، ثم لك أن تتصور بعد ذلك ماذا تعنى أضواء ناشئة من جرم سماوى لتصبح أقوى من أضواء شمسنا بملايين أو بلايين المرات. . إنها ظاهرة لاتعيها العقول حقا. . فما أغرب الأسرار - أسرار السماوات -!

الموضوع طويل جدا، ومثير جدا(*).. لكن علينا أن نختم حديثنا هنا بآية نراها ضرورية لتكتمل الصورة في أذهاننا، تقول الآية ﴿وما قدروا الله حق قدره، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه﴾ (الزمر. . آية ٦٧). . وهذا الجزء الأخير من الآية قد تكون فيه إشارة خفية لانستطيع إدراك معناها ومغزاها. . فطبيعى أن الله سبحانه وتعالى ليس له يمين كيميننا، ولا يسار كيسارنا، ولا شيء من الصفات التي قد توصف بتعبيرات مادية، ومع ذلك، فقد يقفز الى العقل تساؤل قد يبدو غريبا: وماذا

*لكل من يريد أن يعرف المزيد عن هذا الموضوع الكبير، فليرجع إلى كتابنا «هل لك في الكون نقيض؟ - أصل الكون والكون المعكوس» من سلسلة العلم للجميع- الهيئة المصرية العامة للكتاب.

طوى فى «يساره» حتى يمكن أن نرتاح الى فكرة التناسق الكوفى، وبقدر ماتصوره لنا عقولنا القاصرة؟.

ربما كان يطوى فى «يساره» أكوانا يسارية.. أكوانا معكوسة بالنسبة لأكواننا التى نعيش فيها، ونعرف بداية الخلق منها على هيئة تناسق فى أحداثها الذرية.. أو بمعنى آخر على هيئة أكوان نقيضة!.

كأنما الله قد أشار «بيمينه» إلى الموجات فتجسدت فى أكوان «يمينية».. وكأنما أشار «بيساره» فكانت أكوانا «يسارية».. أكوانا نقيضة، أو صورة معكوسة للمادة التى نعرفها فى أرضنا وفيها حولنا!.

وكأنما الله قد أطلق الأنوار أو الأضواء أو الموجات من قديم الأزل، لتنتشر فى الفراغ اللانهائى، ثم لتتجسد فيه على هيئة مادية.. وبهذا يتحول الفراغ أو العدم الى نقيضه.. الى وجود - هو الذى نعيش به وفيه - ثم نرقب هذا الوجود من حولنا وفيها، وندرس ونبحث ونجمع، ونترك لغيرنا ما درسنا وجمعنا، ولكن بعد أن نموت ونتخلى عن «المسرح» المنصوب على أرضنا، ليظهر فيه غيرنا.

كأنما الكون كله ليس إلا موجات من وراء موجات تنبع من منبع أزلى، ثم تتجسد تارة ليتخلق منها الزوجين دائما، و «تتقمص» هيئتها المادية فى جسيمات وذرات وجزيئات.. الخ، ثم قد تعود من تجسيدها أو «سجنها» المادى الى حالتها المتحررة الطليقة على هيئة موجات تعم هذا الكون، وتتداخل فيه بصورة أو بأخرى.. وهكذا تسير تلك الحلقة من الأحداث، فلا نستطيع أن نعرف أولها من آخرها، ولا بدايتها من نهايتها، وكأنما نحن قد أصبحنا جزءا منها، لنجرى فى فلكها، وندور فى رحابها.. الى أين؟.. لسنا ندرى، فان كنت تدرى، فدعنا ندرى!.

إن الذى ندرىه بعد ذلك أن الإنسان وسائر أنواع الكائنات قد جاءت خلقا من داخل خلق من داخل خلق.. الخ، وفى كل خلق منها تتجلى لنا

أيضا فكرة الزوجين أو الأزواج . . ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾!
لكن ماذا نقصد حقا بقولنا إننا خلق من داخل خلق . . الخ ، وأن كل
خلق قد جاء أزواجا؟ .
لكي نجيب على ذلك ، كان لزاما علينا أن نفتح صفحة جديدة ، في فصل
آت مستقل ، لنعلم ما لم نكن نعلم ! .

الفصل الثالث

والخلايا أزواجاً

الفصل الثالث والخلايا أزواجاً

لازلنا ننهل من عطاء العلم لنوضح به ما تنطوى عليه الآية الكريمة التي تقول ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ (يس . . آية ٣٦)، هذا رغم أننا قد نمرمر الكرام على تلك الآية البسيطة في معناها، ولا ندري أنها تشير إلى أمور عميقة في مغزاها، متطورة في مفهومها، وضاعة في معانيها، كريمة مع عقولنا وعلمنا كأعظم ما يكون الكرم .

قلنا: لازلنا ننهل من عطاء آية واحدة، لأننا قبل ذلك، وفي فصلين سابقين، تعرضنا لشرح بدايات الخلق غير المنظور، هذا الخلق المثير الذى جاءت فيه الجسيمات لتظهر وتتجسد أزواجاً، ثم لتتخلق منها الذرات والذرات النقيضة أزواجاً، وليكون منها السماوات أزواجاً، وبما فيها من شمس وكواكب وأقمار لانكاد نحصيها عدا، وفي هذا يعبر القرآن الكريم أبدع تعبير ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ . . (الذاريات . . آية ٤٩).

ثم تأتى فكرة الخلق الكونى فى الحياة، لتتوحد فينا أيضاً وفي كل الكائنات، ولتصبح بدورها أزواجاً أزواجاً ﴿مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم﴾، وهذا هو الظاهر للحواس، لكن ﴿ومما لا يعلمون﴾، هو الباطن أو الخافى، وما خفى كان أعظم وأروع وأدق من كل ما ظهر، فجمال الخلق،

يعتمد على فكرة مبدعة، والإبداع يتجلى حقا في الخلية الحية، ففيها من الأسرار ما لا يطرأ على عقل بشرا.

لكننا لانستطيع أن نرى الخلية رؤية العين، ولو رأيناها، لظهرت فكرة الخلق فيها أزواجا، لتؤدي بعد ذلك إلى الأزواج المجسدة الظاهرة للعيان، في كل مكان وزمان، وفي هذا تذكر الآية ﴿أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ (الشعراء . . آية ٧)، وآية أخرى تقول ﴿وخلقناكم أزواجا﴾ (النبا . . آية ٨) . . الخ .

صحيح أن القرآن ليس كتاب علم تجريبي، بل هو في المقام الأول كتاب نواهي وأحكام وشرائع وهداية . . الخ، لكنه مع ذلك يحتوي في بعض آياته على روح العلم، إذ فيها إشارات لبعض ما نعرفه من علومنا الحديثة التي نتعامل معها بعيون غير عيوننا، وحواس غير حواسنا، إذ لو اعتمدنا على العين أو الحواس فيما ترقب وتسجل، لما توصلنا إلى شيء من أسرار الكون والحياة، ولما تطلعنا إلى ما فيها من إبداع وتجليات الله!

وليس هناك أبدع من الحياة ولا أروع، ولا شيء يمكن أن يستهوى فكرك، ويشير خشوعك، ويستولى على عقلك إلا في التأمل العميق في خبايا المخلوقات . . كبيرها وصغيرها، نباتها وحيوانها، وكل ما يسبح في بحار الأرض، أو يخلق في أجوائها، أو يجري فوق ظهرها، أو يندس بين ثراها، أو في خبايا شقوقها وجحورها.

ملايين فوق ملايين من الأنواع، لكننا لانرى منها إلا نورا يسيرا، لقصور في حواسنا، ومع ذلك، ورغم اختلاف مظاهر الحياة وأشكالها وسلالاتها، إلا أنها تجمعها جميعا في الخلق فكرة واحدة، وربما كان ذلك مصداقا لقوله تعالى ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة، إن الله سميع بصير﴾ (لقمان . . آية ٢٨).

والخلق كله - من أوله إلى آخره - إنما جاءت فكرته في خلية (شكل ١٠)

وهنا تكمن العظمة الحقيقية التي أشار الله إليها في كتابه، وفي أكثر من موضع، ثم جمع فصل الخطاب في آية تقول ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً﴾ (فاطر.. آية ١١).

لكن.. ماهى فكرة الزوجين هنا على مستوى التراب والنطفة والكائنات؟.

دعنا نبدأ بالظاهر، فهو حتماً سيجرنا إلى الباطن، ثم إذ بالباطن يتحول إلى ظاهر، فيحتاج إلى وسائل خاصة، لنرى باطن الباطن!.

* * *

خذ أى كائن من الكائنات المنظورة - أى تلك التى نراها ونتعامل معها بكل أحاسيسنا - نجدها تتكون من أعضاء.. الأعضاء من أنسجة.. الأنسجة من وحدات أصغر، لكننا لن نرى هذه الوحدات لأنها تقع فيما وراء حدود عيوننا وحواسنا، ولو أردنا رؤيتها، فلا بد أن نستعين بعين أخرى غير عيوننا، لترينا «ما لا عين رأت»!.

وعين العلم التى نستعين بها على رؤية تلك العوالم غير المرئية - أى وحدات الحياة أو الخلايا - تتمثل لنا فى المجهر (الميكروسكوب) بكل أنواعه وطرأزاته.. بداية من المجهر الضوئى إلى الأليكترونى إلى النيوترونى (شكل ١١)، وهذه قد تجعل من «الحبة قبة» - على حد قول عامة الناس - لأنها توضح لنا آلاف التفاصيل والنظم التى لا يمكن لعيوننا أن تراها، فإذا بجناح البعوضة مثلاً يبدو لنا وكأنما هو بنايات من داخل بنايات من داخل بنايات، وكلما جاءت الصورة أكبر، تجلت لنا تفاصيل أكثر، لكننا لسنا بواصلين إلى نهايات حدود المعرفة - لسبب بسيط - ذلك أن لنا أيضاً حدوداً فى معارفنا، صحيح أننا قد نظن أن الحقيقة «قاب قوسين» منا أو أدنى، لكنها كثيراً ما تشيح بوجهها، وكأنما هى لن تبوح بالسر أبداً، ولهذا فإن معرفة العلماء هنا

بأسرار الكون والحياة معرفة نسبية، لا يقينية كما يردد الناس دون أن يعرفوا شيئاً عما يعنى اليقين.. فاليقين لله وحده، وكل ما عداه نسبي!. وبالمجهر نستطيع أن نميز أنواعا كثيرة من الخلايا الجسدية.. فمن خلايا عظام تختلف في شكلها وقوامها وطبيعتها عن خلايا كبـد، وهذه لا تتشابه مع خلايا مخ، أو عضلات أو أمعاء أو عيون أو آذان.. الخ.. الخ.. الخ، بل إن كل خلية في نسيج في عضو قد جاءت لتوظيفة محددة لا تحيد عنها ولا تميل، أو كأنما كل خلية قد جاءت لما هي له ميسرة.

إلا أن كل هذه البلايين من الخلايا الجسدية قد اشتقت في الأصل من خلية أولى ملقحة، وفي هذه الخلية تكمن كل الأسرار العظيمة التي كشف عنها العلم الحديث الحجب، وأظهر لنا فيها فكرة الخلق أزواجاً أزواجاً، وكان ذلك لحكمة بالغة لم تظهر لكل الأجيال السابقة.

فالعين عندما ترى من صور الحياة ﴿من كل زوجين اثنين﴾، فهذا صحيح تماما.. فالإنسان جاء من ذكر وأنثى، خلية من هذا، مع خلية من تلك، ليتحدا في كيان واحد لا تكاد العين تراه (هي البويضة الملحقة) وفي داخل هذه البويضة تكمن الخطة الوراثية، وتتنظم «الشفرة» البديعة التي وضعها الخالق، لتعبر عن عظمة الفكرة، وإتقان الخلق، ثم إذ بهذه الخطة، أو «الكتاب الدقيق» المكتوب من «مداد» عناصر هذه الأرض أو ترابها.. إذ به يترجم معلوماته الباطنة إلى مخلوق جديد، أيا كان شكله وحجمه ونوعه وسلالته ولونه، وسوف يتجلى لنا هذا الإبداع - فكرة وخلقا وتعبيرا - فيما بعد.

هذا هو الظاهر في كل الكائنات، لأنها تتراءى لنا دائما على هيئة ذكر وأنثى.. فهناك الجمل والناقة، والأسد واللبؤة، والكبش والنعجة.. الخ، وهناك أيضا ذكور النخيل وإناثه، وفي الزهور والورود تكمن أيضا أعضاء الذكورة وأعضاء الأنوثة، ومن عملية تقابل الخلايا الجنسية بين هذه وتلك،

ثم اختلاطها والتحامها في كيان واحد، تنتج الأجنة النائمة في بذورها، أو الكامنة في ثمارها، لتعطى جيلا من وراء جيل، وهكذا يستمر طوفان الحياة المتجدد هادرا قويا، ومن وراء ذلك فكرة موحدة في خلايا جنسية هي الأخرى تظهر أزواجا أزواجا.

صحيح أننا قد لا نرى هذه الخلايا الجنسية رؤية العين، لأنها أصغر من الحدود التي نرى فيها، لكن الناس قد عرفوا - من قديم الزمن - أن النطفة تمثل في مجموعها الخلايا أو المكونات الجنسية للمخلوق الذكر، وأن هذه النطفة تخرج من الغدد الجنسية للذكور، ومن المبايض تخرج البويضات، والبويضة هي الوحدة الجنسية الأنثوية التي تقابل الوحدة الجنسية الذكرية، أى الحيوان المنوى (شكل ١٢ أ، ب).

والنطفة مرئية كسائل لزج قليلا، لكن محتوياتها لم تتكشف على حقيقتها إلا من خلال المجاهر، وعندما ننظر بها إليها، نشهد «مهرجانا» من قبسات دقيقة من حياة، أو نرى كائنات صغيرة تجرى وتسبح وتعم في سائلها المنوى بالملايين، وقد يملك عليك هذا المشهد المثير كل تفكيرك، وعندئذ تقف لتساءل: ترى، ماذا تعنى هذه البدايات التي تنطلق وتتولى بدون هدف ظاهري؟.

الواقع أنها تعنى الكثير جدا.. فالخلية الجنسية هنا كانت بالنسبة للعين البشرية أمرا مخفيا في نطفتها، وعندما تسلطت عليها عيون المجهر وكبرتها، رأينا باطنها - رأيناها على هيئة ومضات دقيقة من حياة.. كل ومضة أو خلية تتكون من رأس وذنب، فأما الرأس ففيها «خطة العمل»، وأما الذنب فيدفع الخطة إلى هدفها ويوجهها إلى مرادها، والهدف أو المراد هنا هو خلية جنسية أنثوية، فيتحد هذان الكيانان الدقيقان في كيان واحد ليبدأ مخلوق جديد، سبحان من أشرف على تكوينه، ورسم له خططه، وأوحى فيه أمره، ونفخ سره، ولا يعرف ذلك حق المعرفة إلا كل من عايش هذه الأمور الخافية

معايشة حقيقية بالبحث والكشف العلمى الأصيل، فإذا بها تكشف له عن عظمة نواميس الحياة، وإبداع فكرة الله.

لكن الباطن الذى ضمن على العين البشرية، قد تحول تحت المجاهر أيضا الى ظاهر، فماذا يحوى بدوره هذا الظاهر، أو تلك القبسة الصغيرة من أسرار؟.

ان سرها يكمن أيضا فى سر بعض آيات القرآن التى تعرضت للأزواج، ففي آيات القرآن - كما سبق أن ألمحنا - ظاهر وباطن، فالظاهر يعرفه عامة الناس، والباطن يعرفه الخاصة، وباطن الباطن، يعرفه خاصة الخاصة! النطفة هى الأمر الظاهر، وما تحوى النطفة من خلايا جنسية هو باطن هذا الظاهر، وما نراه تحت المجاهر كخلايا متشابهة تماما قد يخدعنا خدعة كبرى، لأن للخلية الجنسية ظاهرا وباطنا، فظاهرها لا ينبىء عن باطنها، لأن الباطن يحوى فكرة خلق الزوجين، ولا يعرف ذلك الا العلماء التجريبيون، ولقد بدأوا يعيشون فيه منذ حوالى قرن مضى، رغم أن القرآن الكريم قد أشار إلى هذه الحقيقة منذ حوالى أربعة عشر قرنا!.

كيف؟

تقول الآية ﴿ألم يك نطفة من منى يمنى، ثم كان علقة فخلق فسوى، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ (القيامة.. آيات ٣٧-٣٩).. وفى آية أخرى ﴿وإنه خلق الزوجين الذكر والأنثى، من نطفة إذا تمنى﴾ (النجم.. آية ٤٥-٤٦).

والنطفة هنا للرجل - كما جاء فى التفاسير، لكن نطفة الرجل أو السائل المنوى، أى ﴿منى يمنى﴾ يحتوى على الخلايا الجنسية الذكرية، فكيف جعل ﴿منه الزوجين الذكر والأنثى﴾؟

لقد عدنا إلى التفاسير التى تناولت هذه الآيات، وتناولها كل مفسر على قدر علمه، لكن أحدا لم يتوصل إلى باطن الباطن، أو فكرة خلق الزوجين

على مستوى النطفة، لا على ما بعدها - أى بعد تخليق النطفة - كما جاء فى بعض التفاسير، أى نشأة الذكر والأنثى فى الرحم بعد تقبله الخلايا الجنسية، ثم عملية التلقيح، ثم عملية التشكيل والتطور التى تؤدى فى مرحلة من مراحل الجنين إلى التمييز بين الذكر والأنثى، على أن هناك تفسيرات أخرى تشير إلى أن النطفة مقصود بها نطفة من الذكر، ونطفة من الأنثى، وهاتان النطفتان تمثلان - فى رأى هذه التفاسير - المقصود بالذكر والأنثى . . أضيف إلى ذلك أن كلمة ﴿فجعل منه﴾ ليست عائدة إلا على ﴿منى يمنى﴾ . . ولو كانت تقصد النطفة أو العلقة، لجاءت ﴿فجعل منها﴾ . . ومع ذلك فالأمر متروك لتقديرك، والله أعلم! .

لكن لا علينا من كل ذلك، لأن الأمر هنا أعمق مما يتصور المفسرون التقليديون، وهم فى ذلك معذورون، لأنهم لم يطلعوا على باطن الباطن، ولو عرفوه، لفسروه، ولأضافوا لمكرمات القرآن إضافات تتمشى مع العصر الذى نعيش فيه، وعندئذ لا نقول فقط إن القرآن صالح لكل زمان ومكان، ولكنه صالح أيضا لكل مستويات التفكير عند الانسان، وبقدر ما تتطور العلوم وتتقدم، بقدر ما تعطيك من أسرار تتمشى مع المعنى الكامن فى هذه الآيات! .

* * *

إذن . . ما هو المقصود بالذكر والأنثى فى المنى الذى يمنى، علما بأن المنى هنا للرجل لا للمرأة؟ . . أضيف إلى ذلك أن المرأة لا تمنى كما يمنى الرجل، ولهذا وجب وضع النقط فوق الحروف لبعض التفاسير التى اعتقد أصحابها خطأ أن النطفة أو المنى للرجل وللمرأة على حد سواء، فلقد ظن البعض أن إفرازات المرأة أثناء عملية الجماع هى نطفة، وما هى بذلك، لكنها جاءت من الاثارة الجنسية، ثم لتيسر عملية الايلاج! .
إن نطفة الرجل - وكما أوضحت كل العلوم الحديثة - تحتوى بالفعل على

الزوجين: الذكر والأنثى، ولهذا أرجع القرآن الكريم الزوجين إلى المنى أو النطفة ﴿وإنه خلق الزوجين الذكر والأنثى، من نطفة إذا تمنى﴾ (أى تصب في الرحم).

ولكى ندرك ذلك، كان لابد أن يتحول ظاهر الحيوان المنوى الدقيق جدا إلى باطن، ففي الباطن يكمن السر. . تكمن «خريطة» الخلق الحقيقية، وفيها يتبين أن نصف حيوانات الذكور المنوية اناثا، ونصفها الآخر ذكورا! . بمعنى آخر نقول: ان خلايانا نحن معشر الذكور تحمل صفات الذكورة جنبا إلى جنب مع صفات الأنوثة، وانه بعملية الانقسام الخلوى التى تتم فى غددا الجنسية، تنفصل المكونات الوراثة الجنسية فرادى بعد أن كانت أزواجا أزواجا، فأما المكونة الوراثة الأنثوية الداخلة فى الخلية الجنسية للذكر، فإنها تعطىها صفة الأنوثة، وكذلك تعطى المكونة الذكرية للخلية الجنسية الأخرى صفة الذكورة، ولهذا إذا تدفق السائل المنوى، فانه يتدفق وهو يحتوى فى المتوسط على مائتى مليون حيوان منوى، منها مائة مليون ذكرا، ومائة ملوين إناثا، أى أن هذا قدر ذاك تماما، وربما كان ذلك أيضا مصداقا لقوله تعالى ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾ (النساء . . آية ١) . . وقوله ﴿هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها﴾ (الأعراف . . آية ١٨٩) .

بمعنى آخر نقول: إن القرآن الكريم قد سبق العلم التجريبي بالاشارة إلى تلك الحقيقة المثيرة منذ حوالى ١٤ قرنا، وما كان لأحد أن يستدل على أن النطفة جاءت أزواجا، وان منها أو فيها الزوجين: الذكر والأنثى، إلا من خلال الكشوفات العلمية الحديثة، وطبيعى أن القرآن يسر لا عسر، فهو يعطى من أسرارهِ على قدر ما وقر فى عقول الناس . . ان ظاهرا فظاهرا، وان باطنا فباطنا . . وكل يسعد بما أدرك وعرف! .

ونود أن نشير هنا إلى أن الأوائل الذين رأوا النطف الجنسية تحت المجاهر، وشاهدوا مكوناتها على هيئة خلايا تسبح في سائلها كما تسبح الميكروبات، لم يصدقوا ان هذه الخلايا الدقيقة يمكن أن تتمخض عن مجيء انسان كامل إلى الحياة، ولاشك أنهم تساءلوا: ماذا يمكن ان تحوى هذه «القبسات» الحية الضئيلة من تكوينات تؤدي في النهاية إلى مخلوق معقد التكوين والأنسجة والأعضاء؟

وطبيعى أن الأوائل قد تجمدوا في أفكارهم عند هذه الحدود، فلم تكن لديهم وسائل علمية أكفأ وأتقن لتكشف لهم ما تنطوى عليه الخلايا الجنسية من أسرار، وعندئذ تخيلوا ان الانسان قد جاء في صورة متكاملة، ولكنها مصغرة جدا في الحيوان المنوى، بل وذهب أحدهم إلى أبعد من ذلك، وسجل خياله في أشكال توضح ما راود عقله من أفكار ساذجة، بمعنى أنه ظن أن الحيوان المنوى يحوى في داخله إنسانا برأس وذراعين وساقين. . الخ.

* * *

على أن علينا - قبل أن نترك هذا الفصل - أن نشير إلى أن السبب في كون الأولاد ذكورا أو إناثا يكمن في الرجل لا المرأة، لأنه - كما ذكرنا - يحمل عاملى الوراثة الذكرى والأنثوى في خلاياه الجنسية (شكل ١٣)، فإذا سبق الحيوان المنوى الأنثوى ولقح البويضة الكامنة في الأنثى، جاء المولود بنتا، وإذا لقح الذكرى البويضة، جاء المولود ولدا.

أضف إلى ذلك أن العلماء يستطيعون الآن - وبطرق علمية لن نتعرض لها هنا - ان يعزلوا الحيوانات المنوية الأنثوية عن الذكورية في نطف الحيوانات التى أصبحت ذات أهمية خاصة للبشر، وبهذا يستطيعون أن يكثروا من الإناث على حساب الذكور، لأن الإناث في الحيوان ذات فوائد أكبر، فمن إدراك اللبن، إلى انتاج اللدنية التى نحن فى ميسس الحاجة إليها فى عالم ملء بالأفواه الجائعة.

وأخيرا يبرز لنا سؤال هام: ماهى تلك العوامل الوراثية التى تحدد الزوجين من البداية، فيكون منها ذكور واناث؟
ان ذلك يدعونا إلى تعمق أكثر، ونظرة أشمل، وتكبير بقوى المجهر أكبر،
لنتضح لنا خريطة من داخل خريطة، أو باطن من وراء باطن! .
ألم نقل من البداية: إنها أكوان من داخل أكوان من داخل أكوان . . أو قل
إنها أزواج من داخل أزواج من داخل أزواج؟! .
لكن . . ماذا يعنى ذلك حقا؟

يعنى أن الأزواج ليست فقط على مستوى الخلايا الجنسية كما أوضحنا فى فصلنا هذا، بل تتكرر الأزواج مرة أخرى على مستوى مكونات الخلية ذاتها،
وفى هذا أيضا لا يختلف الإنسان عن الحيوان، ففى كل خلية من المورثات
زوجان، وليكون ذلك مصداقا لقوله تعالى ﴿ومن كل شىء خلقنا زوجين
لعلكم تذكرون﴾ .

فما هى تلك الأزواج التى من داخل أزواج؟ .
علينا أن نتعرض لذلك فى فصل آت مستقل، لنتناول فيه مزيدا من
الأسرار الخاصة بخلق الأزواج!

الفصل الرابع

ومن الأمشاج أزواجاً

الفصل الرابع ومن الأمشاج أزواجاً

لقد تساءلنا في نهاية الفصل السابق وقلنا: إذا كانت الخلايا الجنسية في النطفة التي هي من ﴿منى يبنى﴾ قد جاءت أزواجاً أزواجاً، وأن منها إناثاً وذكراناً، إذا كانت هي كذلك حقاً، وكما أيدتها العلوم الحديثة، وكما أشار إليها القرآن الكريم تلميحاً، فهل هي بدورها - أى الخلايا - قد حوت في مكوناتها أزواجاً من داخل أزواج؟.. وما هي طبيعة تلك الأزواج؟. إنها - أى الأزواج - مما لا يعلم الناس، لأن مجالها الحقيقي يبرز ويتجلى في معامل العلماء، ومع أن العلماء قد اكتشفوا هذه الأزواج التي من داخل الأزواج منذ حوالى مائة عام، أو يزيد، مع ذلك، فانهم لا يزالون ينهلون من بحورها العميقة، ورغم ذلك لم يحصلوا من أسرارها إلا على القليل، وبقي الكثير. . . ﴿مما لا يعلمون﴾. . . لكن، كلما بحثنا وعلمنا وجمعنا، تجلت لنا قدرة الله العظيمة، بغير حدود، وعندئذ نردد عن علم وخشوع ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾.

دعنا إذن نعود إلى الأزواج على مستوى مكونات الخلايا، لنعلم منها كيف أوحى الله في كل خلية أمرها، كما أوحى في كل سماء أمرها.

* * *

في سورة الانسان، تحيىء الآية الثانية بقول جميل يحتوى على أصول علمية لاتدرك إلا من خلال التعمق في أصول الأشياء. . يقول الله تبارك وتعالى في

تلك الآية الكريمة ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا﴾ (الإنسان . . آية ٢).

والنطفة هنا هي ماء الرجل أو منيه، والأمشاج - كما جاءت في كتب التفاسير تعنى الأخلاط، أو ما خلط بين الرجل والمرأة . . يقال؛ مشج يشجه مشجا، أى خلطه خلطا.

وهذا صحيح تماما، لكن في الخلط ظاهرا وباطنا، ولن يتجلى لنا الباطن إلا تحت عدسات المجاهر، وعندئذ نرى الأمشاج وهى تمر بمراحل، كل مرحلة منها قد قدرت تقديرا، وكأنا نحن نشهد تمثيلية الحياة فى أدق وأروع صورها، فهى بعد قليل ستعبر عن نفسها، والتعبير سوف يتجسد فى مخلوق قادم، وهو أعظم حدث يتم فى هذا الكوكب، أو ربما فى هذا الركن من الكون العظيم الذى نعيش فيه، ثم لا نعرف عنه إلا نورا يسيرا، هذا رغم أن ما جمعناه يبدو أمام عيوننا كبيرا، وفى عقولنا عظيما!.

إن خلق الأزواج فى النطفة على هيئة حيوانات منوية ذكورية وأخرى أنثوية وبنسبة متساوية تماما، ثم التحام أو خلط المكونات الوراثية لحيوان منوى مع المكونات الوراثية لبويضة ليس أمرا عشوائيا، ولا عملية سهلة كهذا الكلام، بل إن دراسة هذه الظاهرة المثيرة قد استنفذت من عمر العلماء أعواما تلو أعوام، ولقد تجلت لهم وحدة الفكرة فى المخلوقات جميعا، بداية من الميكروب حتى النبات والحيوان والإنسان، وفيها تنفصل الأزواج لتكون فرادى ثم يحدث الخلط فى الأمشاج (وهى هنا الوحدات التى تختلط والتى نعرفها علميا باسم الكروموسومات أو الصبغيات) لتصبح أزواجا أزواجا. ولكى نوضح، دعنا نتعرض لجوهر الأزواج فى الإنسان، وما يجرى على الإنسان، يجرى على الميكروب والنبات والحيوان، فالكل من عند الله ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ (الأحزاب . . آية ٦٢).

* * *

فى الإنسان ملايين الملايين من الخلايا الجسدية (حوالى ٦٠ مليون مليون خلية)، ونشأتها جميعا جاءت من خلية وحيدة ملقحة، هى البويضة فى رحم أنثى، ولقد اختلطت أو تلقحت أو امتزجت بحيوان منوى واحد، فيصير منها الذكر أو الأنثى، مصداقا لقوله تعالى ﴿ولأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى، من نطفة إذا تمنى﴾ (النجم . . آية ٤٥-٤٦) . . ، ولقد ترك لنا القرآن هنا حرية الاختيار، كل على قدر ما علم، فان كان القصد من الآية الكريمة هو الزوجين اللذين نراهما رؤية العين: أى الذكر والأنثى، أو الرجل والمرأة، فان من رأى ذلك، فليس بخارج على أحكام القرآن، وإن كان القصد من الآية هو الزوجين الكائنين فى النطفة على هيئة حيوان منوى ذكرى، وآخر أنثوى، فان له ما أدرك، لأن الآية مناسبة وصحيحة أيضا فى هذا المجال، وإن نظر نظرة شاملة جامعة، وأخذ المعنيين، أى اعتبر الحيوان المنوى نطفة، والبويضة نطفة، لكان أيضا على صواب، وهذا عطاء سخى جدا للغة القرآن، لأنك تنهل منه على قدر ما تعلم . . ان ظاهرا فظاهرا، وان باطنا فباطنا! .

إذا عدنا للجسد، وأخذنا منه خلية واحدة . . آية خلية تشاء، من أى عضو أو نسيج تريد (عدا كرات الدم الحمراء)، فإنك لاشك واجد لها قيادة أو هيئة حاكمة حكيمة - هى النواة، أو «كتاب» الخلية المكتوب بعناصر هذه الأرض، والى عبر عنها القرآن الكريم أوجز تعبير بقوله ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا﴾ (فاطر . . آية ١١) . . وقوله ﴿هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلا﴾ (غافر . . آية ٦٧) .

لكن لا الخلية ولا النواة بظاهرة للبصر، لأنها فيما وراء حدود عيوننا، ولكى نراهما، فلا بد أن نستعين «بعين» تكتشف أمورا مثيرة وعظيمة، وكثيرا ما تضمن مكونات الخلية على الأبواب، وتغم على الأفهام، لكن بمزيد من

الصبر والبحث والتعمق توصلنا إلى أمور ما كانت لتطرأ لنا على بال .
هذه المكونات قد أشرنا إليها قبل ذلك على أنها الأمشاج أو الأخلاط أو
«الكروموسومات» أو الصبغيات، وهذان الاسمان الأخيران جاءا من كون
مكونات النواة تصطبغ أكثر من غيرها بالأصباغ، فتتجلى لنا بعض تفاصيلها
الدقيقة .

على أنك لو اطلعت على الصور المنشورة هنا لوجدت أن الخلية ما بين
انقسام ونمو، أو نشاط وتوقف (توقف نسبي)، إنما تمر بأطور عدة، وطبيعي
اننا لن نتعرض هنا لتفاصيل الفكرة التي أودعها الله في «مخ» الخلية أو
نواتها، لكن يكفي أن نشير فقط إلى أن الأمشاج أو الكروموسومات تنتشر في
النواة دون تحديد «لشخصياتها»، أو كأنما هي تختلط وتمتزج دون أن تنم عن
وجود «أزواج» يمكن التعرف عليها، لكن الأزواج تظهر فقط في حالة توالد
الخلية، وإنتاج أجيال أو نسخ منها، وهو ما نطلق عليه اسم عملية الانقسام
والتكاثر (شكل ١٤).

فبداية الخلية الملقحة في الإنسان توضح لنا فكرة الزوجين التي أشار إليها
القرآن، ففيها أو في أية خلية تنشأ منها، يوجد اثنان وعشرون زوجا من
الكروموسومات أو الأمشاج، هذا بالإضافة إلى زوج آخر له في تحديد جنس
المخلوق شأن يذكر! (شكل ١٥).

أى أن ما تحتويه نواة خلية الإنسان هو بالضبط ٤٦ كروموسوما أو
مشييجا . . ولقد جاءت أزواجا أزواجا . . كل زوجين متشابهين تماما، أو قل
إن أحدهما نسخة طبق الأصل من نظيره، عدا الزوجين اللذين يحددان جنس
الإنسان، إذ كان لاختلافهما أن جاء الذكر مختلفا عن الأنثى .

لكن إشارة القرآن الكريم ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ ، لا تقتصر
فقط على أن الأمشاج قد جاءت زوجين زوجين، بل إن كل مشييج أو
كروموسوم من الستة والأربعين الموجودة في نواة كل خلية من خلايا الإنسان،

قد جاء بدوره - أى الكروموسوم - على هيئة زوج مترابط قرب منتصفه أو قرب نهايته، وكأنما ينطبق عليه ما جاء فى جزء من الآية الكريمة ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ (الأعراف.. آية ١٨٩).. صحيح أن هذه الآية تقصدنا، لكن المعنى الكبير نراه صالحا على ما فى داخلنا من أزواج ظلت خافية على عيوننا كل هذا الزمان!.

والحكمة فى خلق الزوجين على مستوى الأمشاج لا تخفى على لبيب، ذلك أنها فى طور من أطوار انقسام الخلية، لإنتاج الخلايا الجنسية، تتقارب الأزواج المتشابهة أو المتناظرة بحيث يحتضن كل زوج «قرينه» ليأخذ منه، ويعطى له، وكأنما صور الأزواج فى عالمنا المنظور تتكرر هنا بصورة أكثر إثارة على مستوى الأمشاج غير المنظورة لعيوننا، ثم إن تقابل الذكر والأنثى فى حالة الجماع هى عملية أخذ وعطاء، وفيها تتقابل الخلايا الجنسية وتختلط، ويذوب «الزوجان» - أى الخلية الذكرية والأنثوية - فى كيان واحد، وبحيث تصبح الخليتان الجنسيتان خلية جسدية واحدة، ومن هذه الخلية تنشأ كل خلايا المخلوق بعد ذلك.

وكذلك نرى تمثيلية الحياة الرائعة تتكرر على مستوى الأمشاج، إذ يلتحم الزوجان منهما، فيبدوان وكأنما الكيانان قد أصبحا كيانا واحدا، أو من كل زوجين زوجا واحدا، فاذا نظرت إلى الأمشاج فى أحد أطوار تكوين الخلايا الجنسية، لرأيت أن الستة والأربعين كروموسوما قد أصبحت ثلاثة وعشرين زوجا، إذ عندما عرف كل زوج زوجه، وتقابل معه، وسكن إليه، والتحم به، وتبادل معه المعلومات الوراثية، انفصل عنه، ليستعد لأمر جليل يتوقف عليه طوفان الحياة فى كل المخلوقات. (شكل ١٦).

لن نطيل عليك فى هذه التفصيلات، فليس هنا مجالها، رغم أنها توضح لنا أن الله قَدَّرَ فخلق فسوى، وأنه اِشار إلى ذلك باقتضاب فى آيات بينات ﴿إنا كل شئ خلقناه بقدر﴾ (القمر.. آية ٤٩)، ﴿وخلق كل شئ فقدره

تقديرًا ﴿ (الفرقان . . آية ٢) وليس هناك من ابداع وابتكار واقتدار ونظام اروع مما نراه في بدايات خلق الكائنات!

على انه توجد عمليتان هامتان جدا في فصل هذه الأزواج ثم اختلاطها على مستوى الامشاج، ولا بد ان تسير كل عملية سيرا منظما ودقيقا غاية في الدقة، لأن الخلل هنا لا يغتفر، فأى خطأ يؤدي الى مرض، والمرض لا يمكن اصلاحه، لأنه نشأ من خطأ الامشاج، فيؤدي الى عاهة أو عاهات وراثية يقف العلم امامها حائرا، لأننا لا نعلم الا القليل جدا من اسرار هذه الكروموسومات، اذ انها تحتوى على طوفان هائل من المعلومات، ويكفى ان تعلم ان آلاف الصفات الوراثية التى تظهر فى الكائنات، انما هى تعبير لما تحويه الأمشاج من مخطوطات!

ذكرنا ان هناك عمليتين في فصل الأزواج أو جمعها، فأما العملية الأولى فتبدأ في الغدد الجنسية، وفيها تتم مسرحية الحياة في مراحل اربعة متتالية (شكل ١٧) وهذه لن نتعرض لها هنا، لكن يكفي ان نشير فقط الى ان الحيوان المنوى يحمل نصف الأزواج من الأمشاج (اي ٢٣ كروموسوما)، وان البويضة تحمل ايضا نصف هذه الأزواج، وعند التلقيح يذوب هذان الكيانان، أو تتحد الخليتان، لتصبحا خلية واحدة ملقحة، وفيها تظهر الأزواج مرة اخرى مكتملة (٢٣ زوجا، أو ٤٦ كروموسوما، نصفها من الحيوان المنوى، ونصفها الآخر من البويضة)، وهنا تكون اشارة البدء لظهور مخلوق جديد قد حلت، فيأتى - من البداية - حاملا صفات أبيه، وصفات أمه، ويخرج الى الحياة خلقا جديدا، ليس كمثل شبيه (عدا التوائم المتماثلة).

وأنت إذا تأملت وجوه الناس وألوانهم وأصواتهم وبصماتهم وطبائعهم، فانك لن تجد واحدا يشبه الآخر شبيها مطلقا، حتى ولو استمر ورود بلايين البشر، لبلايين السنين. . فكل واحد ملكوت قائم بذاته حقا.

والحكمة في اختلاف الناس تكمن أساسا في اختلاط الزوجين أو الأزواج ، ليس ذلك على مستوى الذكر والأنثى ، ولا على مستوى الحيوان المنوى والبويضة ، ولكن على مستوى الأزواج من الأمشاج ، فالخلط الحقيقي والأساسي يحدث بينها ، وهى التى أشرنا إليها قبل ذلك ، وقلنا ان كل كروموسوم من خلية الذكر يعرف نظيره من خلية الأنثى ، فيسعى اليه ، وبجواره يسكن ويحدث تبادل آلاف وملايين المعلومات الوراثية فى آلاف وملايين المواقع ، ومن اجل هذا تحمل الأجيال القادمة ، صفات الأجيال الراحلة ، ولكن دون ان تتكرر كل الصفات الوراثية بين بلايين البلايين من البشر ولو مرة واحدة . فكل قد جاء بصفات جديدة ومبتكرة ، وكل ذلك مؤسس على عظمة الفكرة ، التى وردت فى آية مقتضبة ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾ . . وفى هذه الأمشاج - وما يحدث بينها من اختلاط وتبادل معلومات - كتبت مجلدات فوق مجلدات ، لكن لا مجال لها هنا ، بل ان قصدنا فقط ان نبرز روعة خلق الأزواج كلها - بداية من اصغر كون الى اكبر كون ، ثم نترك الباقي لعلماء المسلمين ومتصوفيههم ، فرميا افادونا شيئا من علمهم .

والعملية الثانية تبدأ بانقسام الخلية الأولى الملقحة الى اثنتين فأربعة ثم ثمانية ، فستة عشر ، فعشرات ، فمئات ، فالآلاف ، فملايين وبلايين فوق بلايين ، وفى كل انقسام لا تنتصف الأزواج ، بحيث يذهب كل نصف الى خلية جديدة ، ولو تكرر ذلك لما قامت للكائنات قائمة ، لأنه بعد عدة انقسامات سيتضاءل عدد الأمشاج او الكروموسومات ، إذ لو استمرت عملية المناصفة عشرات المرات ، لأصبحت الكروموسومات اثرا بعد عين ، لكن ذلك لم يحدث حقا ، ولن نحمل له هما ، لأن الله أوحى فى كل خلية أمرها ، وأعطاهما نظامها ، ورسم لها خططها ، فشقت فى الحياة طريقها ، واستمرت الأنواع قوية هادرة لمئات الملايين من السنين ، وستبقى كذلك الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فالدارسون للخلية - أية خلية - يلاحظون ان تكاثر الخلايا الجسدية يتم عن طريق هذه الأزواج من الأمشاج أو الكروموسومات، اذ يحدث قبيل الانقسام الخلوى أن تهب الأزواج من نفسها لنفسها أزواجا، وكأنما كل زوج قد ملك الوسيلة لتكون له من ذاته ذرية طبق الأصل من تكوينه، فترى الثلاثة والعشرين زوجا (أى ٤٦ كروموسوما)، قد اصبحت بقدره قادر ستة وأربعين زوجا، وكل زوج منها نسخة متقنة من نظيره أو نفسه، ثم تحدث هجرة الأزواج الى طرفى الخلية الأم. . اى ٢٣ زوجا الى قطب، و٢٣ زوجا الى القطب الآخر، فتصبح نواتين خلئيتين جديدتين (انظر شكل ١٤). وكأنما الآية الكريمة التى تقول ﴿فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا﴾ (الشورى. . آية ١١) - كأنما هذه الآية التى تخاطبنا، لها ايضا صلاحيتها على ادق مستويات الخلق الكامن فى داخلنا على هيئة أزواج من الأمشاج فى كل خلية من خلايانا، اوخلايا كل المخلوقات، فقد جعل الله لها من نفسها أزواجا، ليسير كل شىء بحساب، ويسرى بمقدار.

اذن. . فالذى يحدد صفات المخلوقات من البداية هى هذه الأزواج من الأمشاج أو الكروموسومات، فنراها فى الخلايا الجسدية أزواجا أزواجا، وفى الخلايا الجنسية فرادى فرادى وباجتماع الفرادى تصير أزواجا، ويحكم كل هذا عمليات المناصفة حيناً، والمضاعفة حيناً آخر - كل ذلك يتوقف على كون الخلايا ستأق أجسادا أو نطفأ أمشاجا.

وفكرة الخلق فى كل الكائنات واحدة، فالذى يحدد صفات الانسان - كما سبق ان ذكرنا- هى ٢٣ زوجا من الأمشاج، والذى يحدد صفات القرد من نوع الرئيسوس ٢١ زوجا، والأبقار ٣٠ زوجا، والفئران ٢١ زوجا، والزنابق ١٢ زوجا، والبصل ثمانية أزواج، وذبابة الفاكهة اربعة أزواج. . الخ. . الخ (شكل ١٨).

صحيح ان الكروموسومات فى الكائنات قد تختلف طولاً وسمكاً وعدداً

وحجما، او قد تتساوى عددا، كما هو الحال مثلا في القرد والفئران (لكل ٢١ زوجا كما ذكرنا) الا ان العدد وحده لا يكفي لتحديد النوع، بل تتحدد الصفات الحقيقية من المعلومات الوراثية الكامنة في ازواج اصغر من هذه الأزواج، او بمعنى ايسر تتحدد بأمشاج من داخل أمشاج. هل يعنى هذا وجود بناء من داخل بناء، أو امشاج أكبر تنطوى على امشاج أصغر؟.

نعم.. . فلقد جاءت ايضا أزواجا أزواجا، لينطبق عليها القول الفصل ﴿ومن كل شىء خلقنا زوجين﴾.. . وللأمشاج الأصغر، من داخل الامشاج الأكبر، فصل آخر قادم، لنعلم من بديع صنع الله ما لم نكن نعلم، ومن اعجاز آيات القرآن ما لم نكن ندرك.

الفصل الخامس

ومن الجينات أو المورثات أزواجاً !

الفصل الخامس

ومن الجينات أو المورثات أزواجاً !

لاشك ان كل من يتعمق بالبحث والدراسة في نظم الله ، وعلى الأخص فيما يتعلق بمكونات الحياة ، لاشك انه سيرى فيها من آيات الله ، مالا يستطيع غيره ان يراه !

واذا تسلىح الانسان بالعلم والايمان ، ثم اقبل على قراءة القرآن ، قراءة من يغوص إلى الأعماق ، بحثاً عن «آليء» أو «جواهر» الحقيقة ، لكان ذلك فتحاً في عقله ولنفسه مبيناً .

ولقد اعطينا بعض آيات القرآن التشجيع الفكري لكي نبرهن على ذلك ، خاصة وأن جمهرة المفسرين كانوا يتعرضون لشرح بعض هذه الآيات شرحاً لا يتسم بالعمق والأصالة ، لأن هذا العمق يستلزم تطور المفاهيم والادراك بما يجري الآن في عصرنا من منجزات علمية هائلة ، تحتاج الى متخصصين لهم اطلاعات واسعة ، ذلك ان العلم الآن ينطلق كبحر هادر ، حتى ليكاد يكتسح العقول اكتساحاً ، فلا تدري أيها تختار منه ، وأيها تقرأ وتستوعب .

وطبيعي ان العلوم التطبيقية والنظرية والطبيعية تبحث اساساً فيما خلق الله من نظم كامنة في ذرة . . أو في خلية . . أو في مخلوق . . أو في أرض ونجوم وسماوات ، وكلما تقدمت هذه البحوث اكثر ، وتعمقت اكبر ، اظهرت لنا قدرة الله اعظم ، وعندئذ يحق القول الكريم بكل كلمة او حرف فيه ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق﴾

(فصلت . . آية ٥١)، ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ (الروم . . آية ٨).

لقد تناولنا في الفصول السابقة شرح بعض الآيات الدالة على خلق الأزواج أو الزوجين، فكانت الجسيمات أزواجاً، والأكوان أزواجاً، والخلايا أزواجاً، والامشاج أزواجاً، ثم تساءلنا في نهاية الفصل الرابع عن الأمشاج التي من داخل أمشاج، أو الأزواج من داخل أزواج، على حسب ما أشارت إليه الآية ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون﴾ (يس . . آية ٣٦) . . أو آية أخرى ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ (الذاريات . . آية ٤٩) . . إلى آخر هذه الآيات البينات التي تعرضت للأزواج أو الزوجين في مواضع كثيرة، وبمعان عديدة، حتى ولو جاءت هذه المعاني من علومنا الحديثة التي تبحث في طبائع الكون والحياة، فإذا بها تكتشف ما في القرآن من عطاء غير محدود ﴿لقوم يتفكرون﴾.

باختصار شديد نقول ان خلقنا قد جاء خلقاً من داخل خلق من داخل خلق . . وهكذا، فمن الخلايا كانت بدايتنا ونشأتنا، والخلايا في بداية خلق كل كائن جاءت زوجين، وفي داخل الخلية امشاج او كروموسومات او اخلاط، وهذه بدورها جاءت زوجين (انظر شكل ١٥)، ثم اذ بالعلم والبحث العميق يكتشفان ايضاً ان هذه الامشاج بدورها ليست الا خرائط دقيقة غاية الدقة، وانها لن تظهر على حقيقتها الا اذا كبرناها بالمجاهر مئات وآلاف المرات، وعندئذ يتضح لنا ان على هذه الأمشاج او الخرائط او السجلات الوراثية مواقع محددة تبدو كحبات العقود المترابطة، وان هذه «الحبات» قد جاءت بدورها ازواجاً!

لكن . . ماذا تعني هذه «الحبات» او العقد او الخطوط المترابطة، وهي التي نرى منها هنا صورة التقطها العلماء من تحت العدسات، لنطلع على جانب

من بواطن الأمور التي تدق على العيون.. عيوننا؟ (شكل ١٩)
الواقع ان هذه «الحبات» قد جاءت لتكون بمثابة السجلات العظيمة
المدونة في «لوح» الخلية المحفوظ، وكل حبة او سجل منها بمثابة لغة خاصة
جدا، او كأنما هي فقرة محددة في كتاب، فتترجم لتورث المخلوقات واحدة
من صفاتها التي اوجدها الخالق عليها، وحفظها في ﴿قرار مكين﴾!
ولماذا جاءت هذه الحبات او السجلات التي نسميها جينات أو مورثات..
لماذا جاءت على امشاجها ازواجا ازواجا؟.. ثم او ليس هذا تكرارا لا مغنم
من ورائه ولا طائل؟

ليس ذلك تأكيدا، فمن وراء مجيء الجينات زوجين زوجين، ثم انتظامهما
بالآلاف والملايين على الامشاج- دائما زوجين زوجين (شكل ٢٠).. من وراء
ذلك كان اختلاف ألواننا وأصواتنا واشكالنا وطبائعنا وبصماتنا وطولنا
وقصرنا وشكل ولون شعورنا وعيوننا.. وكل صغيرة وكبيرة فينا، وكل هذه
الصفات لا يمكن ان تقوم الا على اساس الزوجين- من البداية حتى النهاية،
وهذا ما اكتشفه العلم الحديث، وهو نفس ما اشار اليه القرآن تلميحا أو
اختصارا.. ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم
وألوانكم﴾ (الروم.. آية ٢٢).. ﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف
ألوانه كذلك﴾ (فاطر.. آية ٢٨).. ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء
فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها﴾ (فاطر.. آية ٢٧).. ﴿ثم يخرج به زرعا
مختلفا ألوانه﴾ (الزمر.. آية ٢١).. الى آخر هذه الآيات التي تشير الى
اختلاف بعض الصفات الظاهرة في كل الكائنات، وطبيعي ان هذه الآيات لا
تعرض للباطن، اذ لم تكن العقول مهيأة لاستيعابه، على أننا لو رجعنا ايضا
الى آيات اخرى، في مواضع متفرقة، لوجدناها تشير الى خلق الزوجين في
الفاكهة والثمرات والأنفس والأشياء، أو من كل ماتنتب الأرض من
مخلوقات، اي ان الأزواج هي المرجع الأول والآخر في تحديد الصفات في

كل ما نرى، وما لا نرى.. ظاهرا وباطنا، فأما الظاهر فمعروف، وأما الباطن فعلىنا بيانه، وعلى قدر ما علمنا، اذ ﴿وفوق كل علم عليم﴾!

لاشك أن للقرآن ظاهرا وباطنا !

وكذلك الخلق.. فله باطن وظاهر، والباطن يؤدي دائما الى الظاهر، او ان الظاهر قد جاء تعبيرا مجسدا لمعلومات عظيمة ودقيقة تكمن في الباطن، وباطن الباطن في خلقنا وصفاتنا يتجلى بطريقة مثيرة في هذه الحبات التي تراصت ازواجا على امشاجها، ثم ان الأمشاج قد جاءت بدورها ازواجا، كما سبق ان اوضحنا، في الفصل السابق.

ولكي نوضح اكثر، دعنا نضرب مثلا ومثلا.

اذا تزوج القزم من قزمة، فلا تنتظر ان تحلفها ذرية من العمالقة، بل لابد ان تكون الذرية اقزاما، نزولا على احكام قوانين الوراثة (لاحظ انها هنا قوانين، لأن القانون لا ينبع الا من نظام دقيق).

الزوج الأشقر، والزوجة الشقراء، ينجبان ذرية شقراء، وكذلك كان للسود ذرية سوداء، وللصفر صفراء.. الخ... الخ.

او قد يتزوج الأسود زوجة بيضاء، او العكس، وعندئذ تأتي المواليد بنسب متفاوتة بين الأسود والأبيض، اي منهم البيض، ومنهم السود، او ما بين ذلك تأتي المواليد.

او قد يتزوج الرجل السليم بزوجة تحمل مرضا وراثيا، او يتزوج الرجل المريض بمرض وراثي من زوجة سليمة، وعندئذ ينتقل المرض، ويعبر عن نفسه في نسبة المواليد، او قد لا يعبر، لأن واحدة من الجينات التي جاءت زوجين، قد تعوض مافسد في الجينة الأخرى.. اي انها هنا بمثابة «قطعة غيار» حية.

وفي هذا المعنى سبقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث شريف . .
«تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»! (شكل ٢١)

وفي هذا الحديث إشارة لا تخفى على لبيب، ذلك ان كلا من الرجل والمرأة يشاركان في الصفات الوراثية بنصيب، ان خيرا فخيروا، وان شرا فشرأ، ولهذا فمن حق كل من الرجل والمرأة ان يختار شريك حياته الخالي من العاهات الوراثية، لأن هذه العاهات تورث للأبناء.

ومن هذا المنطلق أيضا نرى الدول المتقدمة في مضمار الحضارة تجرى كشفا دقيقا على الأزواج لاكتشاف أية عاهات وراثية، لتعلم بها الزوجة او الزوج قبل الزواج، ولهما الحرية بعد ذلك في الارتباط، لكن الأطباء ينصحون بعدم انجاب ذرية في حالات خاصة، والا كانت خلفه هذه الذرية مأساة تشقى الوالدين بدلا من ان تسعدهما.

الموضوع طويل جدا، وكتبت فيه مجلدات من فوق مجلدات، لكن يكفيننا هذه المعلومات البسيطة التي ذكرناها تلميحا لاسهابا، فليس هذا مجالها، تماما كما يلمح القرآن الكريم عن فكرة خلق الأزواج باشارات مقتضبة، حتى يجنب الذين سبقونا بمئات السنين امورا عظيمة فوق ادراكهم، وربما ترك ذلك لأجيال قادمة او حاضرة، ليروا فيها علوما اصيلة، وهو ماسبق الإشارة اليه بآية نذكرها هنا مرة اخرى ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾! لقد كان أول من كشف لنا عن سر قوانين الوراثة بطريقة تجريبية منظمة رجل دين مسيحي يدعى جوهان مندل (١٨٢٢-١٨٨٤)، ثم سمي فيما بعد بالأب جريجوري . . المهم انه درس الصفات الوراثية لنبات البازلاء، واستمر في بحثه سنوات طويلة، يحدوه الصبر والثقة وحب الكشف عن الأسرار الكامنة وراء هذه الظواهر التي يراها مجسدة في ألوان وزهور وحبوب وأوراق وغير ذلك من صفات، ولم يخرج مندل ببشائر قوانين الوراثة الا بعد ان قام بفحص اكثر من اثنتي عشرة ألف عينة من العينات التي كان يزواج بينها،

ويسجل صفاتها وصفات ذرياتها جيلا من وراء جيل من وراء جيل . .
وهكذا . .

كان مثلا يزاوج بين نبات ذي زهور حمراء مع آخر ذي زهور بيضاء، أو بين نبات ذي بذور مستديرة وآخر ذي بذور كلوية أو مستوية أو مجمدة الشكل، أو بين نبات طويل، وآخر قصير. . الخ، . . الخ، ثم يسجل صفات الأجيال الجديدة، وكيف تتخلى عن بعض صفاتها، أو تحافظ عليها، أو تأتي الصفات معبرة عن كلا «الأبوين»، أو قد تبقى الصفة الوراثية كاملة لأجيال، ثم تراها تعبر عن نفسها بعد طول غياب، وهو ما يحدث أيضا في عالم البشر، إذ قد يأتي الوليد بعينين زرقاوين، رغم أن عيون والديه لا تحمل هذه الصفات، لكنك لو بحثت في سجلات الأجداد، لوجدت أن صفة العيون الزرق كانت موجودة في جدود الأم، أو جدود الأب، ثم ظلت هذه الصفة محجوبة، إلى أن عبرت عن نفسها بعد أجيال طويلة.

المهم أن مندل كان فعلا مؤسس علم الوراثة، لكن أحدا لم يكتشف هذه الحقيقة إلا بعد أن مات مندل بسنوات طويلة، إذ تبين أنه يمكن التنبؤ ببعض صفات الأجيال من خلال قوانين الوراثة ومعادلاتها، لكن كل هذا قد لا يهمنا هنا في موضوعنا بقدر ما يهمنا أن نعرف باطن هذا الظاهر، وحكمة وجود الحبات أو العقد الوراثية على الامشاج أزواجا.

* * *

الواقع أن مضمون كل صفة من صفات المخلوقات تكمن بطريقة خاصة في هذه الحبات، فالحبة هنا بمثابة معلومة «مكتوبة» بعناصر هذه الأرض، ولن نتعرض لهذه الحقيقة هنا الآن، وسنؤجلها لفصل قادم، لأن «الكتابة» الكيميائية هنا قد جاءت أيضا على أساس فكرة الزوجين! ولقد جاءت هذه الجينات أزواجا أزواجا في الإنسان وكل الكائنات، لا يختلف في هذا القرد عن الباذنجان عن الحية عن الدودة والسبانخ والتفاح . .

الخ ، فكلها نشأت بفكرة واحدة، لأنها جاءت من خالق واحد، ولو كانت من عند آلهة متعددة، لوجدنا فيها اختلافا كبيرا، لكننا نرى تجسيد الوجدانية في وحدة الخلق العظيم.

وسبب مجيء الجينات او الخطط الوراثية أزواجا أزواجا، أن لها أصلا واساسا، فلا شيء يأتي من لا شيء، اذ مما لاشك فيه ان جينة او خطة منها جاءت من الانثى، ومثيلتها تماما جاءت من الذكر، ثم ان الذي يحدد صفات الانسان ويميزها عن صفات اي كائن حي آخر في مملكتي النبات والحيوان هي مجموعة هذه الجينات التي تكون قاموسا مستقلا على ادق ما تكون القواميس، أو قل انه «الميكرو فيلم» الذي يحوي كل التفاصيل التي يمكن ان يأتي بها الكائن الحي الى الحياة.

وطبيعي ان هذه الجينات مرصوصة على كل كروموسوم ونظيره بنظام مذهل. . . وكأنما هي بمثابة خطوط التشغيل التي نعرفها في عالمنا، واسمها في المراجع الجينات، مفردتها جينة (Gene) ثم ان الجينة تعني وحدة الوراثة، او المورثة التي تورثك صفة واحدة محددة، ويقدر علماء الوراثة ان خلق كل صغيرة وكبيرة في الانسان تهيمن عليها ما بين عشرة آلاف الى خمسين الف جينه، وفي تقدير آخر مائة ألف جينة، وهذا في الواقع تقدير جزافي، لأننا لم نعرف العدد بالضبط، لكن معظم المراجع العلمية تقدرها بمائة ألف جينة!

لنفرض هنا ان خلية الانسان تحتوي على مائة الف جينة او مورثة، عندئذ، ومن عملية حسابية جد بسيطة يمكن القول بأن نصفها - اي ٥٠ ألف جينة - لابد وأن تكون قد جاءت من خلية جنسية انثوية (البويضة)، والخمسون ألف جينه الأخرى لابد وان تكون قد جاءت من خلية جنسية ذكورية (الحيوان المنوي)، وفي هذه الآلاف من الجينات تكمن صفات الأم وصفات الأب أزواجا أزواجا، وجنبا الى جنب في نواة كل خلية جسدية، واحيانا ما تعبر جينة من الأب عن نفسها تعبيرا يفوق نظيرتها او قرينتها او

مثيلتها في الأم، وعندئذ يكتسب الوليد صفة الأب، او قد يكون العكس، فيكتسب صفة الأم، او قد يشترك الزوجان على مستوى الجينات في التعبير بالتساوي عن صفة من الصفات، فيخرج المولود مكتسبا صفة والديه معا، بمعنى ان الأب لو كان طويلا، والأم قصيرة، فان المولود قد يجيء وسطا بين امه وابيه، أو شبيها بذاك وتلك!

وما يجري على الطول والقصر، يجري ايضا على البدانة والنحافة، ولون الشعر والعينين والبشرة، وتقاطيع الوجه، والبصمات، وكل صغيرة وكبيرة مما نرى، ومما لا نرى.

أي أن هذه الأخلاط بين المورثات الكائنة ازواجا على الأمشاج هي المرجع الحقيقي لكل صفة من الصفات، ولهذا نقول في مجال علم الوراثة ان هذه الصفة سائدة، او متنحية (بمعنى انها لا تعبر عن نفسها لتتضح كصفة من صفات المخلوق-انظر شكل ١٦) ومن حصيلة التعبير في هذه الجينات التي جاءت أزواجا أزواجا، يكون قدر المخلوق في الحياة، وفي هذا يقول الله عز وجل ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه﴾ (الانسان . . آية ٢)، وهو تعبير دقيق لعملية خلط المعلومات الوراثية التي تمثل الأبوين ادق تمثيل. على ان عملية خلط الأمشاج في خلق الانسان، او غيره من كائنات، عملية من اروع وادق ما قابله العلماء حتى الآن، اضيف الى ذلك انها مفعمة بأسرار اكبر من كل ما تتصوره عقول البشر، حتى ولو اجتمعت لها لتدركها، وماهي بمدركة إلا بقدر معلوم!

ولكي نوضح ذلك، دعنا نقدم مثلا من الأمثلة التي تتردد في مراجع العلماء، فها هما عالما الخلية والوراثة وليام ماكلروي وكارل سوانسون يذكran في كتابهما «البيولوجيا الحديثة لعلم الخلية» . . انه لو لم تخطط هذه الجينات الكامنة على الكروموسومات، لما اختلفت طبائع الناس كل هذا الاختلاف،

ولولاه أيضا، لأصبحت الوجوه صورة واحدة مكررة، ولما رأينا في البشر تباينا، ولركدت الحياة!

ثم نراهما يضربان مثلا يوضحان لنا فيه عظمة فكرة الخالق في خلقه، تلك العظمة التي لا يقدرها الناس حق قدرها، بدليل قوله تعالى ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ (الانعام . . آية ٩١) . . فماذا قالوا في مثلها الذي استخلصاه من نظم الحياة؟

يقولان: لما كانت الصفات الكامنة في الجينات تختلط أزواجا في عملية الاختصاص، فان احتمالات عدد مرات الخلط بينها يزيد بزيادة عددها، ولنفرض هنا ان الخلية في الانسان كانت تحتوي على الف جينة او مورثة لاغير، وهو تقدير جد متواضع، لكن دعنا نتعامل مع هذا الرقم المتواضع لنرى النتيجة.

النتيجة ان عدد احتمالات الاخلاط هنا ستكون حصيلة الرقم ٢ مضروبا في نفسه الف مرة، والحق ان الرقم الناتج لاشك سيكون اكبر من عدد الذرات الموجودة في كل الأكوان باضعاف مضاعفة! يعني هذا ان تكرار ظهور انسان شبيه بانسان آخر شبيها مطلقا غير جائز الا مرة واحدة في بلايين بلايين بلايين بلايين . . وأضف من بلايين الاحتمالات بعد ذلك ما تشاء، فالرقم اكبر مما تتصوره عقول البشر (شكل ٢٢).

هذا فقط هو ناتج الاخلاط بين ألف جينة، فما بالنا لو كانت هذه الاخلاط تتم بين مائة الف جينه جاءت من زوجين (أي ذكر وأنثى)، لتختلط وتعطي مولودا ليس كمثله شبيه؟ هذه الأكداس الهائلة من المعلومات التي تتبادلها الجينات أزواجا أزواجا تجعلنا نحني عقولنا خشية وخضوعا، لكن مهما خشعنا، فلن نقدر العظمة الإلهية حق قدرها.

ومع ذلك نرى الله سبحانه وتعالى يعبر عن الخلق أروع وأبسط تعبير فيقول ﴿وما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة﴾ (لقمان . . آية ٢٨) . . وقوله ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ (الملك . . آية ٣) . . ومن يدرس الكائنات الحية، سوف يجد في اختلاف اشكالها وانواعها واحجامها والوانها وطبائعها وضخامة اعدادها ما يجعله يتوه، فلا يكاد ينتهي من حصرها (اكثر من مليوني نوع)، ومع ذلك فهي جميعا جاءت من فكرة واحدة لا تفاوت فيها ولا تباين . . فهي تبدأ كلها من خلية، في داخلها نواة، في داخلها امشاج، في داخلها جينات، وكلها جاءت أزواجا أزواجا . . وماذا بعد؟ . . ألم ننته حقا من هذه الأزواج التي في داخل أزواج فأزواج . . الخ؟

الواقع اننا انتهينا هنا بوحدة الوراثة او المورثة او الجينة، لكنها ليست خاتمة المطاف، صحيح انها جاءت أزواجا على الأمشاج التي كانت بدورها أزواجا، لكن في داخل الجينة او المورثة بنايات أدق وأدق، ولقد جاءت بدورها أزواجا .

﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، وما لا يعلمون﴾ . فهل كانوا حقا يعلمون أو تعلمون؟
ثم ان ماخفي كان اعظم، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ .
دعنا اذن نفتح صفحة جديدة في باب آت مستقل، لنعلم ما لم نكن نعلم
﴿وما أوتيتم من العلم الا قليلا﴾ . .

الفصل السادس

ومن « الشرائط » المسجلة أزواجاً !

الفصل السادس

ومن « الشرائط » المسجلة ازواجاً !

في منتصف القرن العشرين، وبالتحديد في عام ١٩٥٢، ازاح اثنان من العلماء الأذكى الغشاوة التي كانت تخيم على عيوننا، وتحجب عن عقولنا سرا غاليا من اسرار الحياة، وبهذا الكشف الكبير تجلى لنا بديع صنع الله ﴿الذى أتقن كل شىء﴾ (النمل . . آية ٨٨).

لقد اكتشف هذان العالمان - اللذان يعملان في تخصصين مختلفين - «اللغة» السرية التي تستخدمها الحياة في كتابة قواميسها ومجلداتها، نعى مخلوقاتنا التي لانكاد نحصيها عدا . . بداية من الميكروب الذى لاتراه العين، حتى الانسان العظيم.

العالمان هما جيمس واطسون المتخصص في علم البيولوجيا، وفرانسيس كريك المتخصص في الفيزياء الكيميائية، ولقد استحقا على هذا الكشف المثير جائزة نوبل، ثم تبعهما في هذه الكشوفات الضخمة عدد كبير من العلماء، استحق معظمهم ايضا هذه الجائزة العالمية بسبب ازاحة الغموض عن ارواح اسرار الحياة على الاطلاق، وكأئنا العلماء هنا قد وقعوا على «حجر رشيد» من نوع جديد - هو «حجر رشيد» الحياة، وعليه دونت لغاتها على اشربة غريبة غاية الغرابة، وبسطة غاية البساطة، واستخدمت لذلك شفرة سرية، حروفها اربعة لاغير.

وبمثل هذه الحروف التي لايتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة، كان

كل هذا الطوفان الهائل من المخلوقات الذى ينتشر برا وبحرا وجوا، وتصل انواعه الى الملايين، غير ما انقرض واندثر.

بحروف اربعة كانت بداية كل شىء حى، وعندئذ وقف العلماء مبهورين، ولهذه البساطة فى الفكرة غير مصدقين، ومع ذلك فقد تاهوا فى هذه البساطة، وتحيروا فى تلك الأسرار الضخمة التى يزخر بها «قاموس» الحياة، وكما وضع الله فكرتها فى مخلوقاته!

والواقع ان هذه الدراسات سوف تبرز جلال الله من خلال ابداعه فى مخلوقاته، وعندئذ قد تتجلى لنا بشىء من العمق معنى بعض تلك الآيات التى قد نمر عليها مر الكرام، وفيها يقول سبحانه وتعالى ﴿ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت﴾ (الملك . . آية ٣) . . ﴿الذى احسن كل شىء خلقه، وبدأ خلق الانسان من طين﴾ (السجدة . . آية ٧) . . ﴿فلينظر الانسان مم خلق، خلق من ماء دافق﴾ (الطارق . . آية ٥-٦) . . الى آخر هذه الآيات التى تشير الينا تلميحا بما فى الخلق من امور جاءت على اساس، وسارت بقانون، وفيها ﴿آيات لقوم يوقنون﴾ (الجاثية . . آية ٤).

ومع ان ما توصل اليه العلماء فى الربع الثالث من القرن العشرين، (وهو الذى يختص بكشف اسرار شفرة الحياة) يفوق ما توصل اليه كل الأقدمين باضعاف مضاعفة، ومع ان لغة الحياة المكتشفة لغة خاصة جدا، وبسيطة جدا، ومثيرة جدا، مع ذلك فهى توضح ما فى بعض آيات القرآن من اشارات وتلميحات وأسرار لاتتجلى على حقيقتها الا بتقدم الاكتشافات العلمية فى كل المجالات، بداية من الذرة والخلايا والمخلوقات، الى الأرض والنجوم والسموات.

والواقع ان العلم هنا - وبالنسبة للانسان - علم نسبي، بمعنى ان كل ما نتعرض له هنا بالشرح والتوضيح لفكرة خلق الأزواج التى «لا يعلمون»، هى مما لا يعلمه الناس، ولا علماء الدين، ولا المثقفون، انما هى أزواج يعرف

العلماء التجريبيون بعض اسرارها، وكلما تقدم بهم الزمن، وتطورت مداركهم، وزادت في اسرار الكون والحياة كشوفاتهم، كلما عبرت الأزواج التي «مما لا يعلمون» عن نفسها!.

ولكى نوضح اكثر نقول: لقد كان العلماء في القرون الماضية يتعرضون لشرح الأزواج التي وردت في آيات القرآن الكريم شرحا يتناسب مع عصرهم، ومع ما يتوافق مع علمهم، وكان هذا الشرح ينصب على ماهو ظاهر للعين والحواس، اى الأزواج من البشر والحيوان والنبات «مما تنبت الأرض، ومن انفسهم»، وعندئذ تقف اجتهاداتهم عند هذه الحدود، فلا يستطيعون تخطى حواجزها، لأنهم لا يملكون حواسا غير حواسهم، لتكشف لهم ما خفى عليها مما وقر في باطن الخلق من اسرار، ولو عرفوها لشرحوها، ولأثروا جمهرة المسلمين بالعطاء العظيم الذى تنطوى عليه آيات القرآن الكريم.

لكن الأمور بدأت تتضح وتتطور، خاصة بعد ان توصل الانسان الى اختراع «عين» قوية تساعده على اكتشاف ما غاب عن أعين السابقين، وبهذه العين - عين المجاهر أو الميكروسكوبات - تجلت له نظم الخلق، فرآها نظاما من داخل نظام من داخل نظام، وهكذا، وطبيعى انه كلما كانت العين المجهرية اقوى، جاءت الأسرار تترى، وظهرت للانسان من آيات ربه الكبرى، ما جعلته يوقن بان الله فى كل خلق يتجلى، بداية من اعلى الى اقل مستوى، والواقع انه ليس هناك - فى الخلق - ماهو اقل او اعلى، فكلما صغر الشئ امام عيوننا، فذلك لايعنى انه ضئيل المستوى، بل الأخرى بنا أن نلوم عيوننا وحواسنا، ففى صغائر الأمور نظم تتوه فيها اعظم العقول. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾!

* * *

من هذا المنطلق - اذن - نعود لنقول: ان علماء القرن الماضى رأوا بعيون

المجاهر ما لم يره العلماء فى القرون الماضية (لأنهم كانوا بدون مجاهر)، ثم يحىء علماء بداية القرن العشرين ليروا أكثر، لأن المجاهر الأحداث والأقن كانت توضح التفاصيل أعظم وأكبر، وهنا بدأت الأزواج الخافية فى النظم التى تقع فيما وراء حدود عيوننا تظهر وتتجلى، ولا بد -والحال كذلك- ان يكون الاجتهاد فى تقديم العطاء القرآنى انضح، وتفسير ما لم نكن نعلم قبل ذلك اوفق واوضح .

ثم يحىء المجهر او الميكروسكوب الاليكترونى ليكبر ما عجز عنه المجهر العادى، ويقدم لنا هذه العوالم الخفية بتكبيرات تصل الى عشرات الألوف أو مئات الألوف من المرات، ومع ان هذه التكبيرات كانت هائلة جدا، الا ان العلماء لم يصلوا فى النظم الى نهايتها، ولن يصلوا ابدا، فكلما اكتشفوا نظاما او نظما قليلة، تفتحت لهم منها اسرار جديدة وكثيرة، وها نحن الآن نقف على بحر من المعلومات ليس له من قرار، وكأنما نحن لم نحصل منه الا على قطرة، لا تشفى غليلنا الى المعرفة، فلا زالت الأسرار تدثر نفسها بمزيد من الأسرار، ومن هنا نستطيع ان نقول «وما لا يعلمون» . . اذ كلما علمنا، احسبنا كم كنا جاهلين، وهكذا نعود لنقول: ان العلم نسبى، وان المعرفة نسبية، وانه ستبقى امامنا دائما بحور مما لا نعلم، وهذا يعنى اننا لن نصل الى جوهر الحقيقة ابدا، ولو وصلنا، لقلنا: نعم . . نحن نعلم، لكن من ظن انه قد علم، فقد جهل، ﴿وفوق كل ذى علم عليم﴾ (يوسف . . آية ٧٦) . . وهذا يعنى حتما ان الأمور نسبية، لأن هذا الجزء من الآية لو استمر هكذا فى وصفه، اى ﴿وفوق كل ذى علم عليم﴾، فانه سيقودنا الى اللانهاية . . الى المطلق، واللانهاية او المطلق لله وحده.

وما نظن اننا بهذا قد خرجنا عن موضوعنا الذى يتناول اسرار الأزواج، لكننا اردنا ان نمهد لموضوع اعظم واعمق، لأن الأزواج التى كشف عنها العلم الحديث - اى فى بداية الربع الثالث من القرن العشرين أو ما بعده

بسنين (١٩٥٢ حتى الآن) - هى لب هذه الدراسة، وفيها سنكشف عن الأزواج التى عجزت عن اظهارها «عيون» المجاهر الاليكترونية، رغم ضخامة تكبيرها.

فالمجهر الاليكترونى قد اوضح لنا بالصور الدامغة ان خلايا المخلوقات تحتوى على اشربة دقيقة غاية الدقة. . اشربة لايزيد عرضها عن عشرين «انجستروم»، هذا والانجستروم وحدة من وحدات القياس فى هذا العالم الدقيق، وهو يساوى جزءا من عشرة ملايين جزء من المليمتر، أو بمعنى آخر نقول: ان عرض هذا الشريط لايزيد عن جزءين اثنين من مليون جزء من المليمتر، ولهذا فهو بهذه المقاييس يقع فيما وراء حدود خيالنا، ودعك اذن من قصور عقولنا (شكل ٢٣).

لكن.. ماذا تحوى هذه الأشربة الدقيقة من تسجيلات؟
الواقع انها بدورها تحتوى على ازواج من الشفرات من وراء ازواج من وراء ازواج.. كرر هذا ملايين المرات!
وما طبيعة هذه الأزواج؟

انها من تراب هذه الأرض، أو من بعض عناصرها الصالحة لأداء هذه المهمة الجليلة، لتقوم على اكتافها حياة كل المخلوقات، وكأنا نعود بهذا الى الآية الكريمة التى اشارت منذ زمن طويل الى هذه الحقيقة. . ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً﴾ (فاطر. . آية ١١). ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ (الروم. . آية ٢٠).

لكن دعنا الآن من هذه الأزواج التى جاءت من عناصر الأرض، اذ لنا معها عودة، لكن بعد ان نلقى نظرة على طبيعة ادق شرائط كشفها لنا المجاهر الاليكترونية.

* * *

لو انك القيت نظرة عابرة على بعض الصور المنشورة هنا، لوجدت بينها

خيوطا دقيقة، لكن الميكروسكوب الاليكترونى لا يستطيع لها توضيحها، فحدوده لاتمكننا من رؤية عوالم اخرى داخل هذه الخيوط -اى شرائط الحياة الغامضة، ولا بد من البحث عن وسائل اخرى لترينا ما لا عين رأيت، حتى ولو كانت العين اليكترونية!.

والسؤال الآن: من اين جاءت هذه الخيوط أو الشرائط؟ جاءت من وحدات الوراثة أو الجينات أو المورثات التى انتهينا من تقديمها فى الفصل السابق، فبخلاف الأزواج التقليدية المعروفة (اى الذكر والأنثى)، توجد ازواج اخرى كثيرة، لاتراها عيوننا، فالحلايا الجنسية تحبىء زوجين، والنطفة الذكرية تحوى من الحيوانات المنوية الزوجين: اى منها الذكر والأنثى، والخلية تحوى الامشاج أو الكروموسومات، وهى ايضا على هيئة زوجين، والأمشاج تحتوى على صفوف متراصة من وحدات وراثية أو جينات، والجينات جاءت بدورها على هيئة زوجين.

ومن هذه الجينات نبدأ سؤالنا: وماذا تحوى هذه الجينات من مكونات؟ الواقع ان كل جينة بمثابة معلومة مستقلة، لتورث الكائن صفة محددة، وبفحص هذه الجينة، أو أية جينة اخرى تحبىء من انسان أو حيوان ونبات، بفحصها وتكبيرها يتضح انها تتكون من شريط قد يفرد او يطوى، فاذا اريد من هذا الشريط ان ينفذ خطته الوراثة استقام واستطال كخط تشغيل دقيق، فلا نكاد نراه، واذا انتهى من عمله، طوى نفسه، وظهر على المشيخ كحبة او عقدة جد صغيرة، وطبيعى ان الخلية تحتوى على آلاف وعشرات الآلاف من هذه الجينات، ولهذا نراها متراصة كحبات من وراء حبات، ومن كل حبة زوجين!.

ولنقدم الآن جينة أو مورثة غير مطوية، عندئذ ستبدو لنا على هيئة شريطين يحتضن احدهما الآخر، أو كأنهما مجدولان كضفيرة دقيقة، وأحيانا ما تأتى الضفيرة على هيئة «زوجين» يجمع بينهما «فراش» بروتينى خاص، ثم قد

تتكرر فكرة الزوجين مرة ثالثة، فيلتف كل زوجين بزوجين! (شكل ٢٤ ا، ب)

وماذا يعنى هذا حقا؟

يعنى انها ازواج، ملتفة بازواج، ملتفة بازواج، ويعنى اكثر اشارة القرآن الكريم الى حقيقة الخلق فى الآية الكريمة ﴿ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾، أو إذا اردت ان نذكرك مرة اخرى بالآية العظيمة ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن انفسهم، ومما لا يعلمون﴾، فلا بأس بذلك، فما اكثر مالا نعلم من اسرار الخلق التى عرضنا عليك منها قشورا او لمحات عابرة، لأن المجال هنا لايسمح بغير ذلك.

* * *

اننا - فى الواقع - امام بنك هائل من بنوك المعلومات التى تحتفظ بأسرارها فى شرائط من وراء شرائط، فاذا اشتغلت هذه الشرائط فى الخلايا الحية، جاءت «انغامها» على هيئة طوفان من «معلومات» أو خطط كيميائية، فاذا بكل شىء يسرى بابداع لانرى فيه خللا ولا فروجا، اذ كيف يأتيه الخلل، وهو من صنع حكيم خبير؟.. اصف الى ذلك ان هذه الخطط هى التى تشكلك وتشكلنى وتشكل كل انسان، وتهيمن على كل نبات وميكروب وحيوان، من أول ظهور الخلق، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولقد كشف لنا فريق من أعظم علماء العالم من اسرار هذه الاشرطة المجدولة مالا يمكن ان تعيه العقول البشرية، أو حتى الاليكترونية، ففيها -كما ذكرنا- سجلات لملايين فوق ملايين من الصفات والعمليات الكيميائية والحيوية التى تعجز عنها كل معامل العلماء فى الكرة الارضية، ونحن هنا لانبالغ، إذ ان جزيئا بروتينيا واحدا من آلاف الأنواع التى تحتويها اجسامنا، هذا الجزىء قد يجهد اعظم العلماء صبورا، حتى يتمكنوا من فك الغازه

الدقيقة بعد سنوات طويلة، لكن هذه الأشرطة عندما تعطى الأمر، فإن هذا البروتين يصبح جاهزا بعد ثوان معدودات، إذ لو حدث الخلل، لجاء المرض، وتراكم الخطأ، فيؤدى الى الموت، ذلك ان الحياة لا تحتمل الفوضى ولا الأخطاء.

لكن . . ما دخل البروتينات هنا بالأشرطة الوراثية التى جاءت ازواجاً؟ له دخل . . لأن خطة تصنيع هذه البروتينات موجودة على الجينات . . وكل جينة مكلفة بتصنيع بروتين او انزيم محدد (والانزيمات هى الخمائر التى تدير كل العمليات الحيوية داخل اجسامنا) . . ثم ان الجينة عبارة عن شريط ملفوف ومكدس فى حيز ضيق غاية الضيق، وهذا- فى الواقع- مبدأ اقتصادى بديع، اذ تكمن فيه فكرة تكديس اعظم كم من المعلومات، فى اضيق حيز داخل نوى خلايا الكائنات . . فاذا احتاجت حياة الخلية الى انزيم او بروتين خاص، انفرد الشريط المطوى فى جينته، وعندئذ يطبع على ذاته شريطا آخر (يسمى بالشريط المبعوث أو الرسول) . . أى كأنما هو يعطى امر الطبع والتصنيع على شريط مبعوث، وعلى المبعوث خطة محددة لتجميع الأحماض الامينية الموجودة بالملايين فى ساحة الخلية بنظام خاص، وتشبكها واحدة بجوار الأخرى، فينتج عن ذلك بروتين أو هرمون او انزيم (شكل ٢٥) . . ولكل واحد من هذه المركبات رسالة محددة فى الحياة . . اصف إلى ذلك ان البروتين الواحد قد يحتوى على عشرات أو مئات الأحماض الامينية المتشابهة بنظام قدر تقديرا دقيقا، لأن وضع اى حامض امينى مكان حامض آخر من بين العشرات أو المئات يعتبر خطأ لا يغتفر، ولو حدث، لأدى ذلك الى توقف عملية فى حياة الخلية، أو هو ما نعبر عنه بالأمراض الوراثية، لأن المرض الوراثى ناشئ اساسا من خطأ طفيف فى جينة من الجينات . . والمعروف ان الأمراض الوراثية كثيرة . . وعلى حسب نوع الخطأ، يكون المرض! . ومن الناس من يعتقد - عن غير علم - ان الانسان خلق قائم بذاته، ولا

تربطه بالكائنات الأخرى اية علاقة وراثية أو فسيولوجية، أو ماشابه ذلك، وذلك اعتقاد خاطيء. . صحيح ان الانسان مختلف ظاهرا عن الكائنات الأخرى، لكنه مشترك معها في جوهر الفكرة، والفكرة تكمن في الشرائط الوراثية التي جاءت ازواجاً. . ثم انك لو حصلت على جزء من شريط وراثي من فيروس أو ميكروب أو حشرة ونبات وحيوان وانسان (شكل ٢٦) فانك لاتستطيع ان تفرق بين هذه الأشرطة وتلك، اذ لها نفس السمك والتكوين والشفرة وما شابه ذلك. . لكن عندما تشتغل هذه الأشرطة في الكائنات، فانها تترجم معلوماتها الى أوامر كيميائية معقدة اشد ما يكون التعقيد، وبهذه الأوامر المذهلة يصبح الانسان انسانا، والحمار حمارا، والبادنجان بادنجانا، والميكروب ميكروبا، الى آخر هذه القائمة من ملايين الأنواع.

ثم ان معظم العمليات التي تجرى في داخل الكائنات الحية متشابهة، فعندما تعطى جينة في شريط الميكروب أمرا بتصنيع انزيم او خميرة ليهضم اللحم ويفككه الى احماضه الامينية، فان نفس الشيء يحدث في خلايا امعائنا، اى انها تفرز نفس الانزيم، ليهضم اللحم كما يهضم الميكروب. . ثم ان احتراق السكر في اجسامنا يسير بنفس الانزيمات التي تسرى بها حياة الكائنات. . وسر على هذا الطريق في آلاف العمليات الكيميائية الأخرى، تجد ان وحدة الخلق سارية على كل الكائنات، بما في ذلك الانسان!.

لكن. . ماذا تحوى هذه الأشرطة الغريبة التي نراها هنا كصفائر مجدولة (انظر شكل ٢٤) او كسلام حلزونية ذات درجات من فوق درجات؟ . انها تحوى شفرة الحياة ذات الرموز الأربعة، ومن هذه الرموز نشأت قواميس الحياة في كل المخلوقات، فانت «قاموس» أو كتاب مكتوب، وانا ايضا قاموس يختلف عن قاموسك، لأن شفرتي غير شفرتك، ودليلنا على ذلك ان جسم كل انسان لايقبل اى عضو من انسان آخر، اللهم الا اذا محونا «الذاكرة» البروتينية للجسم، حتى لايعرف الفرق بين عضو فيه، أو عضو

غريب عليه ، لأن اجسامنا تعرف عشرات الالوف من انواع بروتيناتها، فاذا حل بها بروتين واحد غريب، حدثت الكارثة، واعلنها الجسم حربا على الدخلاء، فاما موت، واما حياة.

اذن، فكل شيء مقدر ومحسوب ومكتوب «بمداد» من عناصر هذه الأرض، وهو مداد غريب جدا، وثمانين جدا، ولقد عزله العلماء، وحللوه في معاملهم تحليلا دقيقا.. فماذا وجدوا؟.

وجدوا ما لم نكن نعلم، لكن عندما علمنا ما لم نعلم، زادت آيات القرآن في عقولنا ضياء، فلقد تبين ايضا ان شفرة شرائط الحياة قد جاءت هي الأخرى ازواجاً ازواجاً!

ولكى يتضح لنا المعنى اكثر، كان لزاما علينا ان نفرّد لذلك فصلا مستقلا لنعلم ما لم نكن نعلم!.

الفصل السابع

ومن شفرة الحياة أزواجاً !

الفصل السابع

ومن شفرة الحياة أزواجاً

﴿قل سيروا في الأرض، فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ (العنكبوت. آية ٢٠)
﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً﴾ (فاطر. آية ١١)
﴿إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه﴾ (الانسان. آية ٢) ...
﴿ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ (الذاريات. آية ٤٩)
﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعملون﴾ (يسن. آية ٣٦)

* * *

لو أننا ألقينا نظرة فاحصة على هذه الآيات البينات، لرأينا انها تتحدث عن الخلق، وتقدمه لنا فى اشارات وتلميحات سريعة ومقتضبة، فتارة تأمرنا بضرورة البحث عن بدايات خلق الحياة، لأنها قد تقودنا الى بديع أسرار الله، ونعرف منها كيف قامت على اساسها كل انواع المخلوقات، وتارة اخرى يأتى ذكر النطفة التى من التراب، والتى خلق منها الأزواج، وفى موضع ثالث يلمح القرآن بخلق الانسان من نطفة امشاج - اى اخلاط - وفى آية رابعة يشير الى أن الله قد خلق من كل الأشياء زوجين، علنا ندرك قدرة الله وحكمته فيما اقام من الأزواج، التى تنبت الأرض، والتى نراها فى الانفس، ومما لانعلم.

وهناك آيات كثيرة تشير الى ان النطفة من زوجين، أو ان الخلق جميعا - ما

نعلم وما لانعلم - قد نشأ على فكرة الأزواج او الزوجين، ولو أننا اجتهدنا ونظرنا وتعمقنا في القصد من هذه التلميحات او الاشارات، لكتبنا فيها مجلدات من فوق مجلدات، ذلك ان الربط بين حصيلة العلم الحديث وبين ما اشارت اليه هذه الآيات المقتضبة، هي ضرورة من ضروريات هذا العصر، لأن الخلق قام على حكمة، وسار بنظام، وسرى بقانون، والله يحضنا على تقصى الحقائق، فذلك هو سبيلنا إلى كشف ما في أكوانه المترامية من آيات ﴿لقوم يوقنون﴾ . . . ﴿لقوم يتفكرون﴾ . . . ﴿لأولى الألباب﴾ . . . إلى آخر هذه الإشارات التي تأخذ بيدنا إلى كل ما هو طيب وجميل وبديع .

وفي الفصول الستة السابقة التي قدمناها، رأينا كيف كان عطاء العلم غير محدود، وان التلميح القرآني بذكر خلق الزوجين ليس مقصورا على الانسان ولا على الكائنات، بل هو أعمق مما نتصور- المهم أننا في هذه الفصول قد المحنا الى كيفية خلق الجسيمات ازواجاً، والأكوان ازواجاً، والخلايا ازواجاً، والأمشاج ازواجاً، والجينات او المورثات ازواجاً، وعندها- اى المورثات- قد توقفنا، لنفتح هنا باب اسرار الخلق، وننظر من خلاله الى اكون ادق وأدق، فنرى الأزواج تعبر عن نفسها مرة أخرى، وكأنما هي تحتضن بعضها مثنى مثنى، لتقدم لنا تجسيدا حيا لأعظم واروع لغة في الكون على الاطلاق . . صحيح ان هذه اللغة ليست مقروءة ولا مسموعة، لكنها في «الواحها» او شرائطها محفوظة، فاذا دارت وأمرت ونفذت، كنت انت وانا وغيرنا من كل الخلائق . . المنظور منها وغير المنظور . . !

* * *

لكن ماذا تعنى لغة جاءت ازواجاً ازواجاً؟
انها لغة الـ«ا. ث. ج. س» .!
والى هنا قد تتناكب حيرة وتساؤل: هل هي احاجى وطلاسم والغاز، ام انها بعض شطحات العلماء؟

ليست فى الواقع كذلك، فنحن امام كون عظيم، او قل ان خلية حية واحدة من خلايا جسد الانسان تحتوى على «بنك» من هذه المعلومات، او قل انها مكتبة كبيرة قد تكدست فيها كل اسرار الخلق التى تبدو لنا على هيئة كنز ثمين، تهون بجواره كل كنوز الأرض، ما ظهر منها وما خفى .
فهذه الشفرة - أ، ث، ج، س - تراها منتشرة فى كل المخلوقات، بداية من الفيروس والميكروب، إلى الدودة والحشرة والحوت والباذنجان والملوخية والحمار والقرد والانسان. !.

يعنى انه لا يمكن لكائن حى - نعرفه على وجه الأرض - ان يقوم ويحيا بدون هذه الشفرة ذات الحروف او الرموز الأربعة، فهي ببساطة عمدة الحياة التى وضعها الخالق كلغة موحدة بين ملايين الأنواع، ولهذا فالمخلوقات كلها سواء بسواء، إذ جمعت بينها أ، ث، ج، س، ووحدت شفرتها، رغم اختلاف اشكالها والوانها وانواعها وسلالاتها. !.

ومن المؤكد ان هذه الرموز ليست لغة سماوية، بل تاكيدا لغة ارضية، وهى بالتحديد جاءت من عناصر التراب، ثم انها تنشأ من التراب، والى التراب تعود، ثم تبعث، وتعيش وتموت وتعود. . انها حياة من تراب، وتراب من حياة، وهكذا تتكرر الدورة ملايين وراء ملايين من المرات، وربما كان ذلك مصداقا لقوله تعالى ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدأ علينا إنا كنا فاعلين﴾ (الأنبياء . . آية ١٠٤) . . ﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ (يونس . . آية ١٩) . . ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده، ثم إليه ترجعون﴾ (الروم . . آية ١١) . . ﴿الذى أحسن كل شىء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ (السجدة . . آية ٧) . . الى آخر هذه الآيات البينات التى تشير إلينا من طرف خفى، وكأنما هى تحمل فى معناها كيف ان البداية تصير الى نهاية، والنهاية تتحول الى بداية، وفى هذا يكون خلود الكون بدون حدود، «ولكن أكثر الناس لا يعلمون». !.

* * *

على اننا سنأخذ هذا الجزء الأخير من الآية، ليكون لنا بداية.. نعى
«وبدأ خلق الإنسان من طين».

فالفكرة الساذجة عن الخلق تتصور ان الله سبحانه وتعالى قد اتي بقطعة
من الطين، وصاغها على هيئة جسد من بشر، ثم نفخ فيه من روحه، فاذا هو
قائم يسعى، لكن هذا التصور البدائي سوف يفسح الطريق ويتوارى امام
فكرة الخلق التي دفع الله الانسان لها دفعا ليتقصى اسبابها، ويعرف
أسرارها، وعندئذ فقط سوف يخشع العقل خشوعا ربما لم يخشعه من قبل..
يخشع لقدرة فذة جعلت من التراب حياة، ولكن بطريقة اخرى غير طريقة
التشكيل التي يفعلها الصبية على شواطئ البحار عندما يلعبون في الرمال،
ومع ذلك فالذين كانوا يتصورون ذلك على حق فيما تصوروا، فعلى قدر
ماتصوروا وعرفوا، قالوا وأفتوا.!

والتراب لا يمكن ان تدب فيه حياة من تلقاء نفسها، بل لابد لهذا التراب
من فكرة ليس كمثلها فكرة، وقدرة لا تدانيها قدرة، ونظام لا يعلوه نظام،
وكل هذا نستطيع ان نقول عنه انه نفحة من روح الله.. اي جزء من نظامه
البديع، الذي اظهره في هذا الجزء من الكون المثير، فما عرف العلماء في
الكون امرا يمكن ان يقوم بغير نظام، خاصة اذا اثبت وجوده لبلايين وراء
بلايين من السنين، وسار بقوة هادرة فيها تجدد وروعة وابداع، وهل هناك
ماهو ابداع من هذا الطوفان الدافق الذي تتجلى فيه عظمة الله، وفيه يقول
«فأينما تولوا فثم وجه الله» (البقرة.. آية ١١٥).. سبحانك.. فأنت المبدع
ذو القوة والجلال والجمال.!

فالأربعة التي وضعها الله في الأشرطة التي جاءت ازواجا من داخل
ازواج، لتصبح شفرة الحياة ولغة خلاياها، لتنشأ منها كل المخلوقات.. هذه
الأربعة أ، ث، ج، س. يتكون كل منها ايضا من انواع اربعة هي: يد، أ،

ك، ن، لتصبح هي الأخرى بدورها بنيات اصغر، داخل بنيات اكبر، لتأتى بعد ذلك ازواجاً، قد تحسبها أنت الغازا.!

فأما الأربعة البسيطة، أى: يد، أ، ك، ن، فهي الايدروجين والأكسجين والكربون والنيتروجين، ولهذا فان حروفنا هذه ليست الا رموزاً لتلك العناصر الأرضية، ولقد تداخلت هذه الأربعة وانتظمت في جزيئات كذلك هي أ، ث، ج، س (شكل ٢٧) وهذه بدورها اختصار لمركبات كيميائية: آدينين، ثايمين، جوانين، سيتوزين، ونحن للأسف لم نجد لهذه الكلمات العلمية مرادفات عربية، ومع ذلك فان العلماء يطلقون عليها اسم القواعد الأربعة الأساسية التي تقوم عليها مفردات «قواميس» الكائنات الحية.

ونحن لانستطيع ان ندخل في التفاصيل، لكن يكفى ان نقدم هنا صوراً واشكالا توضح بعض ابداع الله وتنظيمه فيما خلق، وسترى مثلاً صورة ا، ث، ج، س- كما يتصورها العلماء في جزيئاتها، ثم كيف تنتظم بعد ذلك في سلم حلزوني او مفرد، لكن هذه النظم لها فكرة متقنة، وارتباطات قامت على حكمة سوف تتضح لنا بعد حين.

كل هذا قد لايهمنا بقدر مايهمنا ان نعرف ان القواعد الأربعة الأساسية، او تلك الرموز «السرية» قد ارتبطت- كما تراها في الصور المنشورة هنا- ازواجاً (شكل ٢٨).

فالشفرة أ ترتبط دائماً بالشفرة ث، والشفرة ج دائماً قرينة س، وليس من الممكن طبعاً - لاعتبارات كثيرة - ان «تتزوج» ا مع ج، ولا ج مع ث، ولا س مع أ، ولا أ مع أ، اللهم الا اذا تصورنا ان انساناً قد تزوج مع قرد، او ان ديكاً قد تزوج مع بطة، وطبيعى ان قوانين الحياة المنظورة تمنع ذلك، وحتى لو حدث بطريق الخطأ، فان هذا التزاوج لن يسفر عن شيء على

البويضة الملقحة في رحم أم، فكلما نشأت منها خلية، اخذت معها الثمانية بلايين شفرة لتدير بها شئونها، «وتتفاهم» بها مع ماحولها من خلايا بلغة كيميائية رائعة، تسعد العقول الواعية، وقد تتحول الخلايا الجسدية في الغدد الجنسية الى حيوانات منوية وبويضات، وعندئذ نجد في الحيوان المنوى نصف عدد هذه الشفرات (اي قدر عدد سكان العالم الآن)، وكذلك تكون البويضة، وعندما تختلط البلايين الأربعة لهذه، مع البلايين الأربعة لتلك، يحدث التكامل، وتشتغل الأزواج من ا، ث، ج، س، وتعطى اوامرها، وتكون البداية الحقيقية للجنين الذى يتطور ويتشكل من خلال نظم بديعة لازلنا نتوه فيها، وتحيرنا اعظم حيرة.. لكن هذا موضوع آخر نرانا في حل من التعرض له هنا.

وربما تكون قد مررت على الأرقام الضخمة التى ذكرناها مر الكرام، ولكى نستوعب معناها، كان لابد ان نقدمها بصورة اكثر وضوحا واشراقا، فلو ان رموز شفرة الوراثة فى اية خلية من خلايا الانسان قد تحولت الى شفرات كالتى نستخدمها فى ارسال البرقيات - اى على هيئة شرطة (-) ونقطة (•)، أو تباديلها ومضاعفاتها، فان كتابة هذه الشفرة يحتاج الى عدة مجموعات من دائرة المعارف البريطانية، هذا رغم ان المجموعة الواحدة تحتوى على ٢٤ مجلدا ضخما، اى كأنما نحن بالفعل امام بنك ضخيم من المعلومات الوراثة، او مكتبة يهول العين مرآها.!

لكن كل هذه المعلومات قد كدست وحفظت فى صورة مصغرة لاتكاد عيون الميكروسكوبات الاليكترونية ان توضحها لنا على حقيقتها، ولهذا استعاض العلماء عن هذه العيون العملاقة بوسائل اخرى توضح كيف تنتظم شفرة الحياة فى سجلاتها او مكتباتها ازواجا ازواجا، ولقد عرضنا عليك هنا بعض نماذج لتوضح لك اشكالها (شكل ٢٩)، بعد ان تجسس العلماء عليها،

وتمكنوا من حل ألغازها، والغوص في أسرارها، ولأزالوا يغوصون، حتى كادوا بعقولهم يغرقون.

وقد يراودك الآن سؤال: اذا كان عدد الشفرات الوراثية في الخلية الواحدة بمثل هذه الضخامة، فكم يبلغ طول الأشرطة العجيبة التي تسجل عليها الحياة هذه البلايين الثمانية من الشفرات؟.

يقول بعض العلماء ان طولها جميعا لا يتعدى مترا واحدا لاغير، وفي قول اخر مترين، لكن عرض هذا الشريط العجيب لايزيد عن جزئين اثنين من مليون جزء من المليمتر (٢٠ انجستروم)اضف الى ذلك ان وزن هذا الشريط المثير لايتعدى ١٢ جزءا من مليون مليون جزء من الجرام، اى ان وزن المادة الوراثية التي تعطى الأوامر بتشكيلنا اقل وزنا من وزن نقطة حبر من النقط التي تراها هنا فوق الحروف او تحتها، ومع ذلك «فمكتوب» ومسجل عليها ثمانية آلاف مليون شفرة، لو انها ترجمت بلغاتنا، لأعطتنا مكتبة قد يُفنى المرء فيها عمره، حتى ولو استمر في قراءتها آناء الليل، واطراف النهار.!



اذن فامشاجنا او كروموسوماتنا الستة والأربعون التي تحتويها كل خلية من خلايا اجسامنا ليست في الواقع الا «مخازن» او «ادارات»، ثم اننا نرى عليها- في اطوار خاصة- مايشبه حبات العقود الدقيقة، وقلنا عنها انها الجينات او المورثات، وهذه تأتى على الأمشاج ازواجا ازواجا، ولنأخذ منها جينة واحدة تخصصت في معلومة واحدة، وعندما نفحص مكوناتها بكل الطرق العلمية الحديثة المتاحة، يتضح انها تتكون من شريط واحد تكمن فيه حوالى الفى شفرة، تراصت في نظام كما تراها في الصور هنا، وهذه بدورها قد سجلت على شريط وراثى لايتعدى طوله ثلاثة اجزاء من عشرة آلاف جزء من المليمتر، او ان الشريط الذى يبلغ طوله ملليمترا واحدا لاغير، يكفى

لتسجيل ستة ملايين شفرة، تتقابل ازواج ازواج (أ مع ث ، ج مع س) وتبادل على جانبي الشريط او السلم الحلزوني ايضا ازواج ازواج (سكر مع فوسفات او فوسفات مع سكر... وهكذا)...

وربما يكفي هنا مثال لتوضيح معنى ضالة هذا العالم الدقيق الذى يزخر بملايين وبلايين المعلومات، فلو اننا تصورنا هذا الشريط وقد تضخم مئات الالوف من المرات، فان سمكه لن يزيد على سمك شعرة من الرأس أو الصوف أو الحرير، لكن طوله فى ذات الوقت سوف يصل الى حوالى كيلومتر ونصف كيلومتر، اى لو ان كل الاشرطة الوراثية التى تحمل نظام الشفرة فى خلية واحدة من خلايا اجسامنا، قد امكن وصلها لتصبح شريطا واحدا متصلا يبلغ سمكه سمك شعرة، فان طول هذا الشريط سيصبح فى حدود ثلاثة آلاف وخسمائة كيلو متراً!.

والى هنا قد نتساءل: كيف تهىء أمشاجنا الدقيقة فى أنويتها مكانا لى تضع فيه كل هذه الأشرطة من المعلومات؟.

الواقع ان هناك قوى تسيطر عليها، ونظم توجهها لتجعلها مكدسة ومتداخلة وملفوفة ومضغوطة بطريقة لولبية أو حلزونية كما تراها هنا فى الصورة (شكل ٣٠) وهذه الفكرة -كما نخبرنا العلماء- هى اكفأ الأفكار اقتصادا فى الحيز أو المكان، حتى يمكن ان تستوعب هذا «الميكرو فيلم» العجيب الذى حفظت فيه اسرار الحياة على ادق المستويات، وبفكرة أزواج مرتبطة بازواج جاءت من عناصر اربعة اساسية من اديم هذا الكوكب أو ترابه، لكن بعد ان اتخذت نظاما عظيما صمد للتجربة الكونية صمودا بديعا، فلم تنل منه بلايين السنين، ولن تنال منه ايضا، الى ان يرث الله الأرض ومن عليها.

فمن صفات هذا الجزيء الوراثى الحلزوني العظيم -بجوار النظام والصمود- من صفاته انه يستطيع ان يدور حول نفسه ليصبح مستقيما

كشريط، بدلا من شكله الحلزوني الذى يضغط فيه، اى كانما هو قد تحول الى سلم مستقيم، لينشطر من خلال درجاته أو شفراته أو «ازواجه»، الى شطرين، وكل قرين على شطر، لكن ما اسرع ان يكمل كل شطر نفسه، فتندفع السيئات والثاءات والجيمات والألفات خلال مادة الحياة، وفي كل منها يرتبط السكر مع الفوسفات، لتصبح وحدة شفرة متكاملة (أى أمع سكر مع فوسفات، أو ث مع سكر مع فوسفات . . الخ) وعندئذ تعرف كل شفرة مكانها على انصاف الأزواج المنفصلة، واذ بالانصاف تكتمل، واذا بالأزواج تتضاعف، فيصبح الزوج زوجين، والشريط شريطين، وكل واحد منهما نسخة طبق الأصل من الشريط الذى بدأه أول مرة، دون خلل أو أخطاء، إذ وضع الخالق بحكمته العظيمة الأسس الكفيلة لكى لا ترتبط الشفرة المندفعة - فى طوفان من بلايين البلايين من الجزيئات المتفاعلة - الا بقرينها الذى جاء مناسباً تماماً للارتباط معها، ولهذا يكمل الالف نفسه على الشريط المشقوق بشاء تأتية من مادة الحياة، أو تكمل الثاء المنتظمة على شريطها بالف تأتية من خارجها، وكذلك تفعل الجيم بالسين، او السين بالجيم (اى السيتوزين بالجوانين) . . وبعد ان يصبح كل شىء على ما يرام، ويكون من الزوج الزوجان، تلتف الأشرطة لتصبح حلزونية مرة اخرى (شكل ٣١).

والواقع ان هناك تفاصيل دقيقة، وعمليات كيميائية بديعة، وتفاعلات مثيرة، وجيوش من الجزيئات التى لانستطيع لها عدا، ولا لأنواعها حصرا، لكن كل هذا يحتاج الى مجلدات من فوق مجلدات، وقد لايهمنا كل ذلك هنا بقدر ما يهمنا ان نعرف ان تنظيم الالفات بجوار الثاءات بجوار السيئات بجوار الجيمات (اى هكذا مثلا س . أ . أ . ج . س . ث . أ . ث . ج . س . ج . ج . أ . . الخ . . الخ) هو الذى يحدد صفات الكائنات، ثم ان عملية التزاوج بين الأفراد من النوع الواحد، لمجىء ذرية جديدة من النوع ذاته، هى فى الاساس عملية تبادل بين هذه البلايين من المعلومات، لتنتج شفرة

جديدة، تؤدي الى «سبيكة» وراثية لا يمكن ان تتكرر مطلقا، مهما تعاقبت الاجيال، وتعاضمت الخلائق.

والسؤال الآن: ماذا تعنى هذه الشفرة حقا بالنسبة للحياة؟
الواقع ايضا ان ذلك سؤال شرحه يطول، ومع ذلك فقد جاءت هذه الشفرة لتضع الخطّة، والخطّة تتحول الى عمل، والعمل الى جزئيات بروتينية، والبروتينات هي التي تسيطر على كل عمليات الحياة، ولكن من خلال تنظيم الشفرة، فهي -اي الشفرة- المرجع الأول والأخير، أو قل انها الهيئة الحاكمة الواعية المنظمة المهيمنة على كل صغيرة وكبيرة، ولكن من خلال جزئيات تهدم، وجزئيات تبني، واخرى تدافع وتحارب، وكأنما قد عدنا مرة اخرى الى فكرة الزوجين على مستوى البروتينات التي هيمنت على صناعتها تلك الشفرات.

وهي فعلا كذلك، ففيها الزوجان اللذان يقيمان عمدة الحياة، وكل قد جاء من عناصر هذه الأرض وتراها، ولكن بطريقة اخرى تجذب العقول المفكرة.

ولهذه الأزواج على مستوى البروتينات فصل آخر مستقل.
بقيت كلمة اخيرة.. فبداية الأزواج على ادق وأروع مستويات الخلق تبدأ بالفعل من هذه الأشرطة الوراثية، ثم ان تكاثر الكائنات، ومجيء الأجيال يبدأ من الأعماق، يبدأ من خلال هذه الأزواج من الشفرات.. انها حقا «ألف باء» الحياة، ومع ذلك، فكأنما الله اوحى فيها امرها، ليكون لها من نفسها ازواجا تسكن اليها، بمعنى ان الأنصاف من الاشرطة الوراثية تكمل نظامها بأنصاف أشرطة أخرى، فيصبح الزوج زوجين -كما رأينا، وكأنما الآية التي تحدثنا عن عالمنا المنظور، كأنما هي صالحة ايضا لهذا العالم غير المنظور الذي يكون القاعدة العريضة في تكاثر كل الكائنات.. فماذا تقول الآية الكريمة؟

الواقع انها آيات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:
﴿أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ (الشعراء..
آية ٧).

﴿وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ (ن.. آية ٧).
﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها﴾ (الزمر.. آية ٦).
﴿فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا﴾ (الشورى..
آية ١١).

فان اخذت بظاهر الآيات، فانت على حق، وان كان لك باطنها، فلا
نظنك قد جانبت الصواب، فالظاهر هنا مرتبط بالباطن، ﴿ولكن اكثر الناس
لا يعلمون﴾. و﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها..﴾.

الفصل الثامن

ومن البروتينات أزواجاً !

الفصل الثامن

ومن البروتينات أزواجاً

باديء ذي بدء نقول : لو أننا تعرضنا هنا لفكرة خلق الأزواج على مستوى البروتينات، فإن ذلك قد يثير افكار العامة والخاصة، او قد يسبب امتعاضهم، وهم في ذلك معذورون، لأنهم- بعيونهم- لا يستطيعون رؤية ولا تدقيقاً، ولورأوا، لتجلت لهم اسرار جديدة توضح معنى الآيات التي اشارت الى خلق الأزواج على كل المستويات.

فالناس تعرف البروتين على انه احد العمد التي تقوم عليها التغذية في كل الكائنات، وهم يجدون هذا البروتين في اللحوم والأسماك والبيض والألبان والحبوب والثمار . . . الخ بنسب متفاوتة، فماذا يمكن- حقاً- ان يكون في هذه المواد الغذائية من ازواج بروتينية؟

والذين يتساءلون عن هذا الأمر على حق فيما ذهبوا او يذهبون اليه، وسوف نعود لنوضح لهم ما خفي عليهم من اكوان يضمن رؤياها على العيون البشرية، وأيضاً على الميكروسكوبات الضوئية، لكننا نكاد نراها بالميكروسكوبات الاليكترونية التي تكبر الدقائق غير المرئية مئات الألوف من المرات!

والذين أوتوا شيئاً من علم قد يذهبون الى ابعد من ذلك ويقولون: نحن نعرف ان البروتينات جزيئات عضوية عملاقة، وان الجزيء الواحد قد ينشق الى جزيئات اصغر واصغر، ولا يزال الامر كذلك حتى نصل الى وحداته الاساسية التي نعرفها باسم الأحماض الأمينية، والحامض الأميني هو بمثابة

«كلمة» في «فقرة» من البروتين. . . تماما كما تتراص الكلمات هنا في سطور وفقرات لتؤدي الى معناها المقصود، وكذلك الحال مع الأحماض الأمينية، فهي ايضا تتشابك وتتحد بمعايير مضبوطة لتؤدي الى جزيئات اكبر واكبر، فتكون البروتينات التي تسير دفة الحياة، وتوجه عملياتها الكيميائية المعقدة.

وقد يستطرد الذي أوتي شيئا من علم فيقول: ثم اننا نعرف من عدد انواع الأحماض الأمينية حوالي ٢٠ نوعا مختلفا، وهي تشبه في عالمها الحروف التي نستخدمها في عالمنا، فبحروف لغتنا التي تتكون من ٢٨ حرفا نستطيع ان نؤلف ما نشاء من كلمات وفقرات ومجلدات، وقد يؤدي تآلف هذه الحروف الى كلمات يكون لها معنى، او قد لا يكون، ويعني ذلك اننا نستطيع- من خلال عمليات توافق وتبادل بين حروف لغتنا- ان نكوّن بلايين فوق بلايين من الكلمات. . . منها ما يتكون من حرفين أو ثلاثة أو اربعة أو عشرة أو عشرين. . . الخ، أو قد تبدل بين حرفين، فتخرج لك كلمات اربعة (فحرف أ، م مثلا قد يتكون منها أ م، م أ، م م، أ أ. . . ، وبين ثلاثة فتخرج لك ستة عشر كلمة (فحروف ع، ب، د قد تتكون منها ب ع د، د ع ب، ب د ع، ع ع ب، ب ب ع، ع ع ع. . . الخ)، وأن تجميع هذه الحروف قد يكون له معنى - كما سبق ان اشرنا - وقد لا يكون.

لكن الحياة قد تستخدم هذه التوافق والتبادل بين الأحماض الأمينية العشرين لتدخلها في بروتينات عملاقة، وقد يحتوي الجزيء البروتيني الواحد على مئات من الأحماض الأمينية المتشابكة، فتتنظم فيها «حروفها» (اي احماضها) حسب خطة بديعة تأتي من الجزيئات الوراثة الكامنة في نواة الخلية، والخطة تحملها رسل كيميائية، وبها تجمع الأحماض الأمينية كما يجمع الطابع في المطبعة حروف لغتنا. . . اي كأنما هناك مؤلف وطابع ومطبوع، فالمؤلف هو الجزيئات الوراثة، والطابع هو الرسل الكيميائية، والمطبوع هو الجزيئات البروتينية!

ملخص القول: ان الكائنات الحية تستطيع ان تكون ايضا بلايين فوق بلايين من الجزيئات البروتينية، وذلك من خلال استخدامها لحوالي عشرين نوعا من الأحماض الأمينية (شكل ٣٢)، فجسم الانسان مثلا يحتوي على حوالي مائة الف نوع من البروتين، وهي- اي البروتينات- تنقسم الى ما يشبه الرتب والعائلات والأجناس، فما يشتغل منها في خلايا المخ يحى بمواصفات خاصة ليتناسب مع وظائف خلايا المخ، والذي يدخل في تكوين عضلات القلب لا ينفع في الرئتين او الكبد او الغدد... الخ... الخ، والحق اننا امام مجتمعات جزيئية سبحان من نظمها وأبدعها وسيرها الى قدر معلوم، فلكي تقدر الله حق قدره، فعليك ان تبحث في اسرار خلقه، وكلما تعمقت فيها اكثر، عبت وقدرت أعظم، ومع ذلك فلن نستطيع ان نصل في هذه الأسرار الى نهاية، فهي بمثابة بحور من الألغاز جد متلاطمة، اذ كلما عرفت منها سرا، تفتحت لك ابواب اسرار جديدة.

والموضوع بعد ذلك طويل ومتشعب ومثير، لكن الذي يعيننا منه هنا مسألة خلق الأزواج على مستوى البروتينات... فكيف جاءت- اذن- ازواجنا ازواجاً؟

* * *

ان الراسخين في العلم قد يذهبون الى ما هو أبعد وأعمق من بروتينات تؤكل، أو جزيئات تهضم، أو مركبات عضوية تبنى وتهدم، بل علينا ان ننظر اليها نظرة فاحصة جامعة متأنية واعية، وان نؤسس حكمنا على ادق مستويات الخلق، حتى ولو كان هذا المستوى على هيئة جزيء لا يكاد يرى. على انه من الأوفق ان نعود هنا لنذكر مرة اخرى بأن الأزواج عند العرب تعني في لغتهم ما يتآلف وما يتنافر، فقالوا ان البر والبحر زوجان، وكذلك الليل والنهار، والذكر والأنثى، والسالب والموجب... الخ... الخ... الخ.

ومن هذا المنطلق نستطيع ان نتعرض لفكرة الأزواج التي خلقها الله كلها، مما نعلم، ومما لا نعلم، فأما ما يعلمه العامة من خلال حواسهم او مشاهداتهم فلا شأن لنا به (اي الأزواج الظاهرة كالذكر والأنثى في النبات والحيوان وما شابه ذلك) فلقد فسرهُ الأقدمون والمحدثون تفسيرات تتفاوت بتفاوت ثقافتهم، وأما ما خفي، أو ما لا نعلم بحواسنا، فعلينا به، لنُدلي فيه بدلونا، وعلى قدر ما نعلم في زماننا، اذ كلما تطورت المعارف، وتقدمت العلوم، زادت حصيلتنا بمعرفة ما كنا نجهل، وما اكثر ما نجهل ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ (الإسراء.. آية ٨٥)..

ولنضرب للأزواج التي جاءت بها البروتينات مثلاً ومثلاً، فذلك- بلاشك- يوضح لنا قدرة الله الفذة في تلك العوالم الدقيقة التي لا تكاد ترى. هناك نخلة ذكر، وعليها طلع، ومن الطلع تتناثر حبوب اللقاح ببلايين فوق بلايين (وهي الخلايا الجنسية الذكرية للنخيل) أو تحملها الحشرات والرياح وتذروها هنا وهناك، لتساقط في النهاية على النخيل او غير النخيل، وقد تقع هذه الحبوب او الخلايا الجنسية على زهور برسيم او قرع او طماطم او برتقال... الخ... الخ، وقد تلتصق على ميسم الزهرة المؤدي الى المبيض الذي ينتظر تلقيحا، الا ان هذه الزهور جميعا توصلد الأبواب في وجه حبوب لقاح ذكور النخيل، والذي يفتح الطريق لها هي مياسم زهور اناث النخيل.. فكيف عرف الميسم (او مستقبل حبوب اللقاح) ان هذه الخلية الجنسية هي خليته المقصودة دون الآلاف من انواع حبوب اللقاح التي تتساقط عليه من النباتات الأخرى ليل نهار؟

هناك بالتأكيد كلمة سر.. والسِر في بروتين، او ربما في بروتينات تتفاهم مع بعضها البعض فتستجيب وتفتح، أو ترفض ولا تسمح! وطبيعي ان هناك مئات الألوف من انواع النباتات المختلفة التي تنتشر في الماء واليابسة، وطبيعي ان زهورها تستقبل خلايا جنسية من كل الأنواع، او

قد تتقابل هذه الخلايا مع تلك في الماء، فاذا بكل نوع يعرف نوعه . . صحيح ان الخلايا لا تمتلك عيوناً لترى بها، ولا آذاناً لتسمع بها، ولا أصواتاً لتنادي بها على بعضها، لكنها ملكت لغة البروتين التي ترشدها الى عالمها، فيسري كل شيء حولنا بحساب ومقدار، كما سرى قبل ذلك بملايين السنين بنظام لا خلل فيه ولا فوضى (شكل ٣٣) . .

لكن تعارف الأنواع من خلال خلاياها الجنسية، او بالتحديد من خلال بروتينات خاصة، لم يوضح لنا حتى الآن معنى الأزواج التي جاءت على اساسها الجزيئات البروتينية.

وهذا صحيح، فالأمر سيتضح لنا اكثر عندما نقدم صورة أخرى من عالم الحيوان، فلو أننا أثينا بأنبوبة اختبار ووضعنا فيها بويضة من بويضات انثى الانسان، ثم أحطناها بخليط من حيوانات منوية لأنواع أخرى من ذكور الحيوان، فان بويضتنا لن تستجيب ولن تفتح الأبواب، لكن ما ان نضع لها حيوانات منوية من انسان، إلا ونجد التعارف قد قام، والتآلف قد دام، وعندئذ فقط يلج إليها، فيكون الاخصاب الذي تبدأ به بداية كل كائن حي على هذا الكوكب

لكن . . ما الذي يدعونا الى هذا الافتراض الغريب - أي وضع الخلايا الجنسية في انابيب الاختبار لتتعارف او لا تتعارف على بعضها، في حين ان الله سبحانه وتعالى قد يسر لكل حيوان معرفة أنثاه، فيتزاوج معها دون ان تضيع خلاياه الجنسية هدرًا، وبهذا تخصب البويضة او البويضات في أرحام الاناث بالطرق التقليدية (او التزاوج) المعروفة لنا جميعًا؟

الواقع ان هذا الكون لم يخلق لنا وحدنا، ولا كذلك للكائنات المنظورة التي نراها رؤية العين، ثم ان عملية التزاوج والاخصاب عن طريق وضع الخلايا الجنسية الذكرية في مكانها المناسب ليست سارية في كل الكائنات الحية . . فكثير من الكائنات المائية - حيوانية كانت أو نباتية - تطلق حيواناتها

المنوية في الماء، فيختلط فيه الحابل بالنابل... والماء هنا بمثابة انبوبة الاختبار، ولكن على نطاق أضخم وأوسع، وعلى كل حيوان منوي من أي نوع من آلاف أنواع الكائنات المائية ان يسبح ويعوم حتى يهتدي الى بويضته التي تنتظر إخصابا. . لكن يبقى السؤال قائما: كيف يهتدي اليها، ويتعرف عليها دون سواها؟. . هذا هو السؤال الذي يحتاج الى جواب فيه ارتواء للعقول المتعطشة لمعرفة المزيد من الأسرار. .

اضف الى ذلك ان بعض الكائنات المائية الدنيا او البسيطة، تطلق خلاياها الجنسية- ذكورية وانثوية- في الوسط المائي (وهذه نسميها جاميطات مذكرة ومؤنثة)، ولا بد ايضا ان تتعرف الخلية الجنسية على الخلية الأخرى التي تتبع نوعها، ليتم القبول والاتحاد والاختصاص. . وكل كائن قد جاء لما هو له ميسر، حتى ولو كان ذلك على مستوى خلايا تنطلق في عالمها كالبحكم الصم العمي الذين لا يتكلمون ولا يسمعون ولا يرون. . ومع ذلك تعرف الخلايا الجنسية الشاردة بعضها بطريقة أخرى تكمن فيها فكرة فذة، وتنظيم مذهل. ان فكرة الأزواج من البروتينات تكمن هنا، وعلينا الآن بها من خلال ما قدمنا فأوجزنا.

* * *

يقول علماء الخلية الحية ان غشاء الخلية او جدارها بمثابة ملكوت قائم بذاته^(*)، وعلى هذا الجدار تتحدد «الشخصية» من خلال جزيئات بروتينية، وكأغما هذه الجزيئات قد اصبحت في عالمها بمثابة البصمات التي نعرفها في عالمنا، فكما يعرف كل انسان منا ببصمته التي لا يشاركه فيها احد سواه، كذلك تعرف كل خلية جنسية في النوع الواحد الخلية الأخرى. . صحيح اننا لا نستطيع ان نرى «البصمة» البروتينية، ولا ندري شيئا عن نظامها،

* انظر كتابنا في هذا الموضوع «سور الله العظيم» من سلسلة كتبه «سائح في ملكوت الله». . تحت الطبع - دار الشروق بالقاهرة.

لأن ذلك يقع فيما وراء حدود عيوننا و«عيون» ميكروسكوباتنا، الا ان ذلك لا يعني اننا لا نمتلك وسائل اخرى لترينا ما عجزت عنه العيون بكل انواعها، فلدينا مثلا طرق التحليل الكيميائي، ولدينا طرق الفصل والتنقية والتفاعل بين الجزيئات المختلفة، ولدينا الكيمياء الحيوية بكل ما ملكت من انجازات معملية، لنلج بها الى هذه الأسرار المطوية... الخ.

ملخص القول ان العلماء توصلوا الى سر بديع، فعلى رأس الحيوان المنوي شيء يشبه القلنسوة او القبعة، لكنها قبعة من ادق ما عرفناه في عالم الكيمياء. ففي هذه القبعة الدقيقة جدا تكمن «هوية» أو «بطاقة شخصية» الحيوان المنوي وإلى أي نوع من الأنواع ينتمي، فاذا أصاب بويضة من نفس نوعه، حدثت في رأسه تعرية، وفي الوقت ذاته يحدث في جزء من جدار البويضة هدم، وهذا يعني ان التعارف قد تم، او ان البروتين في هذا قد «فتح» بروتينا في تلك، او قل انه هدمه، فيصبح غشاء الخليتين غشاء واحدا، وتنتقل محتويات هذا الى تلك، فيكون الاخصاب على كل مستويات الخلق!

لكن... كيف يحدث الهدم، لتقوم على اساسه حياة جديدة، ونحن نعرف ان الهدم تخريب لا تعمير؟

الواقع ان العلماء يعتقدون بوجود مادة بروتينية معقدة ومنتظمة بطريقة خاصة على جدار البويضة، وهذه يطلقون عليها اسم المخصبة (اسمها العلمي فرتيليزين Fertilizin) ولها - أي المخصبة - على رأس الحيوان المنوي او - بالتحديد - في قلنسوته ما يناقضها او يهدمها، ولهذا يسمونها المخصبة المضادة (آنتي فرتيليزين Anti-Fertilizin). أي كأنما هذه بالنسبة لتلك كال مفتاح بالنسبة للقفل في عالمنا، او قل انها بمثابة الشيء وضده، او هما ايضا كالذكر والأنثى... او كشفرة في لغة سرية، ولا تعرف الا بشفرة اخرى تناسبها، وهذا وغيره - بلاشك - يشير الى فكرة الأزواج على مستوى

البروتينات، فظهور كل كائن حي على هذه الأرض انما يعتمد- من البداية- على فكرة الزوجين من البروتينات التي جاءت بهندسة جزيئية محددة، وانتظمت على جدر الخلايا الجنسية بطريقة معينة، لتصبح بصمة أو هوية أو لغة لها في عالمها الدقيق شأن عظيم. . صحيح ان عملية ولوج الحيوان المنوي الى بويضة، تبدأ بهدم جزء من الجدار، وكأنما كل منهما قد اصبح بالنسبة للآخر عدو مبین، الا ان الظاهر هنا يختلف عن الباطن، فمن الهدم ينشأ البناء، وفي البناء يكون الهدم، وبدون هاتين العمليتين المتناقضتين لن تكون اكلوان، ولن تكون حياة، وتلك هي سنن الله في خلقه، ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾. . ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾!

إذن فبعدد انواع المخلوقات التي تشاركنا الحياة على هذا الكوكب (وهي في حدود عدة ملايين من الأنواع) يكون عدد هذه «المفاتيح والأقفال» البروتينية. . فكما يفتح كل مفتاح قفله، كذلك يتوافق كل بروتين مع بروتينه، وبهذه الفكرة العظيمة حفظ الله كل مخلوقاته من عملية خلط عشوائي بين الأنواع، وسار كل نوع منها بالزوجين او الأزواج من بروتيناته كل هذه الملايين من السنين، دون ان يخل او يختل فيه هذا الأمر العظيم ﴿حكمة بالغة، فهل من مدكر﴾؟!!

* * *

لكن هذا الأمر يزيد وضوحا واشراقا في عقولنا اذا ما أخذنا في الاعتبار محاولات العلماء الجبارة في انجاح عمليات زراعة الأعضاء، ونقلها من انسان الى انسان، بغية انقاذ حياة، لكن هذه العمليات لم يكتب لها النجاح الكبير الذي نرجوه، اذ لازالت عملية نقل عضو من زيد وزراعته في جسم عبيد تصطدم بعقبات بيولوجية شائكة، وعلى رأسها كسر «شوكة» أو حدة أجهزة المناعة في اجسامنا، وهي عملية جد خطيرة، وعواقبها غير مأمونة. ولاشك انكم الآن تتساءلون بدهشة وتقولون: وما دخل عمليات زرع

الأعضاء هنا بموضوع الأزواج من البروتينات . . أو ليس في ذلك خروج عن الموضوع؟

ليس ذلك حقا بخروج أو حيود، فكلامنا هنا في لب الموضوع، لأن كل جسم حي يعرف كل انواع بروتيناته التي حملها حملا من بداية خلقه حتى نهاية حياته، وكأنا هو يحفظها بروتينا بروتينا عن ظهر قلب، أو قل كأنا لديه «ملفات» كثيرة جدا عن مواصفات كل بروتين في «امبراطوريته» العظيمة، ذلك ان جسم كل منا يحتوي على اكثر من مائة الف نوع من البروتين، وهو يستطيع ان يضيف الى «امبراطوريته» تلك ملايين اخرى فوق ملايين، ففي «ارشيده» الوراثي خطط لهذه الصناعة البروتينية تملأ المئات من مجلداتنا الضخمة.

لو أنك اخذت خلية او نسيجا او عضوا من جسم انسان، ثم احتفظت بأي منها بالطرق العلمية المعروفة بحالة سليمة دون ان يتغير فيها شيء، ثم اعدتها الى هذا الجسم ذاته، فانه يتقبلها قبولا حسنا، لكنك لو اخذت اي نسيج من اي انسان من الاربعة آلاف مليون نسمة الذين يعيشون الآن على كوكبنا، وزرعته في جسم زيد، فان جسم زيد يجهز لها جيوشا من بروتينات مضادة توافق تماما هذه البروتينات الغريبة، ولا تزال تضربها بغير هوادة حتى تمحوها من «امبراطوريتها» (أي تلفظها)، فالجسم لا يحب الغرباء في «امبراطوريته» البروتينية، حتى لو كان في ذلك انقاذ لحياته، فهو يفضل الموت على ان يحتضن في جسمه بروتينات غريبة!

والواقع ان اجسامنا جميعا بمقدورها ان تميز بين انسجتها وبين كل الأنسجة الحية الموجودة في اي مخلوق آخر صغر شأنه او كبر، وهذا يعني انها تمتلك «ذاكرة» جبارة لبلايين فوق بلايين من البروتينات، وبهذه الذاكرة «المعجزة» تعرف العدو من الصديق . . أو البروتين الذي صنعه على هواها من أي بروتين آخر غريب، ولكل بروتين بروتين مضاد، والى هنا نكون قد وصلنا

الى حقيقة الأزواج مرة اخرى على مستوى البروتينات التي تقف حارسة على اجسامنا من الغرباء، اذ لولا الدفع والصراع الكائن بينها، لاختلت موازين الخلق من قديم الزمن، وربما كانت الآية الكريمة ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ (البقرة . آية ٢٥١) ترمز الى ذلك من طرف خفي . . فصور الدفع والصراع المنظورة بين قوى الخير والشر في عالما هي التي تجعل للحياة معنى بين الناس، وكذلك تكون صور الدفع والصراع بين هذا العالم الخفي من البروتينات، اذ لولاها ايضا على مستوى البروتينات والبروتينات المضادة لتهاوت المخلوقات وبادت!

وطبيعي ان اجهزة المناعة والدفاع التي أودعها الله في كل كائن حي لم تأت لكي تحارب الأعضاء المزروعة، بل جاءت أساسا لتحارب الميكروبات التي تحوم حولنا ليل نهار، لكنها لا تستطيع ان تنال منا في اغلب الاحيان، فهناك سدود تمنع هذا الغزو، وهناك حرب على مستوى الخلايا ضد الخلايا (كرات الدم ضد الميكروب) وصراع على مستوى البروتين ضد البروتين (البروتينات او الأجسام المضادة Antibodies) وهنا نكون قد وصلنا مرة ثالثة الى الأزواج من البروتينات التي تدخل في حرب ضروس لم يستطع العلماء حل كل ألغازها حتى الآن (شكل ٣٤) .

وفي اجسام الكائنات الحية جيوش كثيرة من البروتينات التي تقوم بعمليات الهدم، وجيوش اخرى تقوم في الوقت نفسه بعمليات البناء، فكأنما لدينا ايضا بروتينات هادمة، واخرى بناءة، ومن تآلف عمل هذه المجموعة وتلك في البناء والهدم، تسري الحياة في كل الخلايا والمخلوقات . . انها هنا كالليل والنهار، إذ أن هذا يؤدي الى ذاك او العكس، فعمليات الهضم والتنفس مثلا تقوم بها بروتينات هادمة في خطوات متتابعة (وهي التي نطلق عليها اسم الانزيمات او الخمائر - وهي ايضا من عائلة البروتينات)، كما ان عمليات ترميم الخلايا والنمو والانقسام والبناء الجزيئي . . الخ، تحتاج

الى بروتينات بناءة، (ايضا مجموعات اخرى من الانزيمات)، ومن محصلة هاتين العمليتين - أي البناء والهدم - تكون الحياة، فاذا تغلب البناء على الهدم كان النمو والشباب، واذا حدث العكس، كانت المحصلة - على مدى سنين طويلة - شيخوخة اكيدة!

على ان موضوع الأزواج من البروتينات التي تتزوج او تتآلف أو تتضاد أو تتصارع أزواجا أزواجا (بمعنى ان كل نوع من البروتين له نوع محدد يتفاعل معه تفاعلا محددًا كذلك Specific ولا شيء غير ذلك) موضوع جد طويل ومتشعب ومثير، لكن فيما قدمنا هنا الكفاية، ليتبين لنا ان كل شيء قد نظم تنظيمًا بديعًا، وان كل امر قد قدر تقديرًا دقيقًا، بداية من الجسيمات الذرية والذرات والجزيئات والخلايا والمخلوقات حتى ننتهي بالسموات، وان هذا الخلق العظيم ماكان ليقوم الا على فكرة الزوجين المتآلفين والمتضادين، أو الذي يؤدي احدهما الى الآخر، وكأنما هو مكمل لنفسه، وبدون ذلك لا يمكن ان تسرى الحياة كما نعرفها بعقولنا التي تدرك هي الأخرى معنى النقيضين!! تجسيدا أو تجريدا.. فالشيطان تجسيد للشّر، والملاك تجسيد للخير، كما ان تسوية النفس البشرية ماكانت لتقوم كذلك الا على إلهامها النقيضين مصداقا لقوله تعالى ﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها﴾ (الشمس.. آية ٦-٧).. كما سبق أن ألمحنا، وفي ذلك ايضا يكمن معنى النقيضين او الزوجين المتضادين أو المتآلفين في النفس البشرية ليكون هناك ما نسميه بالعقل او الادراك او الوعي او بما يعن لنا من اسماء سميناهما.

لكن المثير والغريب حقا ان البروتينات قد جاءت هي الأخرى من وحدات اصغر، وان هذه الوحدات ايضا قد جاءت على فكرة الزوجين، ولكن بصورة اخرى تدعو الى التأمل والتفكير في بديع صنع الله ﴿الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى﴾ (الأعلى.. آية ٢-٣).

إلى فصل قادم لنعرف معنى الأزواج من الأحماض الأمينية أو غيرها، وليتضح في عقولنا المزيد من الأسرار التي تنطوي عليها الآية الكريمة ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ . .

الفصل التاسع

ومن الأملاح أزواجاً !

الفصل التاسع

ومن الأملاح أزواجاً

ليس من يرى كمن لا يرى، ولا كذلك من يعلم كمن لا يعلم، ومن هنا تختلف درجات الايمان باختلاف رؤية الانسان لعوالم جد كثيرة تنتشر في داخله وحوله بغير حدود، ولهذا اذا دعوت، فلا تدعو بايمان كايان العوام، لأنه -أى إيمان العوام- وان كان يقوم على البساطة والفطرة، إلا أنه لا يرقى الى ما يرقى اليه إيمان الذين يسرون في الأرض فيبحثون وينقبون ويستكشفون ما أودع الله فيها من أسرار تنوء بحملها عقول الرجال، ومن خلال هذه الأسرار العظيمة تتجلى القدرة الالهية البديعة لكل ذى عقل رزين . . وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم في آيات كثيرة ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ (الزمر . . آية ٩) ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر آية ٢٨) . . ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ (العنكبوت . . آية ٢) . . ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه﴾ (آل عمران . . آية ١٩١) . . وقول الرسول الكريم «اطلبوا العلم ولو في الصين». وبالعلم أيضا تتجلى لنا الأسرار الهائلة التي تنطوى عليها آيات القرآن الكريم الرامية إلى بديع صنع الله في كل ما خلق فسوى، فجاء خلقه متناسقا في كل ما نرى وما لا نرى، ولكى يتناسق هذا الخلق العظيم، كان لا بد من ظهور الأزواج في صور شتى، ونحن نعلم قليلها، ونجهل كثيرها . .

ثم ان الأزواج تتراءى دائما لعلماء الفيزياء والكيمياء والطبيعة والفلك والحياة، ومنها تنبع الافكار العظيمة التى أودعها فيها الله، حتى ولو كانت هذه الفكرة على هيئة ملح لاثير فى العقل دهشة ولا عجبا.

وعلينا الآن ان نقدم شيئا من هذه الأزواج التى لا يعلمها الا العلماء، وهى جزء مما أشارت اليه آية من آيات القرآن الكريم بقول فصل ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ (يس . . آية ٣٦) . . وهو ما قدمناه فى ثمانية فصول سابقة، وتناولنا فيه فكرة الأزواج على مستويات شتى .

والى هنا يبرز سؤال هام: ماذا تعنى حقا تلك الأملاح أو المركبات التى جاءت بدورها أزواجاً أزواجاً؟ .

تعنى أن الملح نفسه أثناء خلقه أو تخليقه قد يأتى بصورة يمينية أو يسارية . . وتعنى اكثر أنها ترشدنا الى نظم بديعة ما كانت لتتجلى لنا الا من خلال علم تجريبي يوضح لنا ما خفى علينا وعلى حواسنا، وتعنى أكثر وأكثر ابداع من خلق هذه الأكوان -كبيرها وصغيرها- ووضع لها نواميس تختار فيها العقول والأفهام .

وماذا يعنى ملح يمينى أو يسارى؟

يعنى أن الملح قد يحىء كصورة وعكسها . . وهو ما يطلق عليه أحيانا الصورة (البوزيتيف) والصورة (النيجاتيف)، لكننا لانتعرض - فى الواقع لعالم من الصور والصور المعكوسة، بل إن ما نقصد هو تجسيد حقيقى لمعنى الزوجين هنا على هيئة املاح سارت بها الحياة منذ ملايين السنين . لهذا دعنا نبدأ القصة من جذورها، لنعلم منها ما لم نكن نعلم .

* * *

نحن - بطبيعة الحال - نعرف فى حياتنا ان هناك أهل اليمين، وأهل اليسار، وأن أهل اليمين هم أهل الجنة، وأهل اليسار هم أهل النار، كما أن

فى خلقنا أيضا تكمن فكرة اليمين واليسار، فهناك الجانب الأيمن والأيسر، ومن تآلف هذا مع ذاك يكون التناسق الذى تأتى به أجسامنا الى الحياة، أضف الى ذلك أن بعض القواقع الحلزونية قد تأتى صدقاتها يمينية أو يسارية، بمعنى ان بناءها الحلزونى قد يدور يمينا أو يسارا (فى اتجاه حركة عقرب الساعة أو عكسه) واحيانا ما يتخذ العلماء هذه الصفة للتعرف على أنواعها، لكن احدا لايدرى لماذا يأتى هذا البناء يمينا أو يسارا، أو كيف تحتفظ الحياة بهذه الاتجاهات ولاتحيد عنها سبيلا.

ولايفوتنا أن نذكر أيضا أن البشر قد اتخذوا لهم أحزابا فكرية أو سياسية، وانهم أطلقوا عليها حزب اليمين أو اليسار، أو الفكر اليمنى أو اليسارى. . . صحيح أن كل هذا لايدخل فى موضوعنا الذى سنتناوله هنا، لكنه ان دل على شىء، فانما يدل على أن الكون والحياة والفكر ماكان كل منها ليقوم ويتطور ويسير ويتصارع ويدفع بعضه بعضا الا من خلال تآلف وتنافر وأضداد ونقائض، ولولا هذا الدفع الذى يراه رجل العلم فى جسيماته وذراته وجزيئاته وخلاياه وارضه وسماؤه، لما حدث التوازن والتناسق، ولما سارت الأمور سيرها الطبيعى، ولأصبح كل شىء راكدا ساكنا كمستنقع آسن لايفوح منه إلا كل كرية وفاسد، وربما كان ذلك مصداقا لقوله تعالى ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ (البقرة . . آية ٢٥١) وما يسرى على الناس من اختلافات تؤهلهم لهذا الدفع والتنافس والتفاعل، يسرى أيضا على كل ما فى الكون.

ولندع الآن ظواهر الأمور، ولنلجأ الى بواطنها، لنرى صورا أخرى من خلق جاء يمينا أو يساريا، ليحقق لنا معنى الأزواج التى انطوت عليها بعض آيات القرآن الكريم، ثم ماذا تعنى رسالة هذه الأزواج فى المكونات الدقيقة التى قامت عليها أعمدة الكائنات الحية، ثم كيف اختار الله مكونات يمينية بعينها، وترك اليسارية، أو حدوث العكس فى مكونات أخرى.

لقد عرف العلماء من مئات السنين ان لبعض المركبات أو الأملاح العضوية خاصية فريدة في سلوكها مع الضوء المار خلالها، فهي قد تحرفه يمينا، أو قد تحرفه يسارا بزوايا محددة، وان هذا الانحراف يختلف باختلاف طبيعة هذه المواد.

ثم يجيء العالم الفرنسى الشهير لويس باستير، وتجذب هذه الظاهرة الغريبة كل انتباهه، وتثير أفكاره، ويحاول ان يجد لها تعليلا، وطبعى أنه كان يعرف حكاية هذه الأملاح التى توجه شعاع الضوء يمينا ويسرة، لكن الغريب ان مركبا منها ويعرف باسم حامض الطرطير (أو ملحه المسمى بطرطرات الصوديوم النوشادري) كان يتشابه تماما فى الخواص الطبيعية والكيميائية لحامض آخر يعرف باسم (باراطرطير)، الا أن هذا الأخير رغم تطابقه فى كل صفة من صفاته مع حامض الطرطير كان لا يحرف الضوء يمينا ولا يسارا، فى حين أن الأول كان يحرفه، وتعجب باستير من هذه الظاهرة وكأنما هو يتساءل: هل يمكن حقا ان يوجد «القرينان» على مستوى الأملاح، لكنهما يختلفان فقط فى التعامل مع الضوء؟

وبدأ باستير دراسة هذه الظاهرة المثيرة، واعطاها - فى بداية شبابه - كل وقته واهتمامه (وقد كان كيميائيا قبل ان يصبح عالم ميكروبات) واخذ يفحص بلورات املاح حامض الطرطير مستعينا بعدسة مكبرة، وكانت دهشته بالغة عندما اكتشف ان البلورات قد جاءت بهيئتين متشابهتين تماما، لكن إحداهما كانت بالنسبة للأخرى ككف اليد وصورته فى المرآة.. فاذا وضعت مثلا كف اليد اليمنى أمام مرآة، ثم رفعت اليد اليسرى ليواجه بصرك، لوجدت ان صورة كف يدك اليمنى تشبه تماما كف اليد اليسرى فى عالمها الحقيقى.

صحيح أن كف اليد اليمنى يمكن أن يتطابق على كف اليد اليسرى فيما لو قلبت (أو عكست) هذا على ذاك، لكنك لو فردت الكفين أمام بصرك

لوجدت أن البنصر في احد الكفين يتجه يمينا، في حين ان الآخر يتجه يسارا. . جرب ذلك وسترى.

ونحن لانريد أن نطيل عليك، أو أن ندخل في التفاصيل، فلقد توصل باستير ببساطة شديدة الى عزل بلورات ملح الطرطير اليمينية عن البلورات اليسارية. . وكأنا هذه البلورات صورة معكوسة لتلك في مرآة، تماما كالكف اليمنى واليسرى (شكل ٣٥)، وان واحدة منها تعكس الضوء المار فيها يمينا، في حين أن الأخرى تعكسه يسارا، اما اذا خلطت هذه مع تلك بنسب متساوية، فان الضوء لا ينحرف، بل ينطلق في خط مستقيم، وكأنا هذا يحو ذاك كما يحو الليل النهار، أو النهار الليل، أو كما تمحو الشحنة الكهربائية الموجبة في الذرة الشحنة السالبة.

ويرجع خلق الشبيه وشبيهه (أو صورته المعكوسة) على مستوى البلورات الى الهندسة الذرية الدقيقة الكامنة في الجزيئات الكيميائية، وان انتظام الذرات في زوايا محددة حول ذرة بعينها، وبطريقة خاصة يؤدي إلى خلق الجزيء وعكسه، وكأنا فكرة الأزواج على مستوى البلورات أو الأملاح تتكرر هنا بطريقة أو بأخرى. . وهذا ما دعا العالم الفيزيائي الفرنسي جين بابتيست بايوت إلى الكتابة لباستير شاكرا له أفضاله في حل هذا اللغز الذي أثار اهتمامه، فذكر في خطابه. . أي ولدى العزيز. . لقد أحبت العلم على يديك حبا جما لدرجة أنارت قلبي وأسعدت وجداني.

ولقد أثار هذا الاكتشاف الغريب العلماء في العالم، وبدأوا يتطلعون إلى حقيقة هذه العوالم الغريبة، فكان أن اكتشفوا عددا كبيرا من المركبات الطبيعية التي تنتشر على كوكبنا بصورها اليمينية أو اليسارية أو الاثنين معا، لكن علينا أن نهجر كل هذا الآن، ولنعد إلى موضوعنا لنتناوله من الزاوية التي تشير إلى خلق الأزواج مما نعلم، ومما لانعلم، وكما أشار إليها القرآن اجهل اشارة.

* * *

عندما تعرض العلماء للجزيئات الكيميائية الأساسية التي تقوم عليها أعمدة الحياة في كل المخلوقات الحية، وجدوا أنها تقوم أيضا على فكرة الجزىء اليميني أو اليسارى، فالأحماض الأمينية الطبيعية التي تدخل في تكوين البروتينات كانت كلها من النوع اليسارى، وكل السكريات الطبيعية التي تنتشر في عالم النبات والحيوان كانت من النوع اليميني، كما أن الجزيئات الوراثية التي تحتفظ في هيكلها بكل صفة من صفات المخلوقات قد جاءت بصورتها اليمينية، وكأنما الله قد أشار بيمينه الى هذه فكانت يمينه، وكأنما هو أيضا قد أشار الى تلك فصارت يسارية (هذا ويجب التنويه بان الله ليس له يمين كيميئنا ولا يسار كيسارنا).

ولماذا كان هذا الاختيار؟ . . وكيف حدث . . وهل كان من الممكن مثلا أن يوجد الحامض الأميني اليسارى جنبا الى جنب مع الحامض الأميني اليميني في المخلوقات؟ . . ثم ماهى الحكمة من وراء هذا الاختيار؟ . . الخ .
الواقع أن العلماء لم يستطيعوا التوصل إلى السر الكامن وراء هذا الاختيار، وهو أشبه بمن حيث المبدأ- بتساؤلنا: لماذا كان القلب جهة اليسار قليلا، ولماذا جاء الكبد جهة اليمين؟ . . وماذا كان يحدث لو قلبت هذه الأوضاع من البداية؟

والجواب: ان هذا ماكان ليغير من طبيعة الحياة شيئا، كذلك لو بدأت الحياة بالأحماض الأمينية اليمينية بدلا من اليسارية، فان ذلك أيضا لا يغير في كيمياء الحياة شيئاالمهم في الموضوع أن يقع الاختيار من البداية على صورة وحيدة محددة، فإما أن تكون يمينية فقط، أو يسارية فقط، اذ لو حدث أن وجد السكر اليميني جنبا الى جنب مع السكر اليسارى في المخلوقات، أو وجد الحامض اليميني مع اليسارى، فان ذلك سوف يؤدي الى فوضى رهيبة لايمكن أن تساعد على استمرار الحياة . . فمفتاح الحياة يكمن في صورة واحدة فقط، وليس في الصورتين معا.

ولماذا كان هذا التحديد حقا؟

الاجابة على هذا السؤال تتطلب منا ان نتعرض لتكوين الجزىء الوراثنى الذى جاء - كما ذكرنا - من مركبات يمينية فقط . فهذا الجزىء يتكون من بناء ذرى عجيب، وبحيث لو اطلعت عليه فى عالمه الدقيق لوجدته يدور حول نفسه كضفيرة كيميائية دقيقة، أو قل إنه كسلم حلزونى يضم بين دفتيه عشرات الألوف من الدرجات الكيميائية . . وكل درجة تتألف من جزئين محددين (راجع الفصل السابع) ومن هذا التألف تراه يدور حول نفسه فى اتجاه واحد لا يحيد عنه ولا يميل (شكل ٣٦) وهذا الاتجاه الثابت والموحد فى كل المخلوقات، يرجع إلى اختيار صورة وحيدة من المركبات اليمينية التى تدخل فى تكوين الجزىء الوراثنى الحلزونى، إذ لو دخلت معها الصورة الأخرى فى البناء، لأدى ذلك إلى فوضى ليس لها من قرار.

ولكى نوضح ذلك، دعنا نضرب مثلا بسلم حلزونى من ذلك النوع الذى يشيده الانسان، ليكون ذا فائدة للصاعدين والهابطين على درجاته، فتصميم السلم ينطوى على مبدأ دورانه حول نفسه فى اتجاه واحد، بمعنى انك فى الصعود أو الهبوط قد تلف معه فى اتجاه اليمين أو اليسار (أو فى اتجاه حركة عقرب الساعة أو ضد هذا الاتجاه) ولايهم بعد ذلك أن يحىء التصميم ليدور فيه السلم حول نفسه من جهة اليمين، أو جهة اليسار.

لكن لنفرض أن مصمما قد شيد سلما حلزونيا بحيث تدور أجزاء منه إلى اليمين، وتدور أجزاء أخرى إلى اليسار، عندئذ سيكون سلما هذا غير سوى، أو هو شاذ التكوين، وسوف يدل قطعا على أن الذى صممه لا يتمتع بعقل رزين! (شكل ٣٧) .

وطبيعى أن الجزىء الوراثنى (الذى يشبه إلى حد ما السلم الحلزونى) سوف يقع فى اخطاء كبرى لو جاء يحمل فى تكوينه قواعد يمينية وأخرى يسارية، وهذا ما لم يحدث على الاطلاق، ولو حدث لكان الجزىء مثل انسان يحمل فى

تكوينه مخين أو قلبين، والله في خلقه لا يسمح بذلك ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ (الأحزاب . . آية ٤).

كذلك لم يجعل لجزىء من مركبين في جوفه أو تكوينه، بل واحدا فقط: إما يميني وإما يساري، ولقد اختار الله اليميني لحكمة لازلنا في فحواها حائرين، علما بأن اليساري كان سيقوم بالمهمة نفسها دون أية اختلافات على الإطلاق، ذلك أن العلماء يوقنون أن القواعد التي تخلق منها الجزيئات الوراثية قد ظهرت في البداية (أي منذ بدء الخليقة) أزواجا أزواجا (أي قواعد يسارية وقواعد يمينية)، ثم حدث أمر غامض على مداركنا، فاختفت الأزواج اليسارية إلى الأبد، وسارت اليمينية في الجزيئات الوراثية لكل الكائنات الحية دون أن تشذ على هذه القاعدة لأكثر من ألفي مليون عام.

* * *

والغريب أيضا أن بروتيناتنا التي تكون خلايانا وأنسجتنا جاءت هي الأخرى باتجاه معين، ولم يسمح الخالق بوجود الاتجاهين، إذ أن ذلك أيضا سوف يؤدي إلى فوضى، والحياة - كما نعرفها - لا يمكن أن تقوم على خلل أو فوضى.

ولقد حدد الخالق هذا الاتجاه البروتيني الموحد من خلال الأحماض الأمينية التي تبني هذه الجزيئات العملاقة، إذ أنها - أي الأحماض الأمينية - قد ظهرت في بداية الخلق أزواجا . . أي نصفها يميني ونصفها يساري، والذي يربط هذه الأحماض البسيطة في جزيئات بروتينية عملاقة (كما تربط الحروف هنا في كلمات وفقرات) أوامر كيميائية تخرج من الجزيئات الوراثية، لكن لحكمة - لاندريها أيضا - خرجت هذه الأوامر اليمينية (هي في الواقع جزيئات وراثية عملاقة) من الشفرة الوراثية اليمينية لتختار الأحماض الأمينية اليسارية، فتبنى بها جزيئات بروتينية يسارية كذلك . . أي كأنما اليميني قد اجتمع مع اليساري في كل خلية من خلايا أجسامنا، أو في كل خلية من خلايا الكائنات

من هذين الزوجين، فحدث الاختيار في اليميني دون اليسارى، أيضا لحكمة لاندرىها ﴿ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون﴾.

* * *

على أن كل هذه الأمور قد تجرنا إلى ما هو أعمق وأعمق، فتفاعل جزيئات الحياة ذاتها تتم عن طريق خمائر أو أنزيمات، وهذه تفعل في عالمها ما تفعله المفاتيح في عالمنا، فنحن قد نفتح ونغلق، أو نفك ونربط بمفاتيح خاصة ذات مواصفات مناسبة للغرض الذى صنعت من أجله.

وكذلك يكون الحال مع الخمائر، فما من مركب كيميائى من ملايين المركبات التى تزخر بها خلايا الكائنات الحية إلا وله خميرة خاصة تهدمه أو تبنيه، فتحوله إلى مركب آخر جديد، فتسلمه خميرة أخرى، لتجرى عليه تعديلا، إما بالحذف وإما بالاضافة، فيصبح مركبا ذا مواصفات أخرى، فتأتيه خميرة جديدة.. وهكذا تسير العملية في سلسلة من الخطوات أو التفاعلات حتى ينتهى الأمر إلى شىء فى صالح الحياة.

إلا أن دقة الخلق والتدبير تبلغ منتهاها عندما يصبح للأزواج من المركبات اليمينية أو اليسارية أزواج متخصصة من الخمائر.. فللمركب اليميني مثلا خميرة يمينية مناسبة، ولليسارى خميرته أيضا، ولهذا اذا قدمنا للخلية الحية (وهى وحدة البناء فى الكائنات، بداية من الميكروب والنبات، حتى ننتهى بالانسان سيد المخلوقات) محلولاً غذائيا به أحماض امينية يمينية ويسارية، فانها لا تقرب اليميني، بل تتعرف فقط على اليسارى، وتستطيع ان تمثله فى غذائها، وكذلك يكون الحال مع الأزواج من السكريات، فهى تنتقى منها اليميني، ولا تقرب اليسارى.. وهكذا.

وسر هذا لا يخفى على لبيب، فالكائنات تمتلك الخمائر المناسبة للمركبات المناسبة، فسكر الجلوكوز اليميني له «مفتاح» أو خميرة جاءت مناسبة لبنائه تماما.. مثل هذا الكون الصغير الدقيق من المركبات الحيوية، كمثال

جميعا، بداية من أصغر مخلوق، حتى ننتهى بأكبر مخلوق، ذلك أن هذا الاختيار الأزلى قد أصبح القاسم المشترك الأعظم بين كل الكائنات -أى شفرة وراثية لتصنع بروتينات يسارية من أحماض يسارية كذلك.

ذكرنا أننا لاندري الحكمة فى سر اختيار شفرة وراثية يمينية، وجزئيات بروتينية يسارية، إلا أننا ندري السر الكامن وراء عدم خلط اليمينى باليسارى فى جزىء واحد، إذ لو حدث ذلك لجاء الجزىء البروتينى على نفس الوتيرة التى قد يكتب بها كاتب فقرة فى صفحة فى كتاب، فإذا بنا نراه مثلا يكتب حروف لغتنا وكلماتها من اليمين الى اليسار، ثم بعد عدة حروف أو كلمات يكتب جملة اخرى وقد قلب حروفها وكلماتها فأصبحت من اليسار الى اليمين، ثم من اليمين الى اليسار، وهكذا، وطبيعى أن ذلك لايعنى الا فوضى فى عقل من كتب.

والشئ ذاته كان من المحتمل حدوثه لو أن الحياة قدمت لمخلوقاتها أحماضا أمينية ويسارية فى الوقت نفسه، وعندئذ يتحتم أن يتشابك هذا مع ذاك، مما يؤدي إلى تخليق جزئيات تجعل الحياة تقع فى حيص بيص، أو تزيد فرص الفوضى على فرص النظام، وهذا ما لا نراه، ومن أجل ذلك تم عزل هذا عن ذاك من البداية، حتى يكون النظام، والنظام هو المبدأ أو الناموس الأول من نواميس الكون والحياة، وهذا ما نراه حقا فى كل ماخلق الله.

وكالأحماض الأمينية التى تتخلق منها البروتينات، تكون أيضا السكريات. . . فهناك مثلا جلوكوز يمينى وجلوكوز يسارى، وفركتوز (سكر عنب) يمينى وآخر يسارى، لكن الحياة بكل صورها لاتتعامل الا مع اليمينى من السكريات، ولا تقرب اليسارى أو تضعه فى حسابها، اذ أن هندسة بناء الجزئيات الأعقد من هذه الجزئيات السكرية البسيطة تتطلب صورة واحدة

القفزات أو الأحذية في عالمنا، فالقفاز اليميني لا ينفع الا ليد يمينية، وكذلك اليسارى، كما ان لكل قدم حذاءها ليناسبها تماما ، مع الفرق بين روعة تفاعلات الحياة، وما أودع الله فيها من أسرار، وسذاجة الأمثلة التى نسوقها من عالمنا لنوضح ما غم من أسرار.

وقد يتساءل متسائل: ألم نذكر أن كل الأحماض الأمينية الموجودة في الكائنات الحية من النوع اليسارى، وان السكريات البسيطة من النوع اليميني؟.. فأنى لنا اذن بالصورة المعكوسة لهذه أو تلك؟

الواقع ان العلماء يستطيعون معرفة ذلك من خلال تخليق بعض الأحماض الأمينية أو المواد السكرية في الدوارق والأنابيب، اذ عندما تتخلق هذه أو تلك، فانها تأتى إلى الوجود أزواجا أزواجا. . أى يظهر اليميني من الأحماض

الأمينية جنبا إلى جنب مع الأحماض اليسارية، فما من جزئ يظهر إلا وتظهر معه صورته أو زوجه المعكوس، والذي يحكم ذلك هو النظام الاليكترونى الذى أودعه الله في بعض الذرات لتتآلف في المركبات وصورها المعكوسة،

ومن هذا المنطلق يعتقد العلماء أن بداية خلق جزيئات الحياة الأساسية منذ بلايين السنين قد أتاحت الفرصة لظهور اليميني جنبا إلى جنب مع اليسارى،

ثم حدث الاختيار الذى لا ندرى له سببا حتى الآن، فبقيت الأحماض الأمينية اليسارية، لتبنى منها بروتينات وخمائر يسارية، كما بقيت أيضا السكريات اليمينية، واختفت اليسارية، ثم ظلت الشفرة الوراثية اليمينية بدورها تشق طريقها دون أن تقع العين على شفرة وراثية يسارية.

انها بدايات أزواج تدعو حقا الى الحيرة والتساؤل. . ومن أجل هذا كان في التعبير القرآنى ﴿وما لا يعلمون﴾ فصل الخطاب.

الفصل العاشر

تعقيب وخاتمة

الفصل العاشر

تعقيب وخاتمة

بتواضع شديد نقول ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ . . ذلك أن ما نجهله من أسرار الكون والحياة أكثر بكثير مما نعلم من آيات خلق الله، ولا يعرف ذلك إلا كل من عاين هذه الأمور . . ما ظهر منها، وما خفى . . ثم إن ما خفى أروع وأعظم، فهناك أسرار كثيرة جدا لازالت عنا محجوبة، وكلما باحت الحياة بأسرارها، وتكشفت لنا من السماوات الغازها، كان ذلك أدعى إلى إيمان له عمقه ومغزاه، فينعكس ذلك حقا على بديع صنع الله .

ثم إن ما بين أيدينا من نظم خفية ومطوية، يرجع أساسا إلى قصور في الحواس البشرية، ولهذا جاء العلم بمكرمات كثيرة، ووسائل عظيمة، لتكشف لنا من نظم الخلق المطوية ما عجزت عنه كل الأجيال السابقة .

وكتابتنا هذا ليس إلا جهدا متواضعا لتفسير معنى خلق الأزواج التي أشارت إليها بعض آيات القرآن، ولم نشأ أن نزع بالقارىء في معمعة علمية قد تجره إلى متاهات نرى أنه في غنى عنها، إذ لو كتبنا عن بداية خلق الأزواج، وما يمكن أن تتمخض عنه من ظواهر كونية وبيولوجية «حياتية» بالتفصيل، لاستلزم ذلك مجلدا ضخما، وقد يجهد القارىء فكريا وماديا، وهذا ما تجنبناه من البداية، فالعلم يسر، لا عسر، ونرجو أن نكون قد وفقنا في ذلك .

ولقد ترددنا كثيرا في كتابة مثل هذا المؤلف الذي يجمع بين العلم والدين، خاصة وأن بعض فقهاء المسلمين يستهجنون ربط الآيات القرآنية بالكشوفات

العلمية . . ففى رأيهم أن النظريات العلمية قد تتغير وتتطور بمرور الزمن، ونحن لا نلومهم على ذلك، إذ أن بعض المجتهدين المحدثين يلصقون ببعض الآيات القرآنية تفسيرات علمية ساذجة، لا تستقيم مع عقل راجح، أو فكر صائب.

أضف إلى ذلك أن البعض الآخر يعتقد أن العلم علم، وأن الدين دين، ولا يحق لنا أن نخلط بين هذا وذاك، وطبيعي أن ذلك اعتقاد خاطيء، لأن أرقى أنواع الايمان هو ما قام على العلم والتأمل والتفكير، خاصة وأن الكثير من الآيات القرآنية قد مجدت العلم، ليس العلم الديني كما يظن البعض فحسب، بل أيضا كل ماله صلة بالبحث عن أصول بدايات الخلق . . ففى البدايات دائما-وكما رأينا- تتجلى لنا عظام الأمور، ففيها الوحدات التي تأسست عليها كل الظواهر الكونية، ثم إن هذه الوحدات لازالت تلعب بعقولنا لعبتها الأزلية، فلا نكاد نعرف لها جوهرها ولا لبها . . أي أن السر أو الجوهر لن يدرك أبدا، وما عداه، فالأمر متروك لنا، لتعب عقولنا من أسرار ما تشاء.

لكننا أحسنا كأنما هناك دافع قوى يدفعنا لكتابة هذا الكتاب، ويرجع ذلك لأسباب . . منها ان الآيات القرآنية التي تحدثت عن خلق الأزواج كانت واضحة كل الوضوح، فليس هناك ما هو أوضح من الآية الكريمة التي اخترناها لتكون عنوانا لهذا الكتاب.

ومنها ان الكشوفات العلمية التي ازاحت الغموض عن بدايات خلق الأشياء، ووضحت انها قد بدأت ازواجا، انما هي كشوفات عظيمة واصيلة، وليست هي من قبيل النظريات التي تقبل التغير أو التأويل، ثم ان كل العلماء الذين ازاحوا الغموض عن هذه الأمور المحيرة والصعبة، قد حازوا جائزة نوبل تقديرا واعترافا بفضلهم فى تطوير علومنا ومعلوماتنا عن اسرار الكون والحياة عامة، وبداية خلق الأزواج خاصة.

ومنها ان معظم التفسيرات التى ظهرت قديما وحديثا فى تفسير خلق الأزواج، لم تستطع ان تغوص فى اعماقها، لتقدم لنا زادا عقليا نحن فى اشد الحاجة اليه فى عصر تلعب فيه الكشوفات العلمية دورا كبيرا، وتجذب اعجاب الناس واهتماماتهم، وكان لابد - والحال كذلك - ان يظهر هذا الكتاب، لا لنشيد باعجاز آيات القرآن، ولكن لنرجع كل شىء الى الخالق المقتدر الذى اتقن كل شىء، فهو اولى بخشوع العقل وخضوعه، وليس ادعى الى ذلك من البحث فى اسرار خلقه، لنرى بديع صنعه، علنا نقدره حق قدره.. ولاشك انك قد وقعت على مكانن القدرة الالهية التى كشفتها لنا البحوث العلمية، خاصة فيما يتعلق بموضوع هذا الكتاب.

ومنها ان اللفظة العربية خاصة، واللغة عامة غنية بالمعاني، بمعنى ان لفظ الزوج او الأزواج يحتمل معان عدة، كما سبق ان اوضحنا، وهذا ما شجعنا على ان نتعرض بشىء من الاسهاب العلمى لما يمكن ان يحتمله المعنى الكامن فى الأزواج، وسواء أكانت الاشارة القرآنية تعنى ما نقصده، أو لا تعنى، فان ذلك لا يغير القصد من هذا الكتاب، فلقد جاء اساسا ليوضح بداية الأزواج فى الخلق، واكثر من هذا، ليبين القدرة الالهية العظيمة والمبدعة فى المقام الأول.. بديع السموات والأرض.. حقا وصدقًا!.

ومن الأسباب التى دعتنا ايضا الى تأليف هذا الكتاب ان من يتعلم العلم ويكتمه، ثم يموت دون أن ينشره، فلا خير فيه.. أو حسبما يقول الحديث الشريف «خيركم من تعلم العلم وعلمه».. والعلم انواع.. علم بشرى، كالفنون والآداب والفلسفة والاقتصاد والحروب والسياسة وغير ذلك مما يتمخض عنه العقل البشرى من افكار وتراث ليصبح جزءا من حياة الناس، وعلم دينى يبحث فى الفقه والتفسير واحكام العبادات وبعض المسائل الغيبية الشائكة، وكل المعجزات والأرواح والجن وغير ذلك من امور نراها بعيدة كل البعد عن جوهر الدين، لأنها تستغل الدين، أو تتخذة ستارا

لممارسة الدجل والشعوذة على ضعاف العقول، فهم تارة يدعون تحضير الجن والأرواح، وتارة أخرى يؤلفون فيها كتباً، ويتحدثون فيها عن الجن مثلاً وكانهم قد عايشوه وعرفوا أسرارهم ومزاجه وعاداته . . الخ، ولا شك أن معظم أفكارهم هنا خيالية وساذجة، والغريب أن بعضهم يلصقها لصقاً بالدين، والدين برىء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب . . اصف إلى ذلك أنهم يطلقون عليها علوماً وماهى بعلوم . . بل أشباه علوم أو علوم كاذبة Pseudo Sciences . . لكن الحديث في ذلك قد يتشعب ويطول، ولنوصد دونه الأبواب، فلا فائدة منه ولا مآرب.

وهناك العلم التجريبي والتطبيقي والنظري، وهو الذي يتعمق في أسرار الكون والحياة، ويكشف نواميسه التي يتأسس عليها، وقوانينه التي يسير على هداها، ثم نراه ينهج في بعض الأحيان نهجها، فيتوصل إلى إنجازات عظيمة لا نكاد هنا نحصيها عدداً، ولقد اطلعناك في هذا الكتاب المتواضع على بعض هذه الأسرار . . صحيح أننا لم نصل فيها إلى نهاية المعرفة، وما نحن بواصلين أبداً، لكنها على أية حال توضح جزءاً يسيراً من ابداع هذه الأكوان الصغيرة جداً، والضحمة جداً، متمسكين بأصول الآية الكريمة التي تأمرنا بالبحث والكشف والتقصي في أصول هذه النظم المذهلة . . ﴿قل سيروا في الأرض، فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ . . والبدايات دائماً مثيرة وغريبة، وتدعو إلى مزيد من التأمل الواعي، والتفكير الأصيل في آيات الله في خلقه . . وكان ذلك سبباً مباشراً في ظهور هذا الكتاب الذي يتناول موضوعاً جديداً يربط بين خلق الأزواج التي جاءت في القرآن، وبين الانجازات العلمية التي أوضحت ما خفى على السمع والحس والبصر والفؤاد.

* * *

نعود إذن إلى موضوعنا لنقول: إن التناسق في الخلق يستدعي حتماً خلق الزوجين من نفس الجنس . . فالجسيمات الذرية من نفس الجنس، وقد رأينا

كيف أنها إذا تخلقت جاءت ازواجاً متناقضة، كما أن الشحنات الكهربائية التي تحملها الجسيمات التي تدخل في تكوين الذرات قد جاءت أيضاً من نفس الجنس على هيئة أزواج متناقضة، ولكوننا لا نعرف يقيناً جوهرها، رغم أننا نعرف مظهرها واثرها، فقد أطلقنا عليها مسميات تناسب أنماط تفكيرنا، فكان فيها السالب والموجب، ومن تآلف هذا مع ذلك في النظام الذري، تكتسب المادة صفة التناسق والتعادل. ثم إن انعكاس هذه الشحنات في ذرات غير ذرات عالمنا، وما يتبع ذلك من تكوين مادة نقيضة لمادة عالمنا، قد أثار أفكارنا، وجعل عقولنا تتخبط في متاهات لا تستوعبها أذهاننا، ولكننا مع ذلك سعداء بتناسق خلق المادة على هيئة أزواج بعضها لبعض عدو مبین، ثم ما يمكن أن يتأسس على ذلك من وجود أكوان وأكوان نقيضة. . أكوان معكوسة الطبيعة والصفات.

وقوانين التناسق التي استشفها علماء الطبيعة الذرية من النظم الكونية كثيرة Symmetry Laws فمنها على سبيل المثال لا الحصر تناسق المكان، وتناسق الزمان، وارتداد الزمن، وانعكاس الشحنة، وانعكاس المكان، أو المكان والشحنة معاً، وتوحد الخواص في الزمان والمكان، وانعكاس الزمان والمكان والشحنة. . Inversion of time, space and charge - وبطبيعة الحال لا نستطيع أن نتعرض لمعنى ذلك هنا، إذ تحكمه معادلات رياضية عميقة تصدّع أدمغة أربابها، لكن ذلك يشير إلينا من طرف خفي أن الكون أغرب وأعجب وأبدع مما كنا نتصور. . ولقد عبرت الآية القرآنية ﴿الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى﴾ - عن هذا التناسق الذي جاءت على أساسه الوحدات التي ينشأ بها كل ما في الكون، عبرت عنه أجمل تعبير. وما يسرى على الشحنات والجسيمات والذرات والجزيئات، يسرى أيضاً على صور الحياة التي نعرف بعض أسرارها. . فلقد توحدت كل الكائنات في جزيئات عملاقة أساسية جاءت على هيئة أشربة وراثية دقيقة غاية الدقة. .

ولقد رأينا كيف جاءت هذه الأشرطة على هيئة أزواج من داخل أزواج لحكمة بالغة، وكأنما هذه لباس لتلك، أو على حد تعبير الآية الكريمة ﴿هن لباس لكم، وأنتن لباس هن﴾ . . والآية - كما هو واضح - تشير إلى أن الرجل متمم للمرأة، خاصة في عملية الجماع، فهذا من جنس تلك - أي الانسان - وظاهر عملية الجماع معروفة على مستوى الخلائق جميعا، لكن باطنها ينطوي على «لباس» آخر يتمثل في الخلايا الجنسية التي جاءت بدورها أزواجا، لتلبس احداها في الأخرى وتتممها لينشأ منها مخلوق أيا كان شكله وحجمه ونوعه! .

وحتى نطفة الانسان والحيوان التي تفرزها الذكور تحوي الخلايا الجنسية أزواجا، نصفها اناث، ونصفها ذكور، لأنها بدورها تحتوي على كروموسومات جاءت أزواجا، وفي داخلها أشرطة مسجلة، كانت أزواجا، وفي داخل الأشرطة شفرة وراثية تراكبت أزواجا، ومن هذه الشفرات تخرج شفرات أخرى مطبوعة تترك النواة وتتوجه إلى ساحة الخلية الحية، وشفراتها تحول الأحماض الأمينية إلى بروتينات جاءت لتكون أزواجا . . فهناك عشرات الألوف من أنواع البروتينات، ومن جنس البروتينات تكون الخمائر والأنزيمات . . منها ما يهدم ومنها ما يبني . . إذ أن الحياة في داخلنا وداخل جميع الكائنات تقوم على الهدم والبناء . . أي على النقيضين، لأن الهدم عكس البناء، كذلك يأتي بعضها ليؤكسد (أي يضيف الأوكسيجين إلى بعض المركبات الكيميائية، أو ليزيل منها الأليكترونات في عمليات معقدة). وبعضها الآخر يأتي ليختزل «أي يضيف الايدروجين إلى بعض مكونات الخلية أو يضيف إليها الأليكترونات» . . والأكسدة والاختزال عمليتان متناقضتان تؤديان إلى نواتج تقوم على أساسها الحياة . . انهما هنا بمثابة السالب والموجب . . هذا نقيض لذلك، وفي الوقت ذاته يتم أحدهما الآخر . ثم كانت بعد ذلك البروتينات والبروتينات المضادة «الأجسام المضادة» . . وهى

هنا بمثابة الأسلحة المضادة التي نعرفها في عالمنا المعاصر . . مع الفرق طبعا بين ما صنع الله ، وما صنع الانسان ، ففي صنع الله حفاظ على الحياة ، وفي صنع الانسان تدمير للحياة ، لأن أسلحتنا جاءت للخراب لا للعمارا . إن الاكتشافات العلمية في الذرة والمادة والكون والحياة تشير اليها اشارات لها مغزاها ومعناها ، ولا يتدبر ذلك إلا قوم يفقهون ويعملون ويفكرون . . تشير هذه الاكتشافات - كما سبق أن قدمنا بشيء من الاسهاب - إلى أن الخلق جميعه قد قام وسار على أساس النقيضين أو الزوجين ، أو على مبدأ التآلف والتضاد ، أو ظواهر الخلق اليمينية واليسارية . . الخ .

* * *

لقد عرفنا أثر أو تأثير الشحنات الكهربائية في مادة عالمنا ، ولكننا لا نعرف لبها أو جوهرها . . ولقد عرفنا كذلك أن عدد العناصر الطبيعية على أرضنا ٩٢ عنصرا (غير ما قام الانسان بتخليقه على أساس من علم وبحث ومعرفة بطبيعة الأشياء) . . ولكل عنصر منها صفات تختلف عن العناصر الأخرى ، فليس غاز الأيدروجين مثلا ، كمعدن الذهب ، ولا الرصاص كالنحاس أو الفضة ولا الزرنيخ كالصوديوم أو الكلور . . الخ . الخ ، هذا رغم أن تلك العناصر المختلفة قد نشأت من تآلف جسيمات ثلاثة متشابهة(*) ، لكن ذلك يتمخض عن حقيقة مذهلة للعقل ومثيرة . . إذ من التشابه ينشأ الاختلاف . . وطبيعي أن هذا التعبير عكس ذاك ، أو مناقض له ، وكأنا نحن نعود أيضا إلى فكرة الزوجين معنى وتجسيدها . . فمن ثلاثة جسيمات أولية لا غير ، ينشأ ٩٢ عنصرا مختلفا ، وكأنا هذه الجسيمات بمثابة «حروف» مادية ، تتألف منها «كلمات» هي الذرات المختلفة في خواصها الطبيعية والكيميائية . . انك مثلا لو اضفت قرشا إلى قرش ، أو جنيها على جنيه ،

(*) والمقصود هنا بالتشابه أن البروتونات كلها متشابهة ، وكذلك النيوترونات والإلكترونات ، فكل واحد من الثلاثة من جنس صاحبه .

لكان الناتج قرشين أو جنيهين. . هذا من صنف ذاك. . لكن اضافة جسيم إلى جسيم ، يغير من طبيعة المضاف والمضاف إليه ، أي ينشأ تكوين ذري له صفات مختلفة تماما ، أي كأنما هذه العوالم الدقيقة تسير على مبادئ أخرى غير التي نعرفها في عالمنا ، خاصة فيما يتصل بحذف واطافة الشئ إلى جنسه ! . كأنما هذه الجسيمات الذرية بمثابة لغة الله في خلقه ، أو بمثابة «كلماته» أو أمره أو وحيه في نظمه الدقيقة المجسدة لتنشأ منها عناصر الكون قاطبة . . ثم أن أقرب تشبيه لذلك هي لغتنا التي نكتبها بحروف ، لتصبح كلمات ، قد يكون لها معنى ، أو قد لا يكون . . فأما التي لها معنى ، فلا بد أن يكون من ورائها عقل مفكر . والعكس صحيح .

ثم إن الحياة لا تنشأ من عناصر أو ذرات منفصلة أو مشتتة ، بل لابد من تآلف هذا الشتات في جزيئات أعقد . . تماما كما تآلفت الجسيمات الثلاثة في ذرات أعقد . . فعندما تتآلف ذرات الكربون مع الأيدروجين مع الأوكسيجين مع النيتروجين مع الفوسفور في تبادل وتوافق ، فانها تؤدي إلى بلايين فوق بلايين من الجزئيات أو المركبات المختلفة . . وهي تقوم أيضا على مبدأ الحذف والاطافة . . فحذف ذرة واحدة أو عدة ذرات (نسميها شقا كيميائيا) من الآلاف المتآلفة ، لاشك أنها تغير صفة الجزىء ، وكذلك يكون الحال مع الاضافة . . مثلها في ذلك كمثل كلماتنا التي يتغير معناها بحذف حرف أو اضافة حرف أو تغيير حرف محل حرف ! . أي كأنما نحن نعود إلى نفس الفكرة التي أودعها الله قبل ذلك في ذراته ، فحذف أو اضافة بروتون إلى نواة الذرة ، لاشك يعطيها صفة غير التي جاءت بها عليها . . والشئ ذاته يسرى على الجزيئات الوراثية التي تعطى الكائنات صفاتها ، فرغم أن الشفرة أو اللغة الوراثية موحدة في كل الكائنات ، إلا أن اختلاف مخلوق عن مخلوق آخر في الظاهر ، إنما هو انعكاس لما يجرى في الباطن ، ولقد تطورت الكائنات على هذا الكوكب من

بساطة إلى تعقيد، والتطور يعني التغير، وفي التغير تجدد، ولولاها لبقى كل شيء آسنا راكدا كماء في مستنقع لا يفوح منه إلا كل كرية وفاسد، ثم إن التغير الذي يتم في الأشرطة الوراثية يتمخض عن طفرة جديدة، صحيح أن هذه العملية جد بطيئة، لكن أعطها عمرا طويلا يقدر بملايين وعشرات ومئات الملايين من السنين، تعطيك محصلة من طفرات لها مغزاها . . وطبيعي أن بعض هذه الطفرات سيئة، وبعضها حسن، فأما السيئة فيزول، وأما الحسن فيبقى، ثم إن الحياة قد بدأت من بساطة، وانتهت بتعقيد . . بدأت بخلية بسيطة، وانتهت بانسان عظيم، لكن يجب علينا ألا ننسى أن الانسان ذاته يبدأ حياته بخلية واحدة- هي الخلية المخصبة، وكذلك كل الكائنات التي نراها والتي لا نراها، والذي اعطى الانسان صفاته المميزة، هي القدرة الفذة التي أوحاها الله في الأشرطة الوراثية، فمن صفاتها الطفرة أو التطور أو التغير من خلال الاضافة والتنظيم والتنقيح، وكلما مر الزمن، اكتسبت الأشرطة الوراثية معلومات وراثية تؤهلها لمزيد من انتاج مخلوقات أرقى فأرقى فأرقى، حتى تتوج مشوارها الطويل بظهور الانسان العظيم . . والموضوع طويل جدا، ومثير جدا، لكن فيما قدمنا فأوجزنا الكفاية ﴿لقوم يتدبرون﴾(*) كأننا نعود بذلك أيضا إلى نفس الفكرة التي أودعها الله في الذرات . . فذرة الأيدروجين هي أبسطها، وهي التي ظهرت أولا، وكذلك الحال مع الكائنات الأولية التي ظهرت أولا كخلايا بسيطة. ومن ذرة الأيدروجين نشأت كل عناصر الكون التي تعقدت وكبرت وثقلت من خلال اضافات متتالية، حتى انتهت باليورانيوم أعقد العناصر وأثقلها، وكذلك نشأت كل المخلوقات واشتقت من الخلية الأولى التي تعقدت بدورها من خلال الاضافات التي تمت في أشرطتها الوراثية حتى انتهت بأرقى وأثمن مخلوق

* لمزيد من التفاصيل - انظر كتابنا «نحن كتب مكتوبة، من سلسلة سائح في ملكوت الله . . تحت الطبع - دار الشروق بالقاهرة.

ليأتي على هيئة انسان، وكل هذا يحدث من خلال فكرة كونية أرسى الله قواعدها في بدايات خلق الأشياء التي جاءت أزوجا.

حتى الجزيئات التي ظهرت على هذا الكوكب قد سارت أيضا من بساطة إلى تعقيد، وتحولت فيها من صورة غير عضوية إلى صورة عضوية مناسبة لظهور الحياة، ولقد ظلت هذه الجزيئات تتفاعل وتتطور وتضيف وتتعدد، وفي كل أمر من هذه الأمور كانت هناك أسس عظيمة من لدن حكيم مقتدر، وعلى هذه الأسس القويمة المنظمة، ظهرت نظم من فوق نظم وهلم جرا، ثم إن معظم هذه النظم لازالت تحيرنا أعظم حيرة. . فنحن مثلا لا نستطيع أن نعرف لماذا جاءت الأحماض الأمينية في بدايات خلقها أزوجا - أي بصورة يمينية وأخرى يسارية - كما سبق أن أوضحنا في الفصل التاسع. . أو لماذا جاء الشريط الوراثي ليدور حول نفسه في شكل حلزوني يميني، أو لماذا اختارت الحياة السكريات اليمينية. . الخ. كل هذا - وغيره كثير - لازل سرا خافيا، ومن أجل هذا كان التعبير القرآني في آخر الآية التي تحدثت عن خلق الأزواج مناسبة تماما في هذا المجال ﴿وما لا يعلمون﴾.

وفي هذا المجال أيضا يذكر لنا البروفيسور ليزلى أورجيل الأستاذ السابق بجامعة كمبريدج، والحالي بجامعة كاليفورنيا، وهو واحد من المتخصصين في نشأة الحياة على الأرض، يذكر «ربما لن نعرف أبدا من وجهة نظر التاريخ القديم ما يمكن أن يكون قد تم بالضبط منذ ثلاثة آلاف مليون عام، لكى تسود الكائنات اليسارية على كوكبنا. . ان نشأة وتطور هذه الكائنات ليس إلا جزءا من عملية أكثر شمولية، لكى يتأسس عليها النظام البيولوجي الذي نعرفه الآن». . ثم يستطرد متسائلا: «كيف سارت الأمور حقا في بدايات الحياة، لكى ينتصر نظام يساري على نظام يميني، رغم أن الفرص كانت مهيأة لنشوء هذا مع ذاك؟ ثم ما هى العوامل التي شجعت على وجود الكائنات اليسارية، واختفاء اليمينية».

ويجب اورجيل على ذلك «ان كلا السؤالين لا يمكن الاجابة عليهما اجابة مقنعة» .

ان اورجيل يقصد بالكائنات اليسارية هنا تلك الكائنات المعروفة لنا الآن بأنها جاءت بأحماض أمينية يسارية، لتدخل في بناء بروتيناتها - كما سبق أن قدمنا - لكن الذي يهمننا هنا أن العقل البشري الباحث في أسرار كون الله تخيم عليه حيرة كبرى، لأن ما يُجهل أكثر بكثير مما يُعلم ﴿ومما لا يعلمون﴾! . وكما لا نعلم لماذا سادت الأحماض الأمينية اليسارية، أو الجزئيات الوراثة اليمينية، واختفت نظائرها المعكوسة، كذلك لا نعلم الحقيقة في كيفية تكوين الأكوان اليمينية واليسارية، أو كيف بُوعِدَ بينها، أو أين توجد، ولماذا أصبحنا نحن في كون يميني، أو ربما في كون يساري . . فلسنا ندري الحقيقة، وكل ما ندريه أنها أسماء سمينها، لنقرب بها الصورة إلى أذهاننا، اذ مما لاشك فيه أن المخلوقات النقيضة التي ربما تسكن في أكوان نقيضة كذلك، والتي ربما تفكر مثلما نفكر، سوف تعتبر أنفسها بمثابة أكوان عادية، واننا - بالنسبة لشحنات ومجالات عالمها - سنكون أكوانا نقيضة، ومخلوقات نقيضة . . لكن أين الحقيقة؟ .

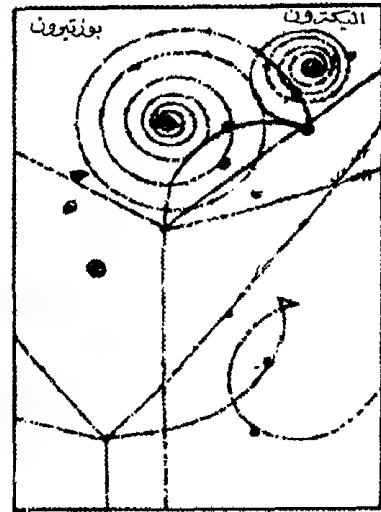
لا أحد يدري . . و . . ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون﴾ . . وما أكثر ما لا نعلم من أسرار الكون والحياة . . ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ .

« جفت الأقلام، وطويت الصحف » .

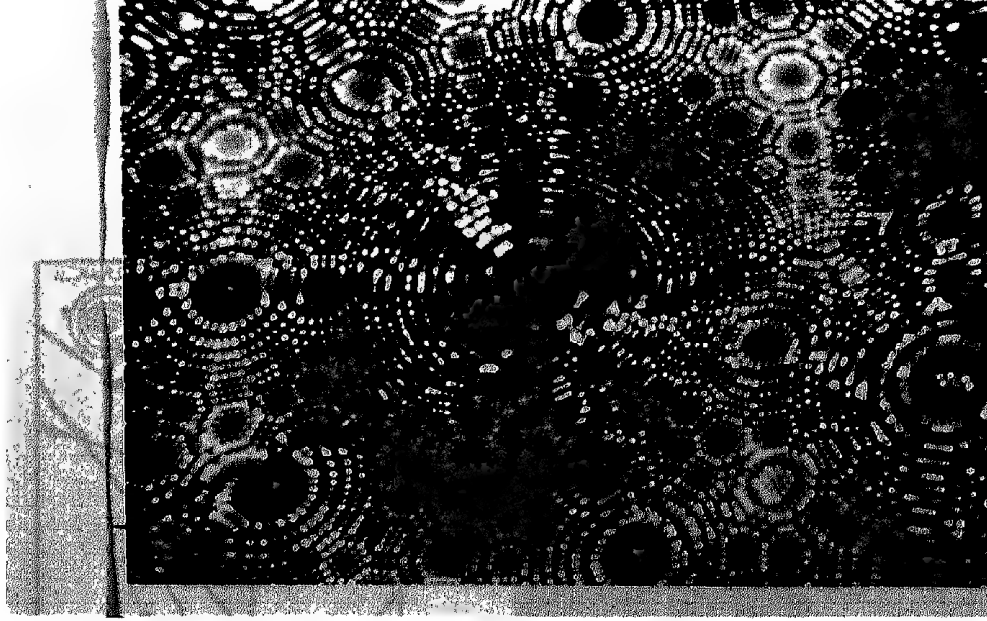
كتب صدرت للمؤلف

- ١ - الميكروبات والحياة
 - ٢ - دورات الحياة
 - ٣ - الفطريات والحياة
 - ٤ - أسرار المخلوقات المضيئة
 - ٥ - الفيروس والحياة
 - ٦ - معارك وخطوط دفاعية في جسمك
 - ٧ - لماذا نموت ؟!
 - ٨ - الإنسان والنسبية والكون
 - ٩ - مذكرات ذرة
 - ١٠ - هل لك في الكون نقيض ؟!
 - ١١ - زوجات مفترسات
 - ١٢ - أنت كم تساوى ؟
 - ١٣ - مسكين عالم الذكور
 - ١٤ - الإنسان الحائر بين العلم والخرافة
 - ١٥ - التنبؤ العلمى ومستقبل الإنسان
 - ١٦ - من كل شىء موزون
- الهيئة العامة للكتاب - القاهرة
- الهيئة العامة للكتاب - القاهرة
- الهيئة العامة للكتاب - القاهرة
- الهيئة العامة للكتاب - القاهرة
- الهيئة العامة للكتاب - القاهرة
- الهيئة العامة للكتاب - القاهرة
- الهيئة العامة للكتاب - القاهرة
- الهيئة العامة للكتاب - القاهرة
- دار المعارف - القاهرة
- الهيئة العامة للكتاب - القاهرة
- دار الهلال - القاهرة
- دار الهلال - القاهرة
- دار الشروق - بيروت
- سلسلة عالم المعرفة - الكويت
- سلسلة عالم المعرفة - الكويت
- شركة مكتبات عكاظ - السعودية

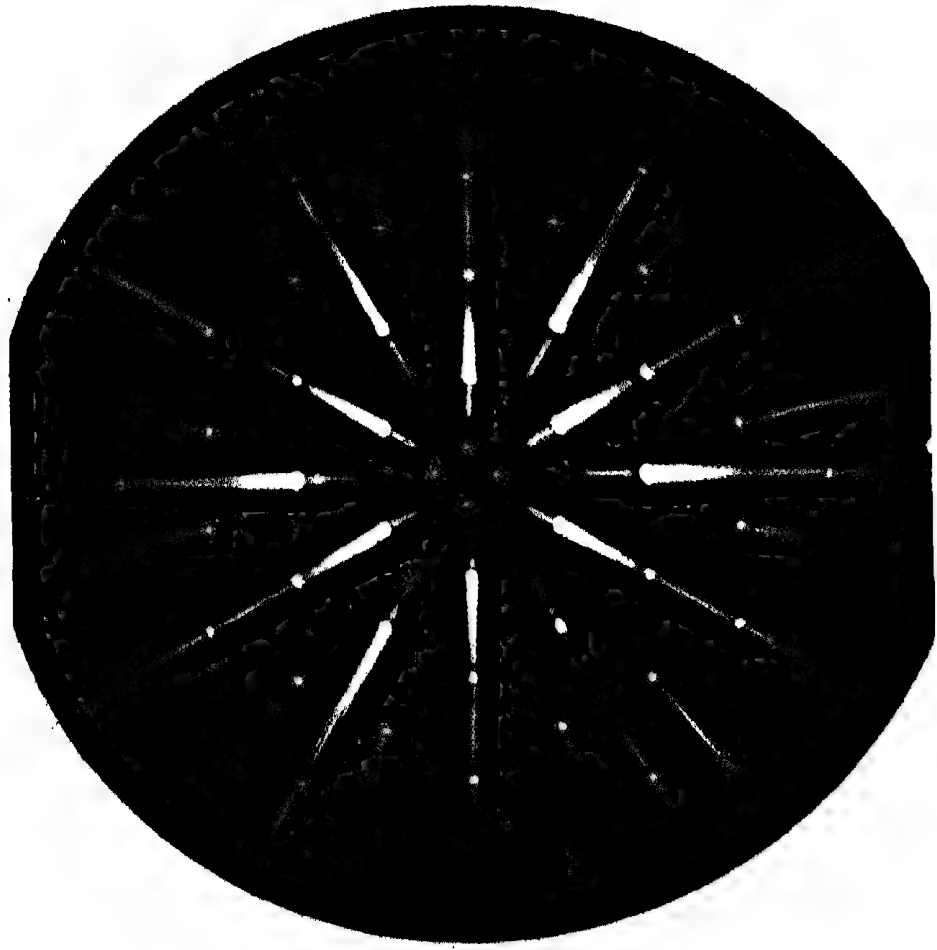
ماحق الأشكال



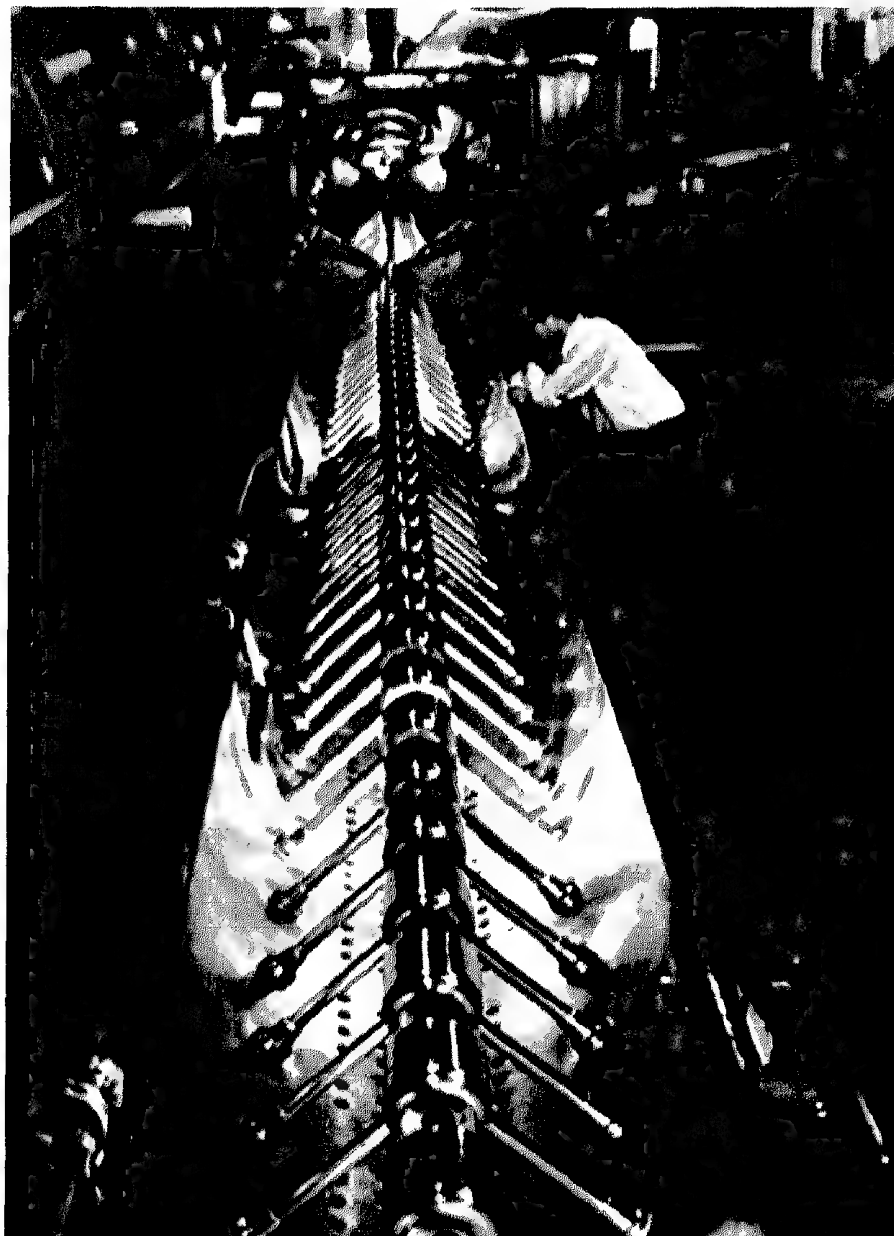
شكل (١) لكل خلق بداياته وآثاره . . والصورة توضح الآثار التي تتركها الجسيمات الذرية على الألواح الحساسة . . وفي أعلى الصورة (الى اليسار) سجل العلماء ولادة اليكترون يدور في عكس اتجاه عقرب الساعة ، وفي نفس اللحظة ظهر نقيضه «البوزيترون» ليدور في اتجاه عقرب الساعة ، أى أن بداية الخلق هنا قد جاءت زوجين من تجسيد لكمية محددة من الطاقة . . والمربع إلى اليمين يوضح تفاعل جسيمات المادة من خلال مساراتها التي ظهرت في الصورة اليسرى .



شكل (٢ أ) إذا كان في الخلق الظاهر تناسق، فإن ذلك ينطوى على تناسق أدق وأبداع في الباطن. . فالمادة -أية مادة- قد تبدو لنا شيئا عاديا، لكنها تحتوى على نظم كأنما خطتها يد فنان مقتدر، والصورة توضح بلورة لأحد العناصر التي تتألف ذراتها في هذا النظام المتناسق البديع، وكل بقعة ضوئية تمثل ذرة واحدة، لكن. . هل يمكن أن يسرى التناسق إلى مداه، فيكون هناك كون وكون نقيض على هيئة زوجين؟. . راجع الأصل.

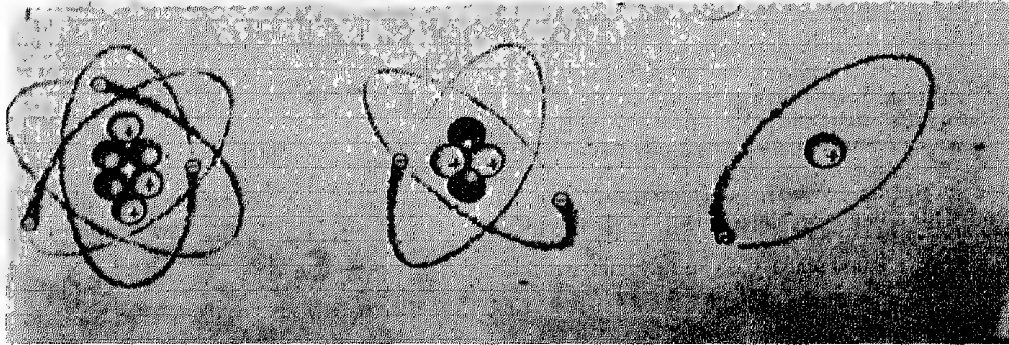


شكل (٢ ب) صورة أخذت بطريقة الانحراف أو الحيود للأشعة السينية المسلطة على بلورة
ثلج واحدة، وهي توضح التناسق والتوازن في القوى الطبيعية التي تسيطر على المادة، فتوضحها
لنا على هيئة لوحات فنية تنطق بالدقة والنظام.

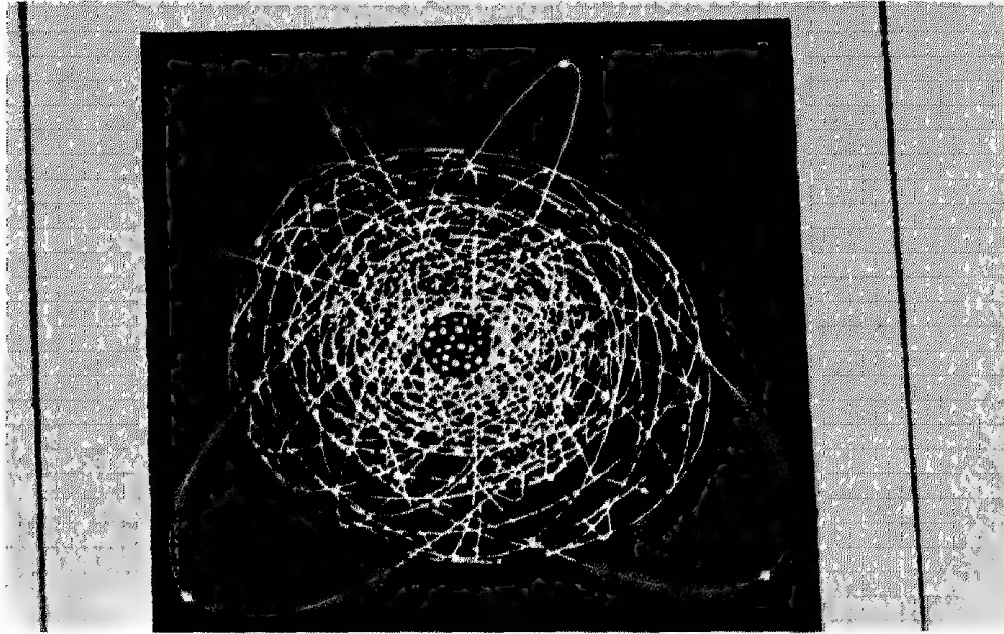


شكل (٣) مفاعل أو «معجل» ذرى جبار، وقد يبلغ طوله فى بعض الأحيان عدة كيلو مترات، وفيه تجرى الجسيمات الذرية بسرعة قريبة من سرعة الضوء، وعندما تصطدم بهدف، تتحول الطاقة التى كانت تندفع بها إلى جسيمات مختلفة، وقد تأتى أزواجا.

143

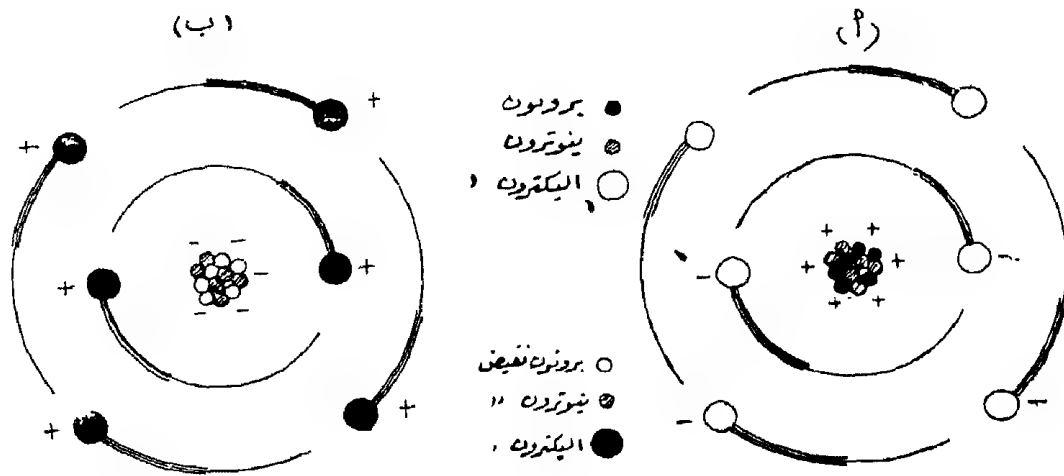


(أ)

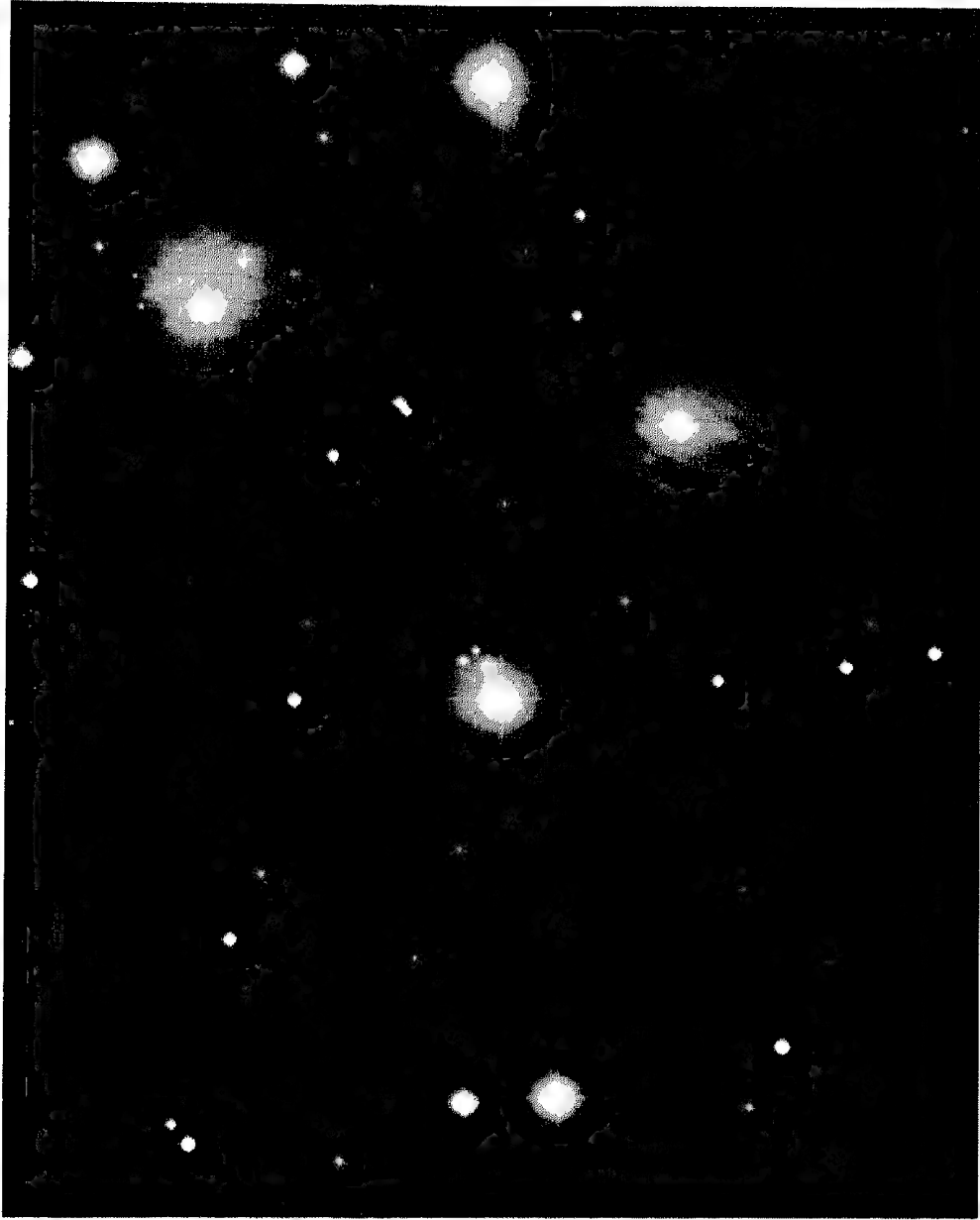


(ب)

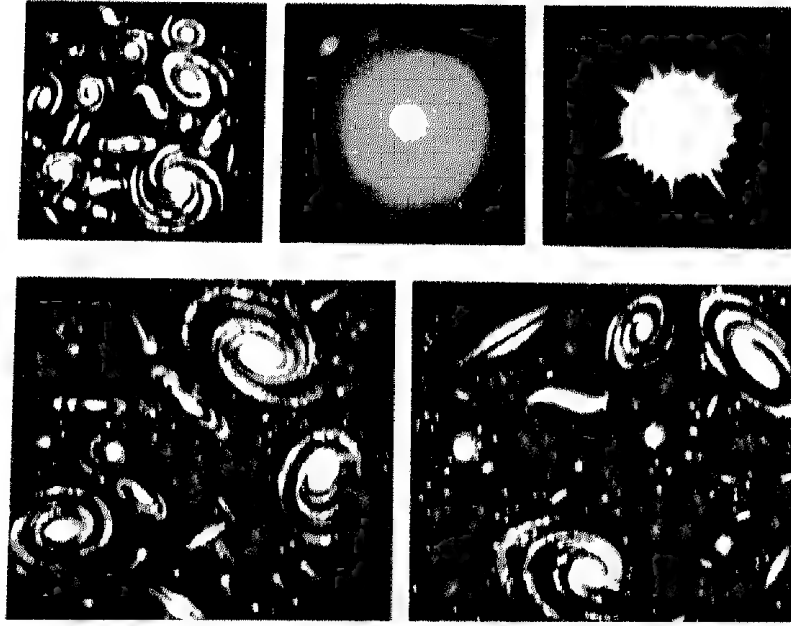
شكل (٥ أ ، ب) يوضح ببساطة تركيب الذرات من جسيمات ، فنها تبدأ بذرة الايدروجين أبسط الذرات شأننا (١ إلى اليمين) ، ثم ذرة أعقد قليلا (هيليوم في الوسط (١)) ، ثم ليثيوم (إلى اليسار) وبها نواة تتكون من ثلاث بروتونات موجبة الشحنة (+) وثلاث نيوترونات متعادلة ، ويطوف حولها ثلاث اليكترونات . . ثم تتعقد الذرات بعد ذلك ، حتى نصل إلى ذرة اليورانيوم (ب) ، فنجد « غابة » من الاليكترونات التي تطوف حول النواة في مدارات معقدة ، لكنها منظمة أروع نظام .



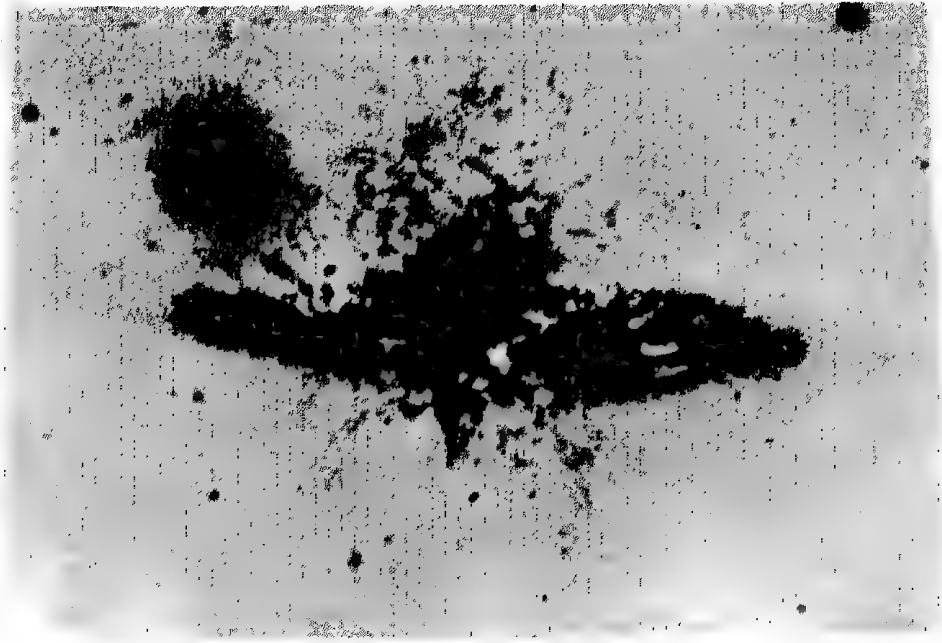
(شكل ٦) ذرة كربون (أ) وذرة كربون نقيضة (ب). . لاحظ ان الشحنات الكهربائية قد عكست في كليهما. . وكأنهما يمثلان لنا بوزيتيف ونيجاتيف أو ذرة وذرة نقيضة.



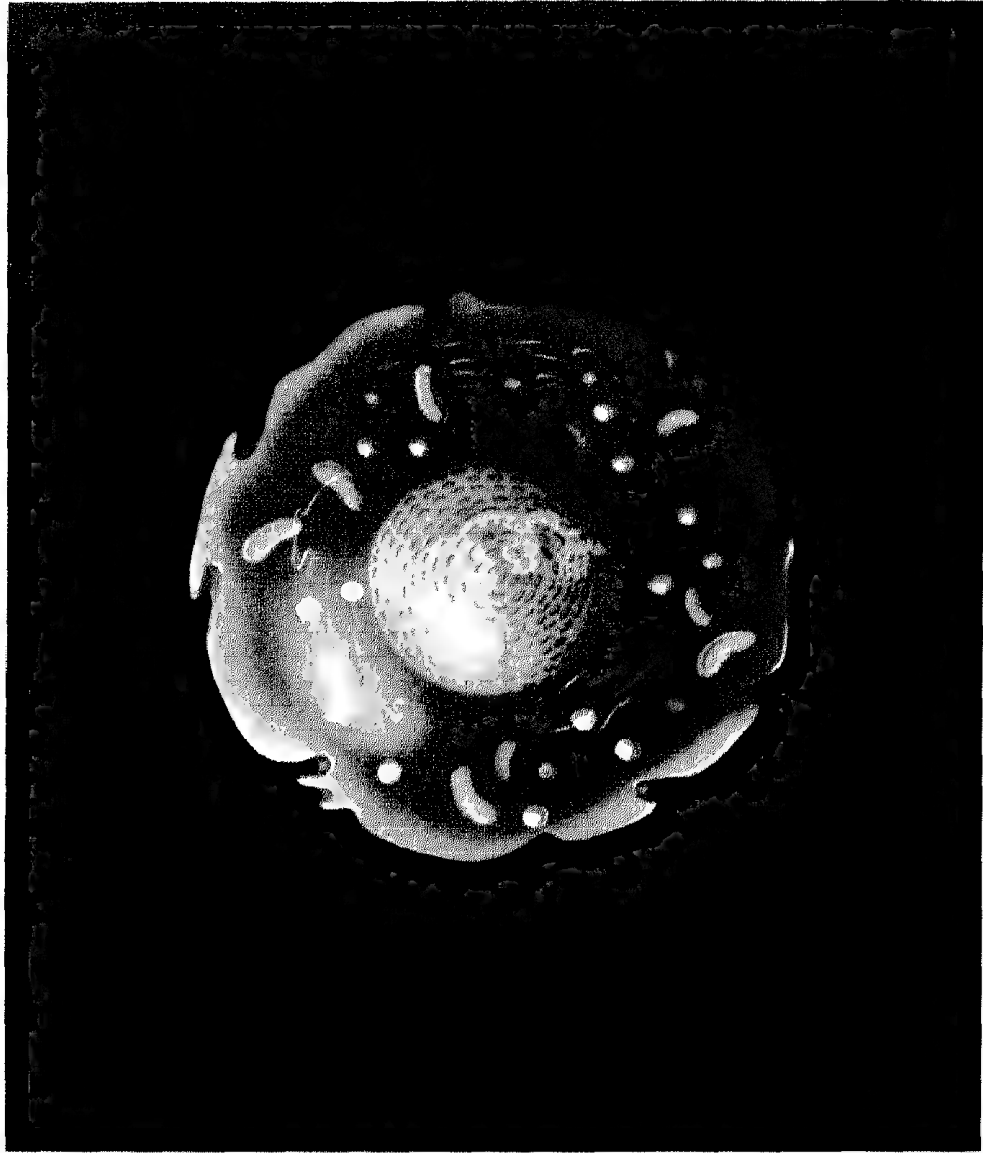
شكل (٧) جزء ضئيل في قطاع من السماوات، ليرينا بهاءها وغموضها، لكن أحدا لا يستطيع أن يحدد أى هذه الأجرام من مادة عالمنا، أو من مادة نقيضة، فنحن نراها من خلال أضوائها، وليس للضوء نقيض (المسافة بيننا وبينها ٣٠٠ سنة ضوئية).



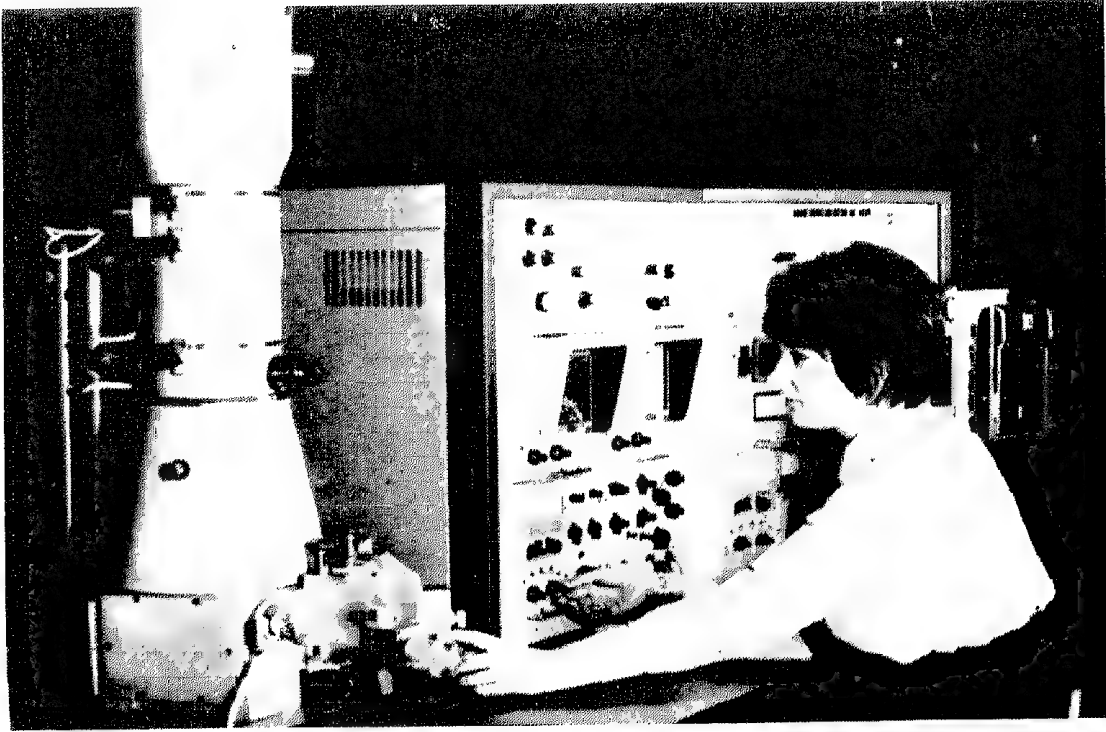
شكل (٨) يعتقد علماء الفلك أن الكون قد نشأ من أصل واحد، وهذه الصورة التوضيحية تبين الخطوات (من اليمين إلى اليسار) التي أدت إلى تكوين المجرات (إلى أسفل)، ثم أخذت هذه تجرى وتبتعد عن بعضها حتى يومنا هذا.



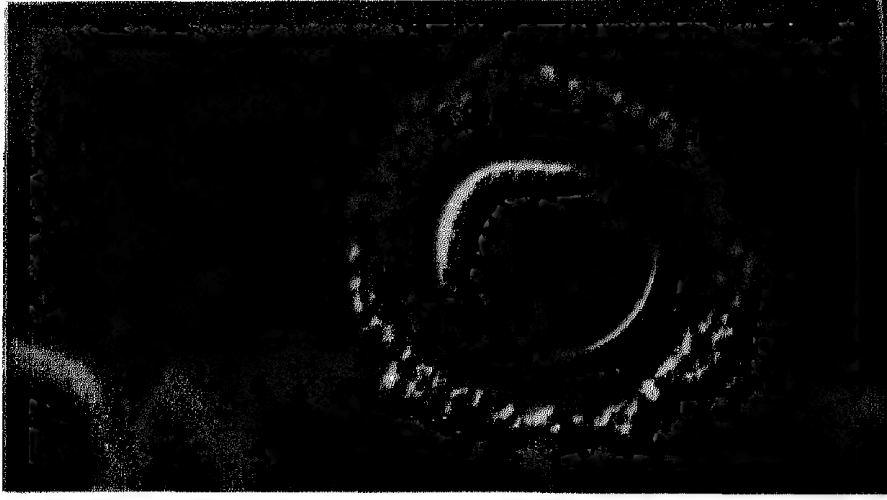
شكل (٩) صورة فريدة التقطها العلماء من السماء لمجرتين ملتحمتين، وكأنا احدهما تبين الأخرى، ويعتقد بعض العلماء أن المجرتين من مادة ومادة نقيضة. . لكن أحدا لا يدري يقينا ماذا تخبئه السماوات من أسرار ضخمة ومثيرة (بيننا وبينها مسافة تقدر بحوالى ١٠ مليون سنة ضوئية) .



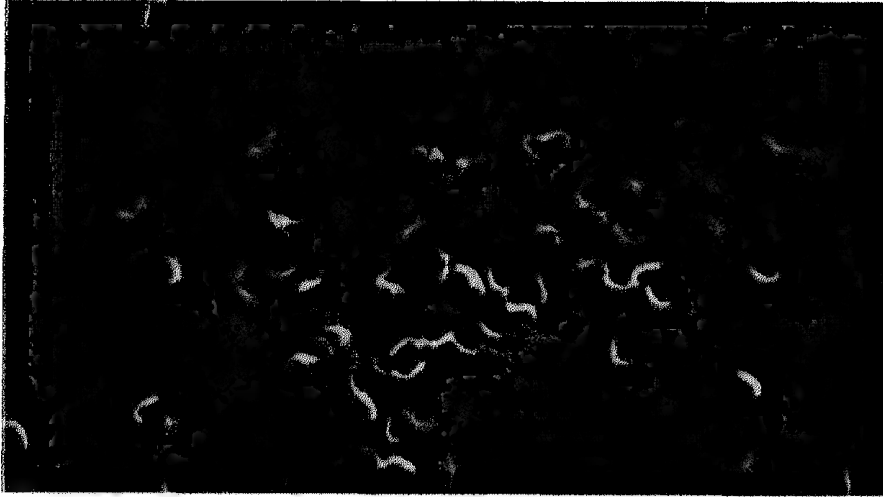
شكل (١٠) وحدة الحياة تتمثل لنا في خلية، ولكل خلية نواة (في وسط الخلية) وفي السيتوبلازم تنتشر مرافقها، ولا تهملنا هنا إلا بقدر ما يهمنا أن نعرف أن ما بداخل النواة قد جاء أيضا على فكرة الزوجين، ولينشأ منه خلايا جنسية ذكرية وأنثوية، وسوف يتضح معنى ذلك في حينه.



شكل (١١) عين من عيون العلم الجبارة (الميكروسكوب الاليكترونى) التى تكبر الأشياء عشرات ومئات الألوف من المرات، فتوضح لنا معنى الأزواج التى جاءت من داخل الأزواج.

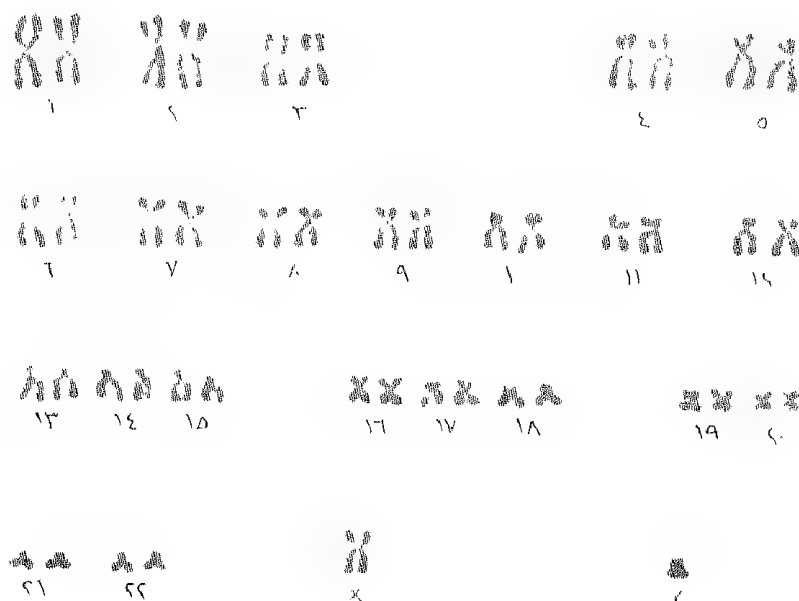


(أ)

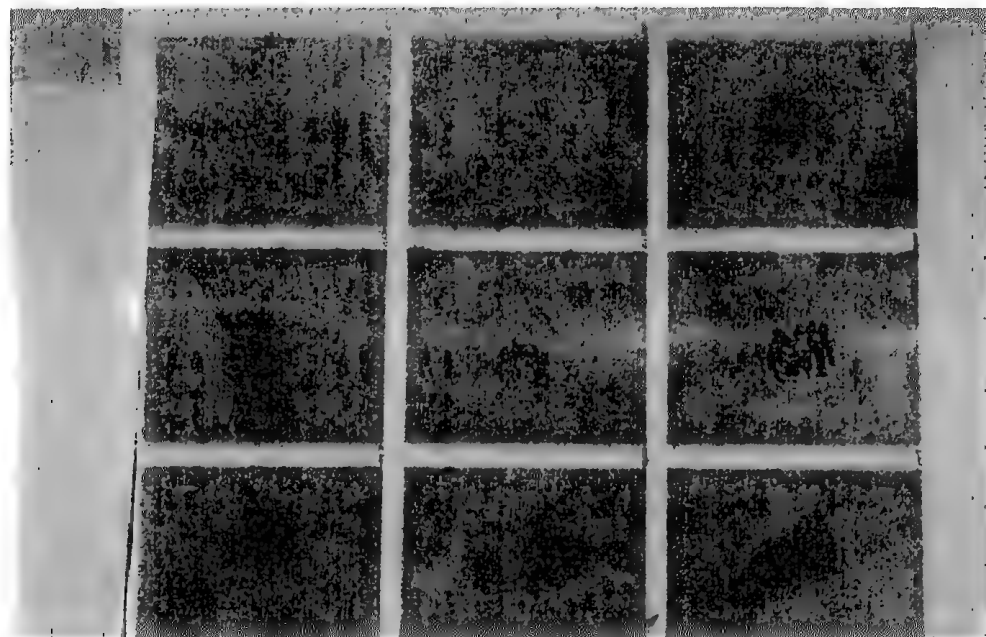


(ب)

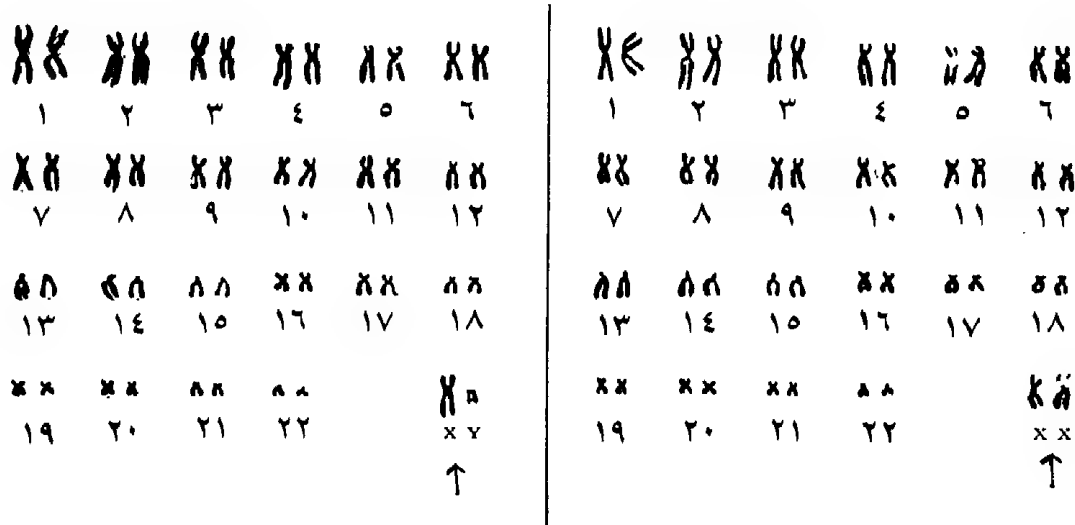
شكل (١٢ ، ب) وتحيىء الخلايا الجنسية أزواجاً، فالى اليمين (١) خلية جنسية انثوية يفرزها مبيض الأنثى وتعرف بالبويضة، وهى أكبر من الحيوانات المنوية مئات المرات، وحتى الخلايا الذكرية (ب) جاءت أزواجاً، وهى مكبرة هنا كثيراً، لكننا لا نستطيع أن نميز فيها الخلية الجنسية التى تحمل عامل الذكورة أو الأنوثة، فذلك يحتاج إلى نظرة أعمق، لنرى «الأزواج» التى فى الباطن! .



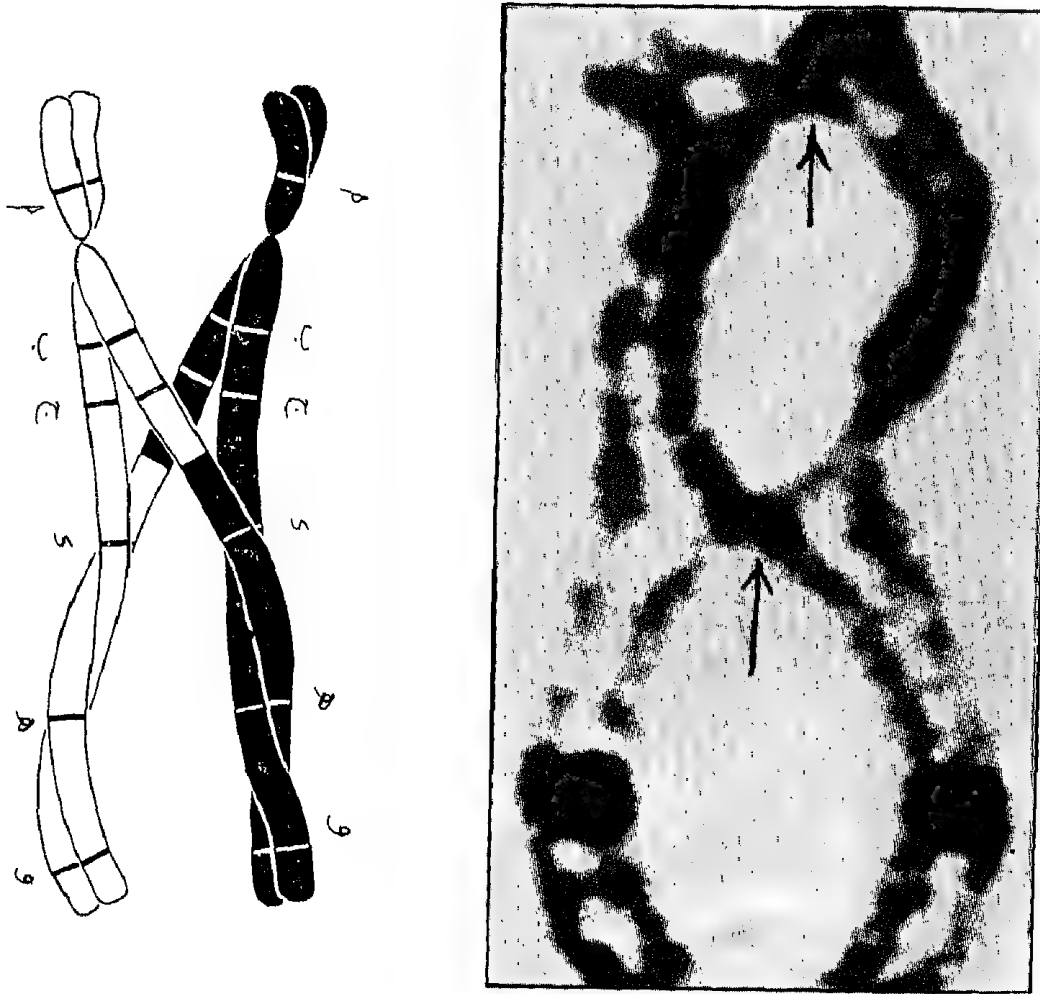
شكل (١٣) يوضح كروموسومات الإنسان الذكر، وهى هنا ٢٢ زوجا + كروموسوم ضئيل (ص) يمثل الذكورة، وكروموسوم كبير (س) يمثل الذكر، فإذا وجد الكروموسوم الجنسى الصغير فى الحيوان المنوى كان المولود ذكرا، وإذا وجد الكروموسوم الكبير فى الحيوان المنوى، كان حاملا لصفات الأنوثة، وإلى هنا يتضح لنا الحكمة من وجود الأزواج فى الكروماتومات (التكبير ١٨٠٠ مرة).



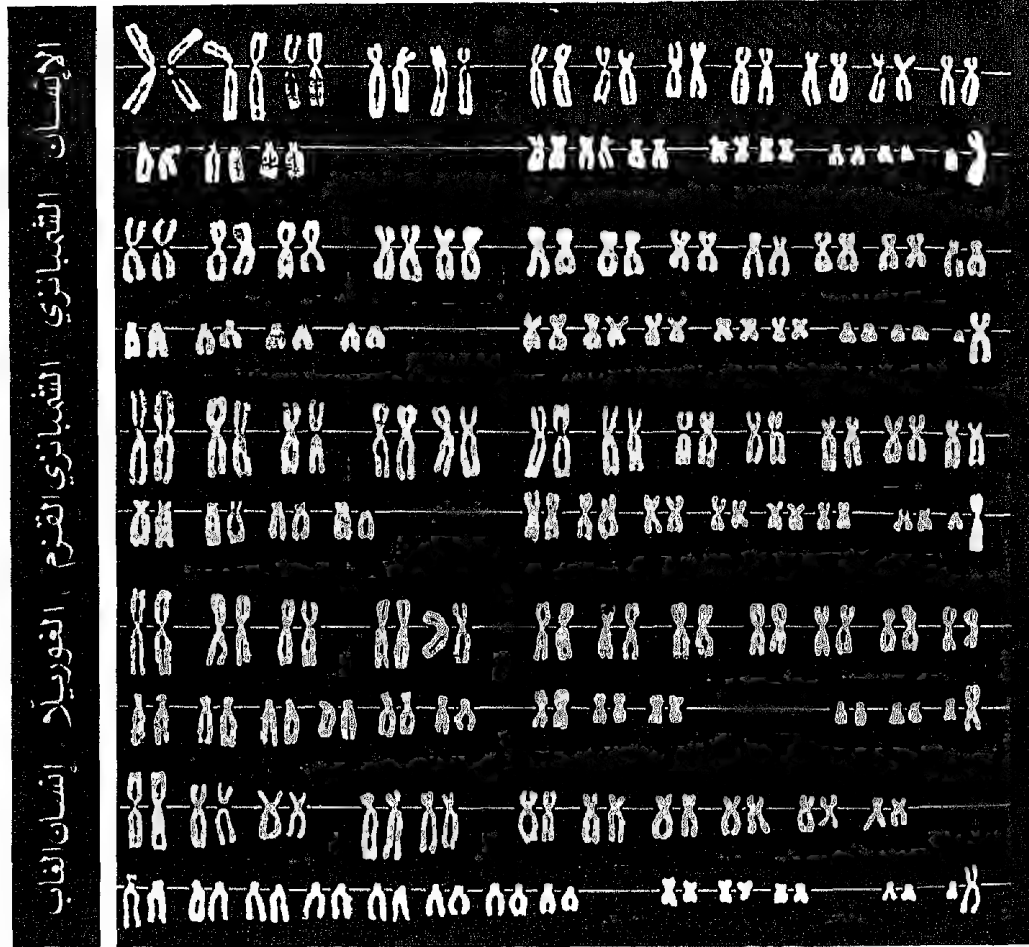
شكل (١٤) تعتمد خلايا جميع أنواع المخلوقات في النكاث على فكرة عملية الانقسام في الأزواج، فلقد جاء كل كروموسوم على هيئة نسختين أو زوجين طبق الأصل، لكن هذه الأزواج لا تظهر إلا إذا بدأت نواة الخلية في عملية الانقسام. . والصورة توضح الخطوات التي تتم في عملية هذا الانقسام. . ١ - نواتان خلّيتين متجاورتين، ٢، ٣، ٤ - ظهور الكروموسومات بالتدرّج في أحدهما وتضاعف أعدادها، ٥، ٦ - انتظام الأزواج على خط استواء الخلية، ٧ - بداية الهجرة إلى قطبي الخلية، ٨ - بداية تكوين نواتين جديدتين طبق الأصل من النواة الأم، ٩ - نهاية العملية حيث تتضح النواتان ثم يعزل بينهما بجدار ليحدد معالم الخليتين الجديدتين.



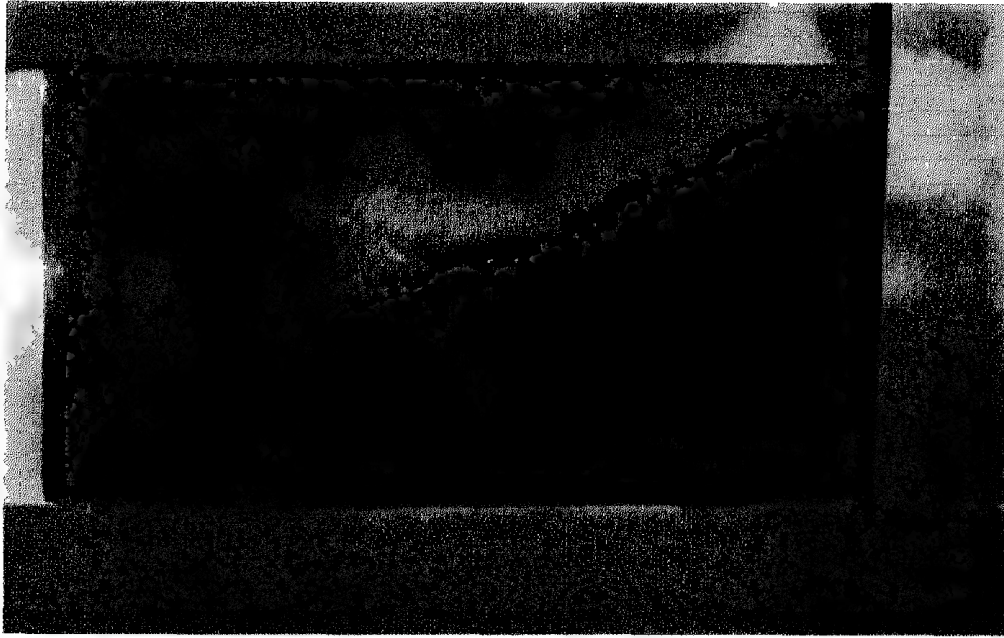
شكل (١٥) يحتفظ كل نوع من أنواع المخلوقات بعدد ثابت من الكروموسومات . . والصورة توضح كروموسومات أنثى الإنسان (إلى اليمين) وكروموسومات ذكر الإنسان (إلى اليسار) . . لاحظ أن الكروموسومات في الذكر والأنثى صورة طبق الأصل من بعضهما، كما أن كل كروموسوم قد جاء زوجين طبق الأصل من بعضهما . . لكن الاختلاف الوحيد يقع في الزوج الأخير (المشار إليه بسهم) . . ففي الأنثى يأتي الكروموسومان متشابهين (XX)، وفي الذكر يحدث اختلاف فيأتي أحدهما صغيرا (Y) والآخر كبيرا (YX).



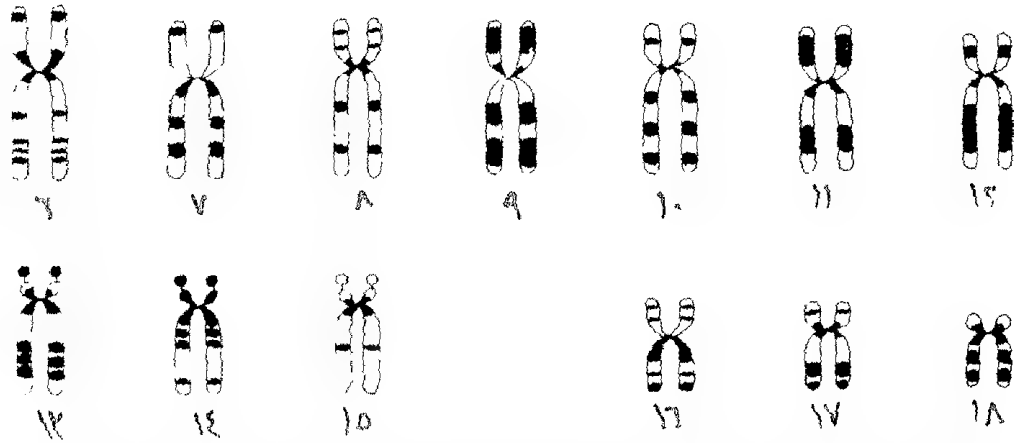
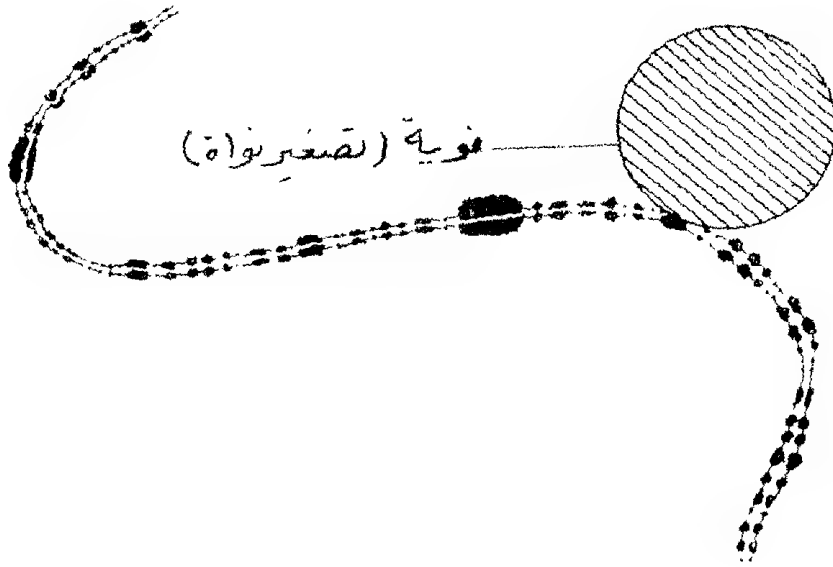
شكل (١٦) يلاحظ دائما أن كل زوج من الكروموسومات المتشابهة تماما تحتضن بعضها قبل عملية الانقسام، وكأنما هذه قد أصبحت لباسا لتلك، فتأخذ منها وتعطيها، وكأنما نحن أمام عملية «تفنيط» بين مكونات الكروموسومات، وبعد تبادل الأخذ والعطاء ينفصلان، والصورة التي إلى اليمين توضح عملية «عبور» وراثي بين الكروموسومين في منطقتين مشارا إليهما بسهمين، والصورة إلى اليسار توضح مبسط لهذه العملية الدقيقة التي تؤدي إلى اختلاف في صفات أفراد النوع الواحد، فلا يتشابه فرد مع آخر. (الحروف الكبيرة تشير إلى صفات سائدة، والصغيرة إلى صفات منحنية).



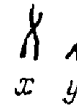
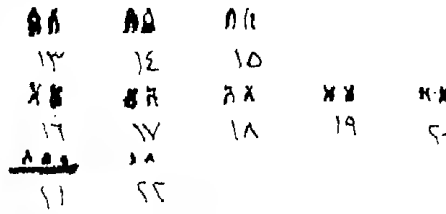
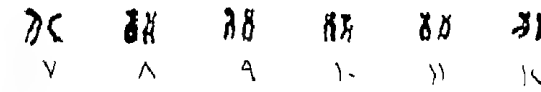
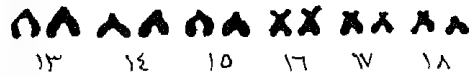
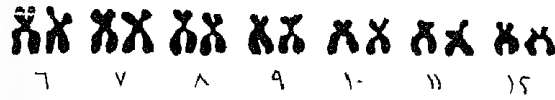
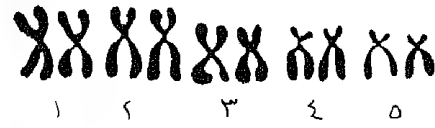
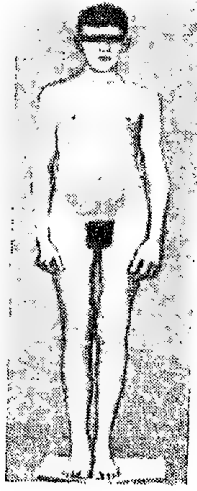
شكل (١٨) تشترك كل الكائنات الحية في فكرة موحدة - فكرة مجيء صفاتها الوراثية على كروموسومات تأتي أزواجا - والصورة توضح ذلك بين الإنسان والقردة العليا. . صحيح أن الظاهر هنا متشابه، لكن المضمون مختلف، ليأتى الإنسان إنسانا، والقرد قردا، والثعبان ثعبانا. . الخ. . الخ.



شكل (١٩) صورة مكبرة للكروموسومات لخلية من احدى غدد ذبابة الفاكهة، وفيها تظهر الجينات كحبات بعد صبغها بأصباغ خاصة. . لكن هذه الجينات بدورها قد جاءت أزواجا، ولكي نراها كذلك، فعلى أن ننظر إلى الشكل التالى (شكل ٢٠).



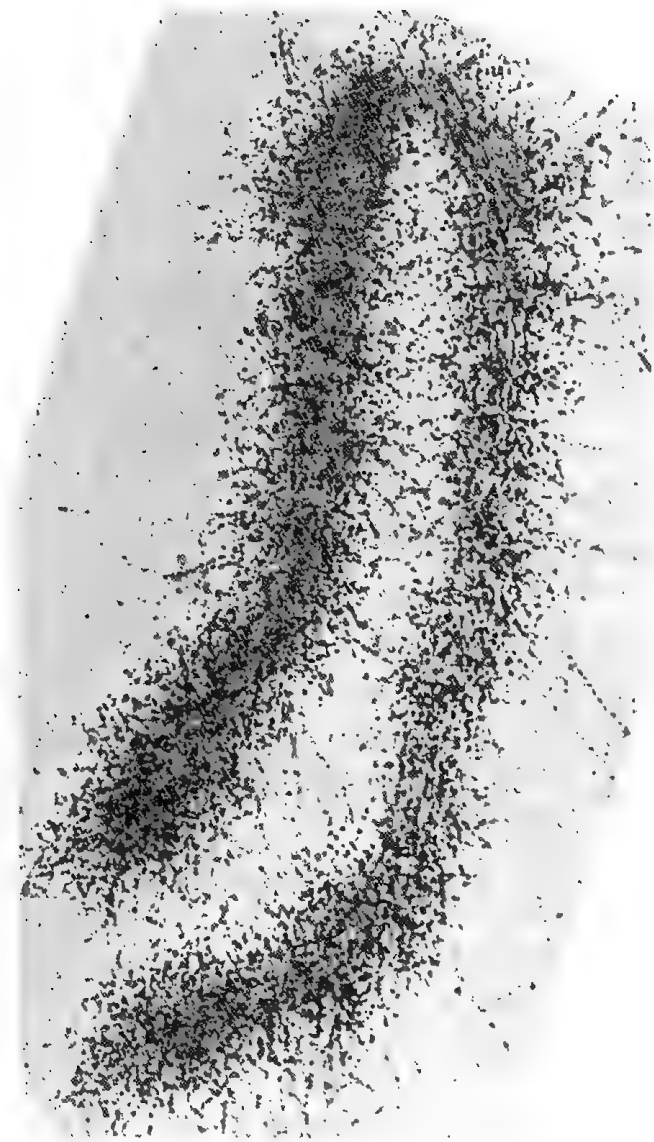
شكل (٢٠) يوضح كيف أن الكروموسوم يحمل نسخة طبق الأصل من جينات الكروموسوم الآخر، وإن لكل جينة ما يقابلها (إلى أعلى) وفي الصورة السفلى تظهر بعض كروموسومات الإنسان (من الكروموسوم ٦ - ١٨) وقد جاءت أيضا بمناطق متشابهة تماما على شقي كل كروموسوم، وذلك بعد صبغها بأصباغ خاصة، وهذا يوضح أن كل شق متمم لصاحبه، أو هما كالأزواج التي نعرفها في حياتنا.



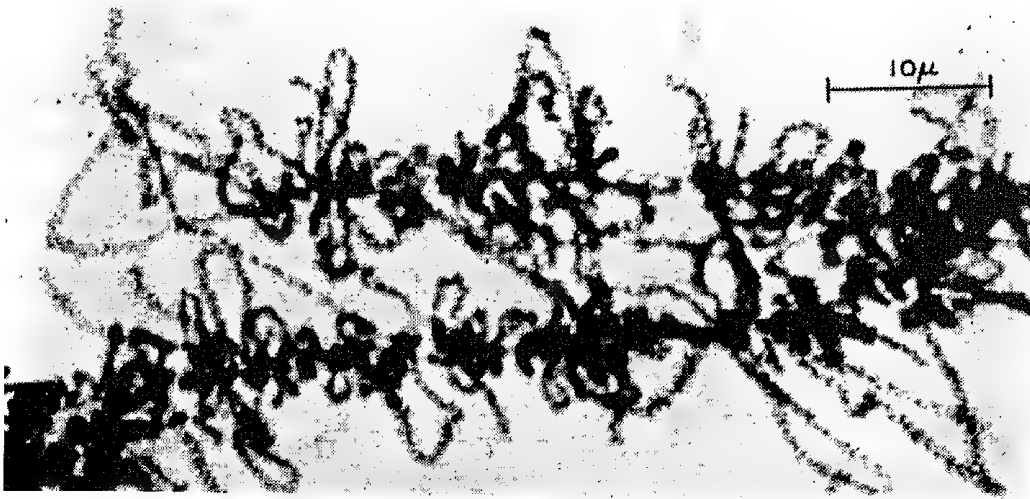
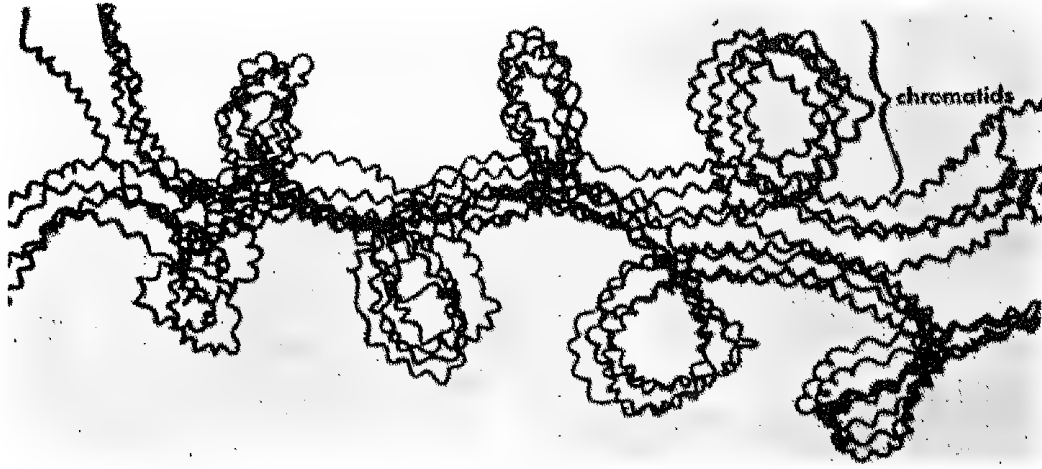
شكل (٢١) إن الاختلاف في كروموسوم واحد زائد أو ناقص، قد يؤدي إلى عديد من الأمراض الوراثية، وعلى رأسها البله أو التخلف العقلي. . والصورة توضح حالتين لصبي عمره ١٥ عاما، بطول غير عادي، وساقين طويلتين ورفيعتين، وضمور في غده الجنسية، وتخلف عقلي، وذلك نتيجة وجود كروموسوم انثوي (X) زائد (تحت خط)، وطفل عمره تسع سنوات (إلى أسفل)، وبه -كما ترى- تخلف عقلي واضح، لأن الزوج ٢١ قد جاء بكروموسوم صغير زائد.



شكل (٢٢) تمنع في وجوه هؤلاء البشر، عندئذ لن نجد اثنين متشابهين. . وكذلك في كل الخلائق، والسر يكمن في «تفنيط» المورثات أثناء عمليات العبور الجيني (انظر شكل ١٦) أو تغلب صفة سائدة على صفة متنحية. . الخ، وهنا تكمن الحكمة في مجيء الكروموسومات أو الجينات أزواجا أزواجا.



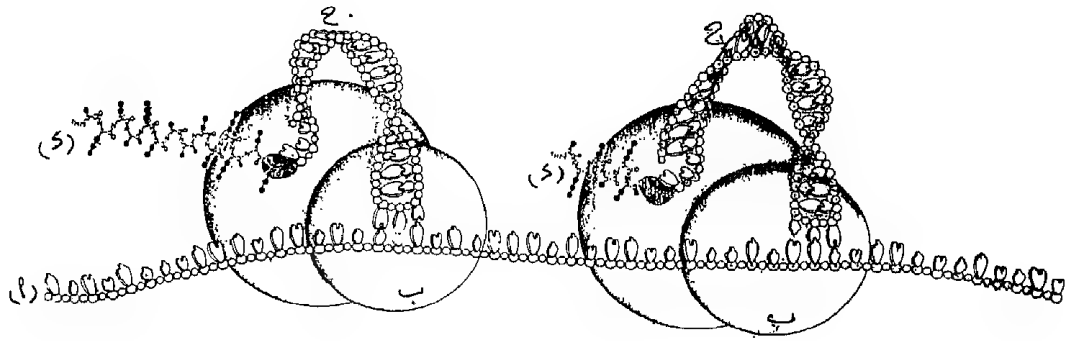
شكل (٢٣) هذه «الغابة» المتشابكة من الخيوط الدقيقة (الأشرطة الوراثية) الموجودة في كروموسوم ماكانت لتظهر لعيوننا لولا وجود الميكروسكوبات الاليكترونية، والصورة هنا مكبرة ٢٨٥٠٠ مرة، ومع ذلك فلم يتضح لنا باطن هذه الأشرطة، والباطن ينم عن وجود أزواج من الشرائط ملتفة بأزواج.



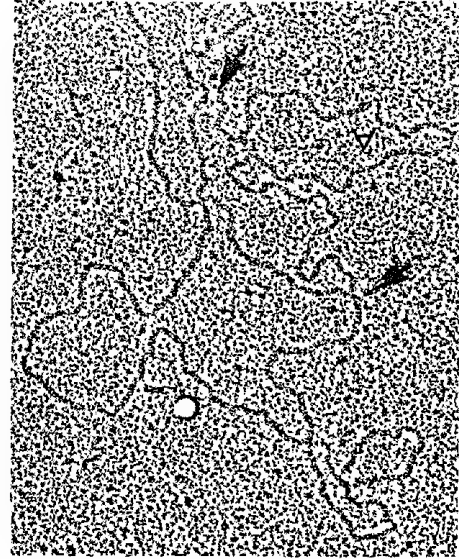
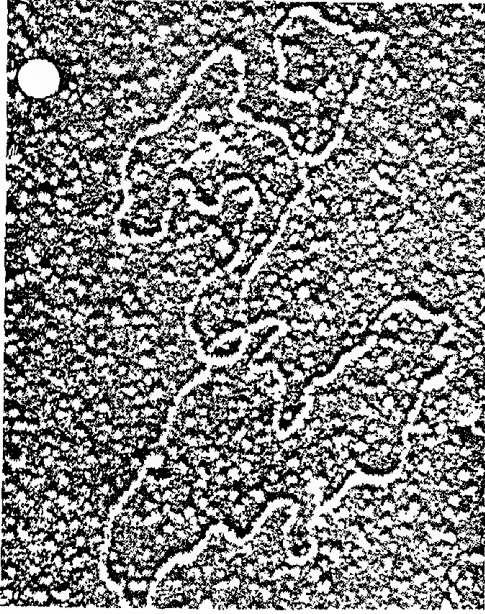
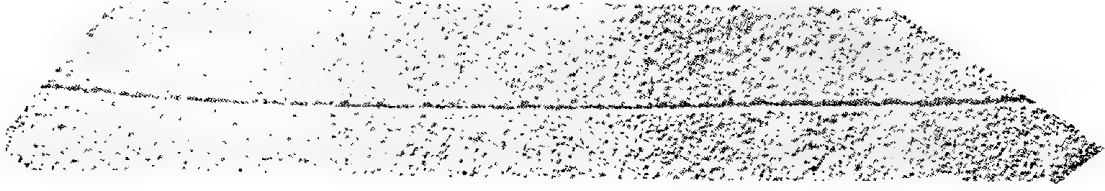
شكل (٢٤ أ) أحيانا ما تطوى الكروموسومات في داخلها شرائط وراثية . . وهي أيضا وكما تراها هنا- تأتى أزواجا أزواجا . . والشرائط التى تخرج من مسارها على هيئة بروزات ملتفة تظهر فقط عند انقسام الخلية، وهى التى تبدو لنا بالقوى التكبيرية الصغيرة نسبيا على هيئة عقد او حبات متراصة، والتى اطلقنا عليها قبل ذلك اسم الجينات (قارن ذلك بشكل ١٩، ولزيد من التوضيح انظر الشكل التالى (٢٤ ب)).



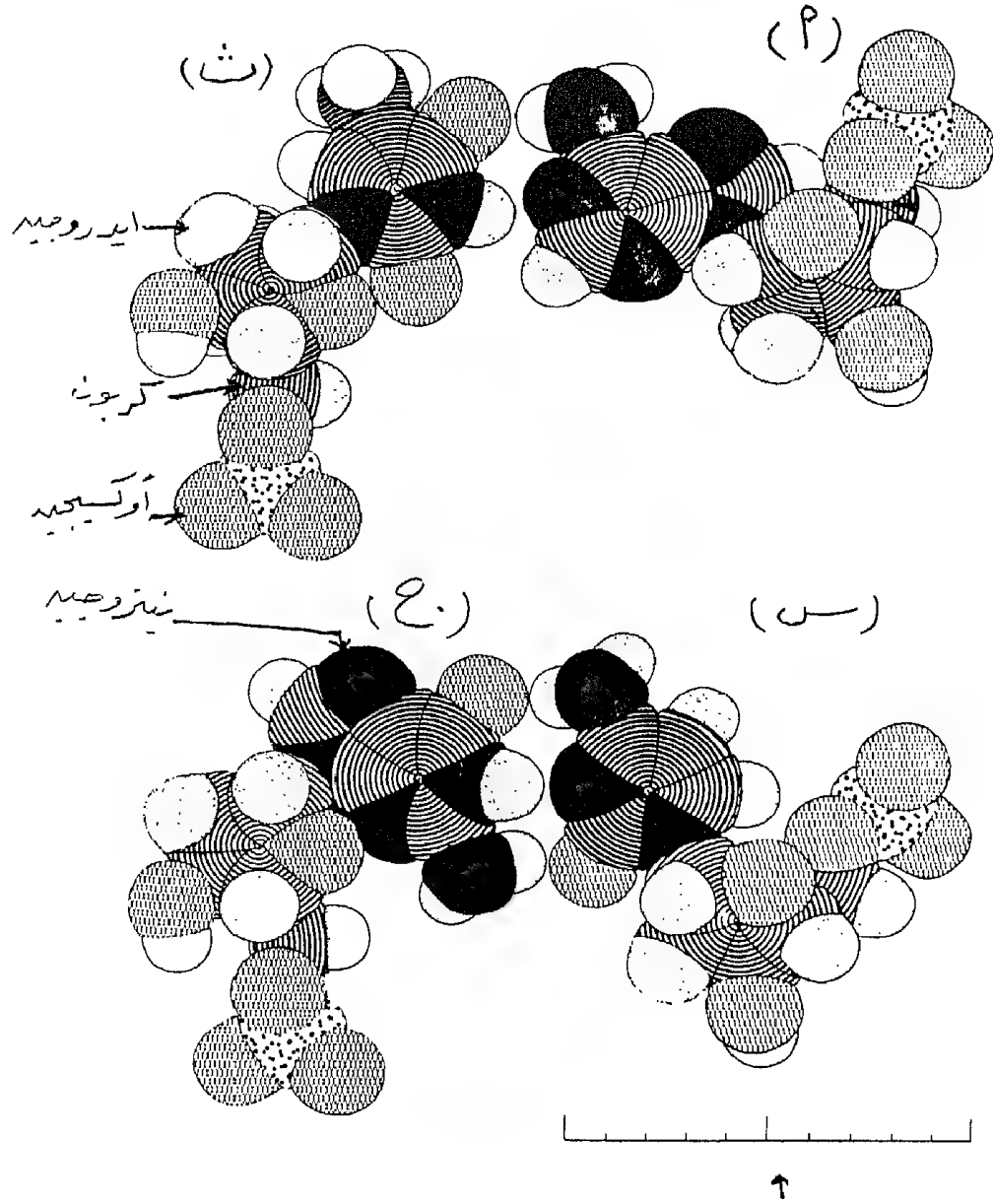
شكل (٢٤ ب) رسم مبسط لتوضيح الشرائط التي رأيناها غير واضحة في الشكل السابق (٢٤ أ) . . لكن بوسائل علمية متطورة توصل العلماء الى وجود نماذج من الأزواج التي تأتي فرادى (الى أعلى)، فنرى شريطا يتألف مع «زوجه»، أو قد يتألف «الزوجان» في غلاف أو «مهد» بروتيني (في الوسط) لتجمع بين كل زوجين، او تتكرر هذه الأزواج للمرة الثالثة كما تراها في اسفل الصورة ليصبح ضفيرة مركبة . . انه عالم غريب . . غريب . . يخفى عن العيون! .



شكل (٢٥) الشريط الذى يمتد من اليمين الى اليسار (أ) يمثل الجزئ الوراثى المبعوث وعليه الشفرة الوراثية بشكل مبسط . . لاحظ ان هذا الشريط مفرد، لأنه جاء كطبعة متقنة على احد شقى الشريط الوراثى الباعث . . اما الدوائر فهى تمثل ببساطة شديدة ايضا، مطابع الخلية (ريبوسومات) وفيها يمر الشريط الوراثى المبعوث، وبمساعدة الجزيئات الناقلة (ج) ذات الشفرة الثلاثية التى تشبك على شفرة الشريط المبعوث يمكن وضع الحامض الامينى بجوار الآخر، لتنتج سلسلة بروتينية (د) هذا ومن المعروف ان لكل حامض امينى جزئ ناقل ينقله ويرصه دون سواء (لاحظ ان الشفرة على الشريط المبعوث وعلى الجزئ الناقل تتآلف هنا ايضا على فكرة الزوجين) . .



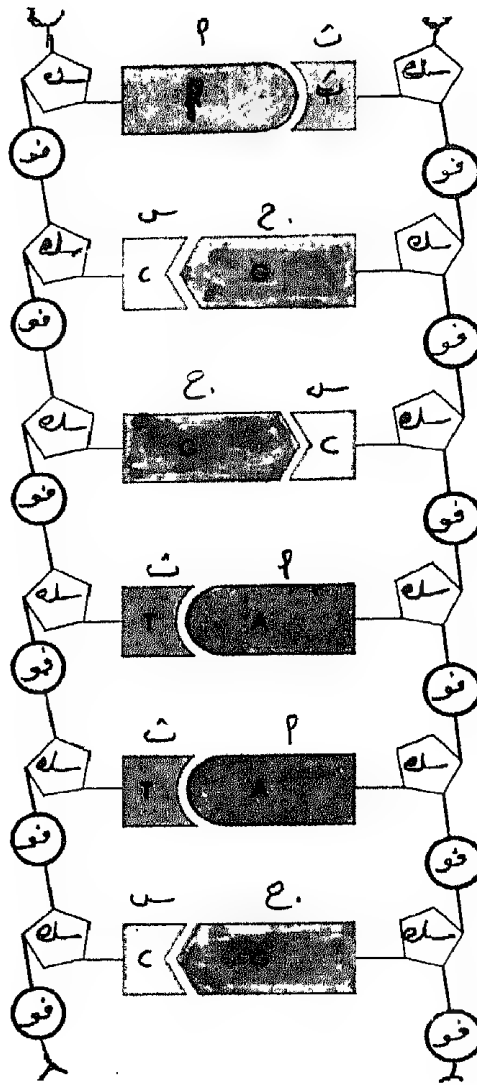
شكل (٢٦) عينات من أشرطة وراثية معزولة من كائنات مختلفة . ان الاختلاف بينها يرجع فقط الى طريقة التحضير وقوة التكبير، لكنها جميعا توحدت في سمكها ومضمونها ووظيفتها . إلخ ، وبحيث لانستطيع أن نفرق بين شريط من فيروس او بكتيريا او نبات وحيوان وإنسان، لكن «اقرأ» الشريط، تجد الحروف واحدة، لكن المعلومات مختلفة (التكبير ٧٧ الف مرة).



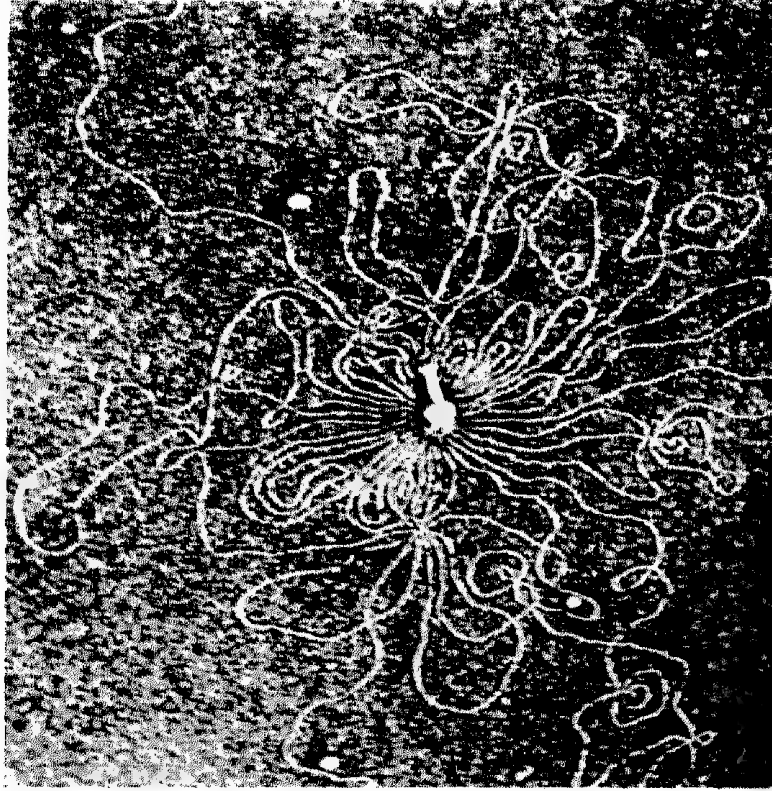
(مقياس الرسم يشير إلى وحدات تقدر بجزء من مليون جزء من المليمتر)
شكل (٢٧) من تآلف ذرات كربون وايدروجين وأوكسجين ونيتروجين تظهر مركبات كيميائية أربعة: آدينين (أ)، ثايمين (ب)، جوانين (ج)، وسيتوزين (د). وهذه البنيات الجزيئية الفريدة تنتج روابط أليكترونية (راجع الفصل الثاني) لتزواج بين أ، ب في رباط، وبين ج، د في رباط آخر. أي أن الشفرة الوراثية هنا قد قامت أيضا على فكرة الأزواج، ولاشئ غيرها، وهذه الأزواج هي التي تتراص في الأشرطة الوراثية لتعطيها «لغتها» الوراثية.



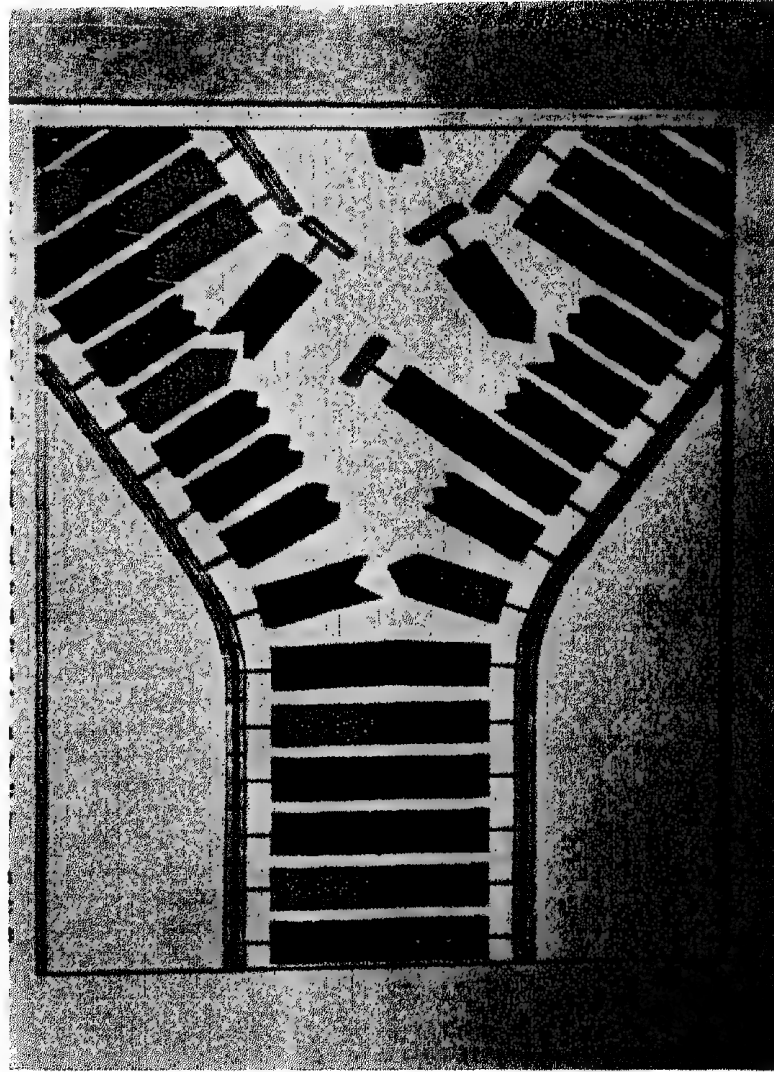
شكل (٢٨) نموذج ذرى الحوالى ثلاث لفات من الشريط (الجزىء) الوراثنى ، وهو هنا يشبه سلماً حلزونياً يدور حول نفسه ، وفيه تتراص شفرة الوراثة أ ، ث ، ج ، س على هيئة درجات السلم ، لكنها ليست مميزة لتراكب الذرات بطريقة مكدسة ، ولكى يتضح لنا معنى مجيء هذه الشفرة أزواجاً متآلفة ، فعلياً ان ننظر الى الشكل الذى يلى ذلك (شكل ٢٩) .



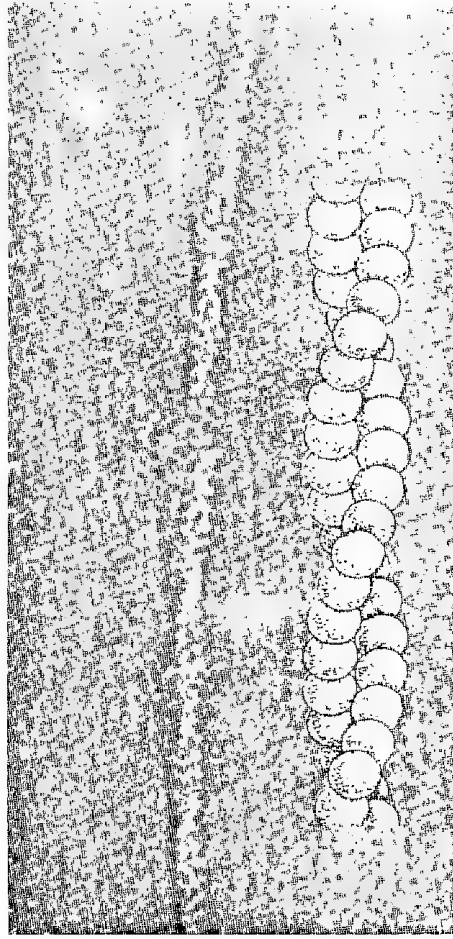
شكل (٢٩) الشفرة الوراثية الرباعية ا، ث، ج، س تظهر هنا مبسطة للغاية في هذا الرسم التوضيحي، ولقد فردنا هنا الشريط المجدول لتظهر الشفرة، مع ملاحظة أن ا، ث تتآلفان دائماً في أزواج، وأن ج، س تتآلفان كذلك في أزواج أخرى، وكأنما هي درجات سلم له على اليمين «درازين»، وعلى اليسار مثيل، والدرازين كيميائي بطبيعة الحال، وهو يتركب من سكر خاص اسمه ريبوز (سك) ومن جزيء فوسفات (فو). . وفي اشرة خلية واحدة من خلايا الانسان توجد بلايين من هذه الدرجات «أو الشفرات» لتخط جميع صفات الانسان!



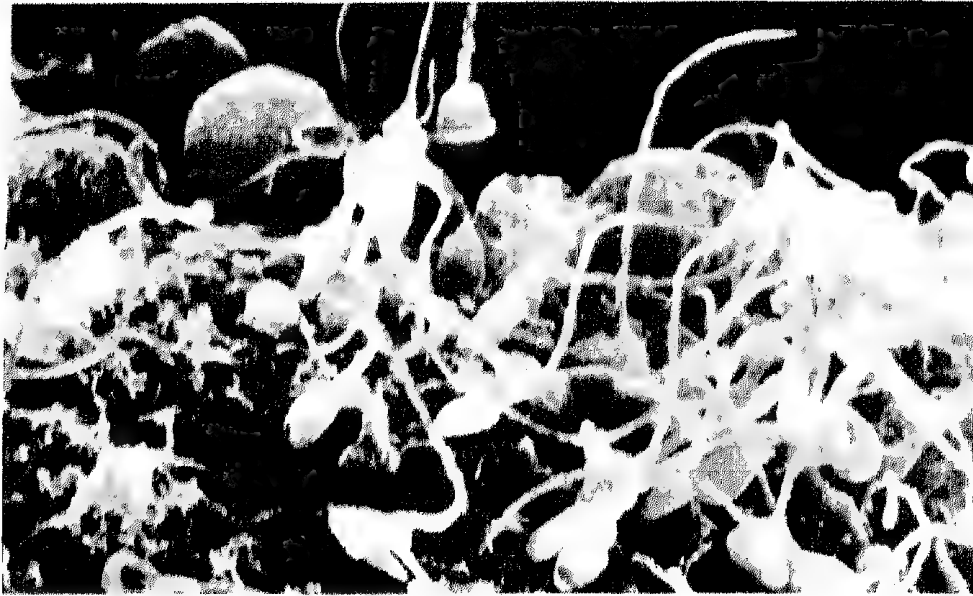
شكل (٣٠) صورة مكبرة ٩٠ ألف مرة لأحد أنواع الفيروسات . . ولقد حطم العلماء رأسه بطريقة خاصة، فخرج منه هذا الشريط الطويل (طوله في عالمه حوالى جزء واحد من ألف جزء من المليمتر)، ولاشك أن هذا الشريط كان ملفوفاً ومكدساً بطريقة «اقتصادية» حتى تستوعبه هذه الرأس الصغيرة. . قارن هذا الشريط بالشرائط الموجودة في شكل (٢٦)، تجد أنه يشبهها، ذلك أن الأشرطة موحدة اللغات في كل الكائنات. (لاحظ أننا لو كبرنا شعرة رأس ٩٠ ألف مرة لبلغ سمك الشعرة تسعة أمتار، وهذا ينبئك بضآلة سمك أشرطة الوراثة).



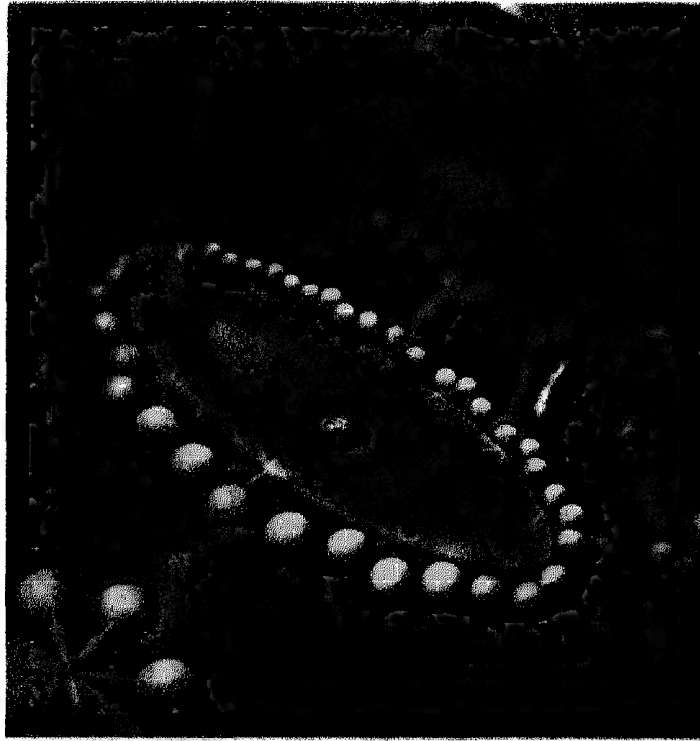
شكل (٣١) الواقع أن كل الكائنات تتكاثر أساسا عن طريق أشرطتها الوراثية ، وكأنا هي «تطبع» نسخا من ذاتها ، لتصبح الشرائط أزواجا ، والشكل يوضح ببساطة أن الشريط قد انشق طوليا الى مايشبه النصفين ، وعلى كل نصف أن يكمل نصفه «بزوجه» الذي يتآلف معه . . أى ا مع ث ، وكذلك ج مع س (أو الأحمر مع البنفسجى الغامق ، والأخضر مع الأزرق) . . وعندئذ يصبح الشريط شريطين ، وهكذا تستمر العملية فى كل المخلوقات مابقيت على الأرض حياة . .



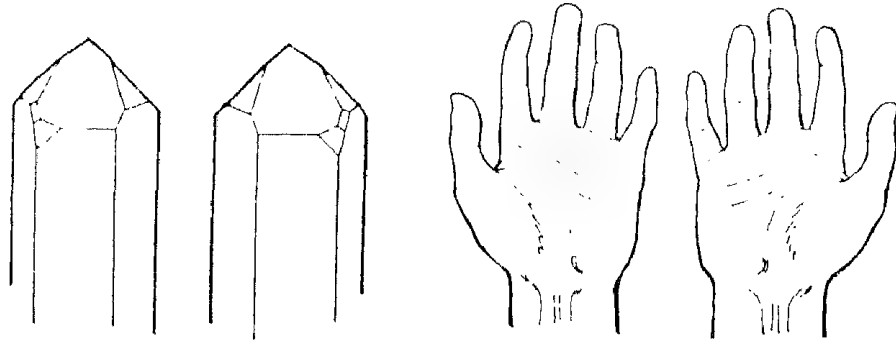
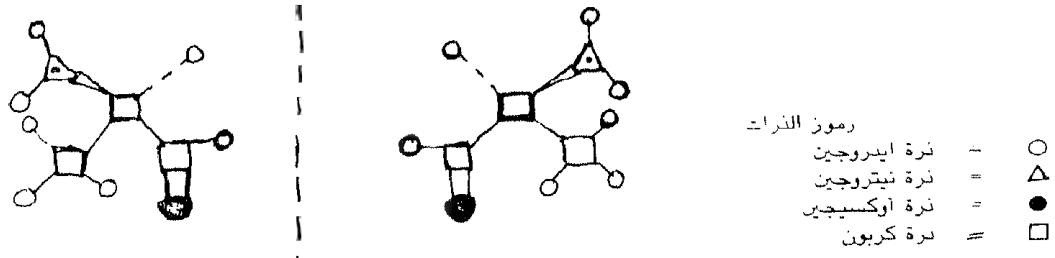
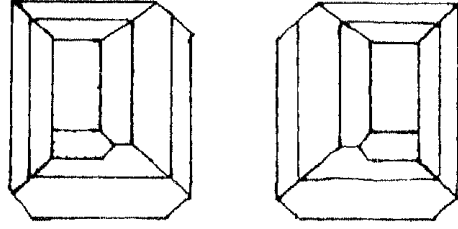
شكل (٣٢) الى اليسار يلاحظ وجود خيط كأنه الحبل المجدول، وهو فعلا كذلك، لكنه لا يكاد يفصح عن تكوينه رغم أن قوة التكبير هنا ٤٢٠ ألف مرة (شعرة الرأس بنفس التكبير يصل قطرها ٤٠ مترا، ومحيطها ١٢٥ مترا)، ومع ذلك فالشكل التوضيحي الكائن الى يمينه يبين كيف تتراص وحداته في خيطين يحتضن احدهما الآخر، وكأنهما قد تآلفا في أزواج. . . بقى أن نعرف ان مثل هذه التكوينات هي ألياف بروتينية تدخل في تكوين عضلات اجسامنا. . . أى أن العضلة الواحدة قد تحتوى على بلايين من هذه الألياف الدقيقة للغاية. .



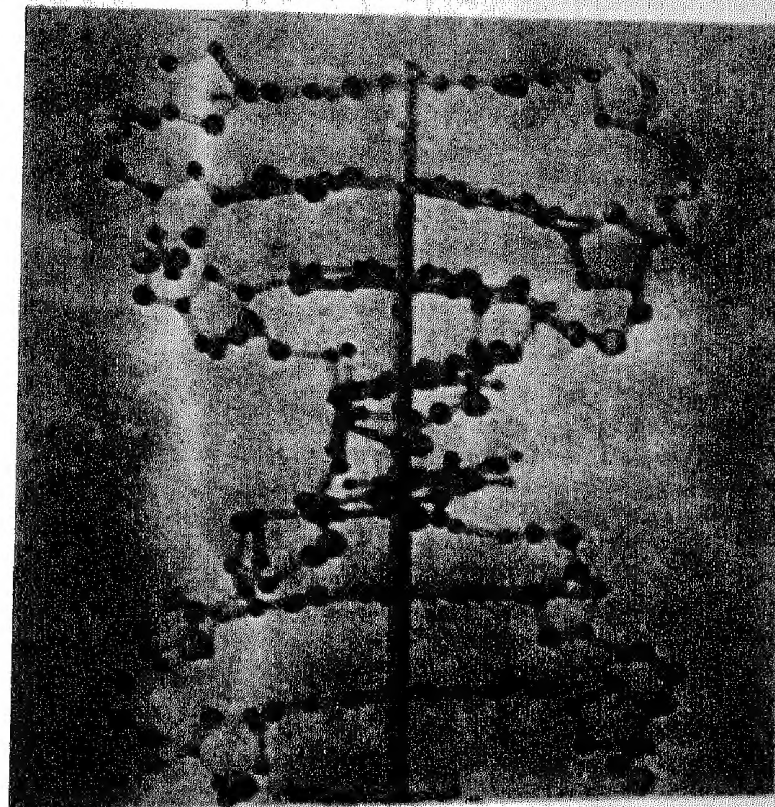
شكل (٣٣) صورة بالميكروسكوب الاليكترونى لجزء من غشاء بويضة وعليها بضع حيوانات منوية تسعى لفتح باب فى الغشاء للولوج، ولن يتأتى لها ذلك إلا بمادة تعرف باسم المخصبة والمخصبة المضادة. . أى كأنما البروتينات المسئولة عن ذلك قد جاءت أيضا على فكرة الزوجين. .



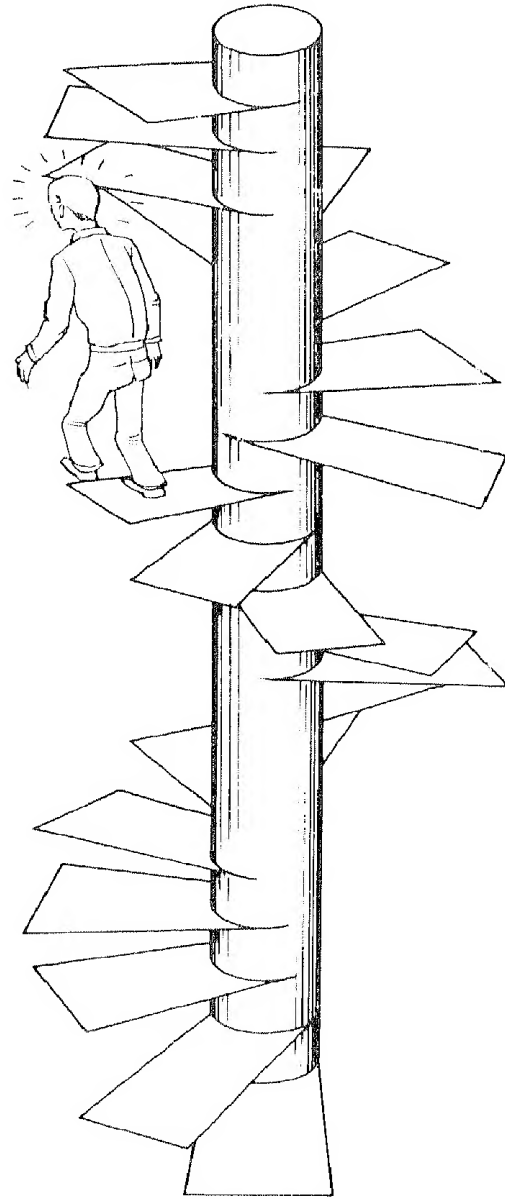
شكل (٣٤) وكما جاءت المخصبة والمخصبة المضادة لتيسر الاخصاب الذي ينشئ حياة، كذلك تجيء البروتينات والبروتينات المضادة (الاجسام المضادة) لتشبك على مواقع حساسة تراها هنا بطريقة مبسطة على سطوح الخلايا الكبيرة البيضاوية. . والجسم او البروتين المضاد يظهر هنا باللون الأزرق ليلبس أو يتآلف مع مكونات خاصة على الخلايا (دوائر حمراء)، فتعادلها وتبطل مفعولها، وهكذا يتضح لنا معنى الأزواج من البروتينات. .



شكل (٣٥) إلى أعلى تظهر بلورات حامض الطرطير اليميني واليساري وكأئنا هي وصورتها في المرأة، وفي وسط الصورة نرى نموذجاً لواحد من الأحماض الأمينية، وكأئنا هو أيضاً صورة يمينية وصورة يسارية، وفي أسفل نرى كفين وبلورتين وكأئنا احدهما صورة للأخرى، وفي كل هذا يكمن التناسق في الخلق على هيئة صورة يمينية وأخرى يسارية.



شكل (٣٦) لقد جاءت الجزئيات الوراثية على هيئة سلام حلزونية تدور في اتجاه محدد، لأن الحياة قد اختارت لذلك احماضا نووية يمينية فقط، ولو حدث الخلط بين اليميني واليسارى، لأدى ذلك الى فوضى قد نراها في سلم حلزوني اعتباطى (انظر الشكل التالى - شكل ٣٧).



شكل (٣٧) لو أن تصميم السلم الحلزوني قد جاء ليدور في اتجاهات اعتباطية - كما نراه هنا - فان ذلك سيؤدي إلى وقوع الهابطين أو الصاعدين في صعوبات لا تحمد عقباه، وكذلك تكون جزئيات الحياة التي تترايط في جزئيات اكبر، اذ لا بد أن تلف أو تتجه في اتجاه واحد محدد، لتسرى الحياة بنظام متقن . .

هذا الكتاب

من آيات القرآن التي استرعت انتباه المؤلف ، وشغلت عقله بالتأمل ، والتفكير الواعى : تلك الآيات التي تشير إلى خلق الأزواج .

وكثيرا ما يمر الناس عليها مرور الكرام ، فلا يدركون منها إلا ظاهرها ، أما الباطن فمحجوب عنهم ، ولن يصلوا إليه إلا بقدر ما أدركوا من أسرار الله فى خلقه .

فالظاهر . . هو ما يراه المفسرون رأى العين ، فالإنسان زوجان ، ذكر وأنثى ، رجل وامرأة ، وكذلك الحيوان والنبات .

أما الباطن ، فهو أعمق من ذلك بكثير . . . صحيح أننا لا نراه رأى العين ، ولا ندركه بحواسنا المحدودة . . . لكنه - مع ذلك - موجود ، وله نشأة حقيقية تلائم فكرته خلق الزوجين ، بدءا من الجسيمات التي تدخل فى تكوين الذرات ، وانتهاءً بالسماوات بما فيها من نجوم ومجرات .

فإلى كل قارئ مهتم بعقله أكثر من بطنه ، فيغذيه بنور العلم والمعرفة ، لعله يتقرب أكثر إلى الله ، المبدع ، الخالق ، المصور ، الذى أتقن كل شئ صنعاً . فى الكون والحياة . . تبارك الله أحسن الخالقين .

حقا . . . إن من أسرار إعجاز القرآن أنه صالح لكل زمان ومكان ، كما هو صالح لكل مستويات الفكر عند الإنسان

السعر : ٢٥ ريالا

Bibliotheca Alexandrina



0281589

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com